رواية

سيبيلّا أليرامو

26.1.2019

اِمرأة

ترجمة: دلال نصر الله

سيبيلّا أليرامو

امـرأة

ترجمة: دلال نصر الله

امـرأة

رواية

Author: **Sibilla Aleramo**	اسم المؤلف: **سيبيلّا أليرامو**
Title: **Una Donna**	عنوان الكتاب: **امرأة**
Translated by: **Dalal M. NasrAllah**	ترجمة: **دلال نصر الله**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: **دار المدى**
First Edition: **2018**	الطبعة الأولى: **2018**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al–Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

الفصل الأول

-1-

حظيتُ بطفولة نشيطة خالية من الهموم. إذا ما حاولتُ عيش تفاصيلها من جديد في مخيّلتي، وإشعالها في عقلي الواعي... أفشل. أرى الطّفلة التّي كنتها في السّادسة، أو العاشرة من عمري كما لو أنّ تلك السّنوات حلم. حلمٌ جميل ورقيق، يحيط به النّور، وينبض بالحياة كقطعة موسيقيّة، أقلُّ استدعاءٍ للزّمن الحاضر قد يُبدِّدُه، ومع ذلك يُشعِرُني بسرورٍ عظيم.

ولزمن طويل، وفي أحلك فترات حياتي، اعتبَرْتُ سِنيَّ حياتي الأولى مُفعمة بالحيويّة، وفي منتهى الكمال. أمّا الآن، وبعَيْن الشَّك، أنظر للماضي وأرى اضطرابي حتّى في تلك المرحلة الزّمنيّة، حتّى في طفولتي لم أكن في منتهى السّعادة، ولا في منتهى التّعاسة كذلك. غير أنّي كنتُ على يقين تام من قوّتي واستقلالي. كنتُ أكبرَ مِن أُختَيَّ وأخي، وقد فرضتُ سيطرتي عليهم. أظهر أبي للجميع أنّي ابنتُه المفضّلة علناً، وكنت أدرك كم أرادني أنْ أتطوّر، كلّما تقدّمت في العمر. كنتُ معافاة الصّحة، دمثة الخلق، وذكيّة، كما كنتُ أمتلك ألعاباً، وسكاكرَ، وكتباً. وجزءٌ من الحديقة كان مخصّصاً لي. لم تحرمني أمّي من شيء، ولا حتّى من صديقات اللّهو اللّاتي تقبّلن قيادتي بصدرٍ رحب.

لم يُهيمن عليَّ شيءٌ غير حبّي لوالِدِي، أمّا حبّي لوالدتي فاعتبرته من المسلّمات. كنتُ أحبُّه حبّاً جمّاً. لاحظتُ هذا التّباين في مشاعري، لكنّي لم أحاول تسويغه. كان مثلاً أعلى احتذيتُ به. كلُّ ما جعلَ الحياة تستحقُّ العيش، كان ملكاً له. آمنت بلا مثقال ذرّةٍ من شكّ أنّ جاذبيّته هي

عَطيّة الآلهة له. ليس له نظير. هو العارف والعالم بكل شيء، وهو على حق دوماً. كنتُ إذا مشيتُ إلى جانبه على امتداد شوارع المدينة أو في الأرياف... خلف أسوار المدينة، أُمسك بيده لساعات، وأمتلئ ببهجة استثنائية. لا أهميّة لأي شخص آخر، عدانا. روى لي أبي الحكايات عن جدَّي اللذين فارقا الحياة بعد ولادتي مباشرة، وعن طفولته، وروائع الأمور التّي فعلها. أخبرني أنّه كان في الثّامنة من عمره فقط، عندما شاهد وصول الجنود الفرنسيين إلى تورين (قبل توحيد إيطاليا). يا لماضيه السّاحر! رفعتُ رأسي بعدها وناظرته: فارعُ الطّول، ورشيقٌ، ونشيطٌ، رأسه الأبيُّ مرفوعٌ بشموخ، وعلى شفتيه ابتسامة شابٍّ مسيطر. بدا المستقبل في تلك اللحظات مليئاً بمغامرات موعودة.

لقد أشرف على واجباتي وقراءاتي، لكنّه لم يطالبني ببذل الكثير من الجهد. أمّا إذا زارني أساتذتي في المنزل، فإنّ سعة اطّلاعه تبهرهم، فيعاملونه بإجلال وتوقير. كنت من صفوة تلامذة المدرسة، وكنتُ أعزو السبّب إلى كوني طفلة موهوبة. لاحظتُ منذ عامي الدّراسي الأول فروقات بين ثيابي والطّعام الذي في حافظة الغداء، وثياب وطعام زميلاتي. بدأت أتعرّف بعدها على ألقاب أُسرهِن - عمّالٌ اضطهدَتْهم صراعات العمل، أو أصحاب محلّات جهلة وأمّيون. وعندما عدتُ للمنزل، انتبهتُ إلى اسم والدي ووظيفته المنقوشَين على لوحة معدنيّة مصقولة إلى جانب باب منزلنا.

ولدتُ في قرية صغيرة وفقيرة، حيث عمل والدي أستاذاً للعلوم. في الخامسة من عمري، تشاجر مع الأساتذة وفقد على إثر ذلك وظيفته. فعمل بعدها مع خالي، وهو صاحب مؤسّسات تجارية ضخمة في ميلان. أدركتُ فوراً أنّه لم يستسِغ منقلَب حاله، لأنّه أمضى جُلّ وقت فراغه في غرفة صغيرة فوضويّة، احتفظ فيها بكل المعدّات الفيزيائية والكيميائية في المنزل. كنتُ أسعد وأبتهج في تلك الغرفة، ففيها تعلّمتُ كثيراً من الأشياء.

كنت عجولة معظم الأحيان؛ ذات فضول شديد، مما حفّزني على التّمتع بالحياة. لم أشعر بملل قط. رفضتُ الخروج مع ماما أحياناً لزيارة صديقاتها بعد الظهيرة، لأجلس على الأريكة، وأقرأ أي كتاب أضع يدي عليه. استعصى أغلب الكتب على فهمي، بينما كان بعضها الآخر يصبُّ صبّاً كالنبيذ في مخيّلتي، وينقلني إلى عالم مختلف. توقّفتُ عن القراءة بين الفينة والأخرى بحثاً عن كلمات تصف الأفكار الملتبسة التي قرأتها، وكنتُ أحياناً ألفظ هذه الكلمات بصوت مرتفع، كما لو كنتُ أتلو شطراً من مقطعٍ شِعريٍّ مجهول المصدر، ثمّ أحمرُّ خجلاً. كم مرّة احمرَّتْ فيها وجنتاي على تلك الأريكة وأنا أقرأ أفكاراً بلهاء، وصدّقت بسببها أنّي امرأة جميلة تسلب الألباب. خشيتُ عدم التّمييز بين أحاسيسي الحقيقيّة والمتخيَّلة. استقبل والدي كل تجلّياتي الرّوحية الشّعرية بعدم اكتراثٍ وازدراء؛ وادّعى أنّ هكذا أفكار تجاوزتْ استيعابه. ورغم أنّ والدتي ألقت مقاطع شعرية أثيرة ذات أبيات موزونة، وتكلّمت بشغف عن شذرات من أعمال ملحميّة قديمة، إلا أنّها لم تفعل ذلك في حضوره. آمَنَت ووثِقتْ دوماً بآرائه أكثر من آرائها.

التمَسَتْ له العذر دائماً إذا تعكّر مزاجه. وقذفتْ الرّعب في قلوبنا جميعاً، وألقتْ بنا في حالة من العذاب الذي يتعذّر وصفه، عندما تختنق وتغصّ بدموعها، فتهرَعُ إلى غرفتها. بدت مُهانة ومُثبَّطة معظم الوقت في حضوره. على أيّ حال، احترمنا نحن الأطفال سلطتَه هو لا سلطتَها هي.

ومع ذلك، لا أتذكّر أنّهما خاضا شجارات جدّية أمامنا: مجرد تذمّرات متفرّقة، أو انتقادات لاذعة، أو تساؤلات غاضبة. استدعى شغبُنا، أو عدمُ مبالاة الخادمة، حنقَ والدي المفاجئ غالباً، لكن حتّى في ذلك بدت ماما مسؤولة عمّا يحصل. فإمّا أنْ تضع يدها على رأسها وهي تصغي له، وكأنّها تشعر بإعياء مفاجئ، وإمّا أنْ تبتسم. كمْ كرهتُ تلك الابتسامة التي تشوِّه فمَها الجميل المطبق!

أتساءل إذا ما كانت تفكّر عند هكذا مواقف أنّ ماضيها كان مختلفاً.

بالكاد كلّمتْني عن طفولتها، لكن ما قالتْه كوّن ذكريات أقلَّ إثارة للاهتمام، من تلك التّي كونَتها ذكريات والدي. كان أبي عاملاً من ذوي الياقات البيضاء، أما هي فقد عاشت في كنف أسرة في ظروف شديدة التّواضع. مثل جدّتي لأبي، أنجبت أمّها كثيراً من الأطفال، يعيش معظمهم خارج البلد الآن. فهمت أنها عاشت في فقر مدقع، دون كثير من الحب، كانت سندريلا أسرتها. التقتْ بابا في حفل وهي في العشرين من عمرها. أرتني شكله ذات يوم؛ صورة قديمة له: كان ما يزال فتيّاً، وسيماً، باسماً. عيناه فقط خانتا إرادته التي لا تقهر. التقطت الصّورة قبل عام من تخرّجه في الجامعة. وفور تخرجه قَبل العمل في سلك التّدريس، وعقدا قرانهما.

وبعد عام واحد من زواجهما، وُلدتُ. كلّما كلّمتني أمّي عن الغرفتين الصّغيرتَيْن، المؤثّثتَيْن اللتين عاشا فيها في البداية، يتوهّج وجهها الشّاحب والمتحفّظ إشراقاً. لم أفهم سبب حزنِها وشقائها المتواصِلَيْن. ولم أفهم سبب انتحابها السّريع وهي تعلم علم اليقين أنّ والدي لا يطيق منظر بكائها. أجهل إذا امتلكتْ يوماً شجاعة التّعبير عن رأيها، اختلفت اختلافاً كبيراً عنه دائماً. ما سبب هلعنا نحن الأطفال منها، ولماذا لم نطعها إلّا فيما ندر؟ كانت تفقد رَباطة جأشها معنا أحياناً، تماماً كما فعل والدي، غير أنّ غضبها كان يؤدي لذرفها دموعاً غزيرة، وكأنّها قد حبستها طويلاً. قد يكون غضب والدي شديداً، لكنه يبدو طبيعياً، أما غضب أمّي علينا أو على الخادمات فقد ناقض طبيعتها الرّقيقة – ارتعاشات جسديّة مفاجئة تندم عليها فوراً.

شاهدتُ عينَي أمّي تترقرقان بدموع لم تنهمر مرّات عدّة، هيّجت فِيَّ انزعاجاً لم أستطِعْ التّحكم فيه، لم يكن شعوراً بالشّفقة، أو الألم، أو الذّل، بل كان اكتئاباً شديداً. أدركتُ أنّ استجابتي لها ليست سليمة، ولم أستطعْ مَنع ما كان حدوثُه وشيكاً. ولم أمتلك كذلك أدنى فكرة عن ماهيّة ذلك الشيء. صرتُ أعي وأنا في الثّامنة من عمري توتّراً غريباً: ربّما لم تكن أمّي أمّاً «حقيقية»، كالأمهات اللّاتي قرأتُ عنهن في الكتب، اللاتي

غمرن أبناءهن بالسّعادة من خلال حبّهن، وتيقُّنهن من توفير الحماية الدائمة. بعد عام أو عامين أدركتُ أنّي لم أمنح أمي كل الحب الذي تمنيت منحها إيّاه. لا بدّ أنّ الخوف هو ما منعني من النّظر عن كثب في مسبّبات هذا الحزن المقيم في منزلنا، ومنعني من إظهار عاطفتي تلقائيّاً نحوها. تمنيت دوماً لو أنّي طوّقتها بذراعَي على أمل أن أفهمها يوماً، وأعدها بالاعتناء بها عندما أكبر في العمر، وأختم بذلك على ميثاقٍ ينصّ على تبادل العناية والدعم، كذاك الذي ختمتُه مع والدي منذ أمد طويل.

أعرف أنّها أُعجِبَت بي، حتّى لو لم تخبِرْني بذلك صراحةً. كانت فخورة بي كما كانت بزوجها، وجدَت أنّنا نتمتّع بذات الإرادة الحديديّة، وبالمقابل رفضَت التّعليم الذي أراده لي رفضاً تاماً. قلقتْ عليَّ، وخافت أنْ أكبر بمشاعر معدومة، وأنْ أعيش فقط من خلال ثقافتي. ومع ذلك لم تمتلك جسارة مجادلته علناً بهذا الشأن.

ومع ذلك لم أشعر أنَّ والدي قد قام بأي محاولة حقيقية لفهمي أنا أيضاً. شعرتُ أنّي وحيدة تماماً. ولذلك كنتُ ألجأ لأحلام اليقظة؛ العصبُ الخفيّ لعالمي السِّرّي.

بدأتُ أتعلم مفهوم العار. حياةٌ سريّة تنامت فِيَّ، توازي وجودي اليومي وتختلف كليّاً عنه. في عامي الأول في المدرسة بدأتُ أفكّر في شخصيّتي وأدركت أنها مكوّنة من عناصر متباينة؛ هناك، كنت ملائكية الطّباع، بل وأسوةً حسنة يُحتذى بها. فتاة لها ملامح مسالمة، وابتسامة خجولة، حاضرة الذّهن دائماً. لكن فور مغادرة أبواب المدرسة آخذ شهيقاً عميقاً، وكأنّي أملأُ رئتيَّ بكلِّ جزيءٍ مكوِّنٍ للهواء المحيط بي، ثمّ أرقص على الطّريق، وأثرثر بالهراء، وأدخل منزلنا كزوبعة، فيتوقّفُ إخوتي عن اللعب وينفّذون مطالبي التّعسُّفيّة.

أنساهم جميعاً عندما يحين موعد واجباتي المدرسيّة، وأذهب وحيدةً لغرفتي أو للحديقة، وأعود مبتهجة لكُتبي وإلى جهدي الثّقافي. متعة خالصة؛ لا لأنافس زميلات الدّراسة، ولا رغبةً بجوائز مسابقات لم أخُضْها.

بعدها تأتيني ماما، قبل أن أخلد للنوم، لتتلو معاً صلاةً قصيرة، بلهجة شماليّة محببة للقلب: «يا إلهي، ساعدني على النّمو بصّحة وقوّة، وساعدني لأكون بارّة بوالدَيّ»، ثمّ تتركني في الظّلام إلى جانب أختي النّائمة. حينها كنتُ أشعر بسلام ورضا عارمَيْن، يتجاوزان المدى الفيزيائي - كما لو كنتُ في تلك اللحظة، لحظة الاستلقاء بإجبار في العتمة، والصّمت، والسّكون، أتمتع بحرية أكبر من تلك التي كنت أتمتع بها في نهاري كلّه.

أحببتُ النّظر في الظلام. لم يُخِفْني، لأنّ والِدي كان قد أخبرني أني سأعثر على المشعوذات والغيلان في الحكايات المتخيّلة فقط، علاوة على أنّ ليس للعفاريت وجود. كنت أسترجع أحداث نهاري، وأتذكر ابتسامة أبي السّاحرة، ويَدَي أمّي وهما تتحركان بانزعاج انفعالي على إخوتي الأصغر سنّاً لغبائهم، وكنت أتنبّأ بما قد يحمله اليوم التّالي: نتيجة اختبار، ونزهات، وكتب جديدة، ودمى جديدة، وأصدقاء جدد، ومعلمات جديدات يجب أن أكسبهُنَّ في صَفّي.

صلّيتُ كلَّ مساءٍ لأنّ أمّي أرادتْ ذلك. صلّيتُ للرّب...

في عامي الثّاني في المدرسة الإعدادية، سمعت يوماً ما طالبة تنعتُ باحتقار طالبة أخرى كانت تجلس إلى جانبي بالـ«يهوديّة». شحب وجه زميلتي، لكنّها لم تجب. وبعد برهة انفجرت باكية، وعندما اكتشفت المعلمة ما حدث غضبت غضباً شديداً. أدهشتني الحادثة لأني لم أسمع من قبل بالفروقات بين الأعراق أو الأديان. لكنّ معلمتي قالت شيئاً زاد دهشتني أكثر. قالت إنّ كل الأديان تستحقّ الاحترام لأنّها جميعاً تقرّب الإنسان من الرّب، وأنّ علينا أن نخشى فئة واحدة من البشر، ألا وهي فئة الملحدين، وهم يستحقّون شفقتَنا عليهم. فكّرتُ بوالدي فوراً. كنتُ أكيدة من أنّه مُلحد. تكلّمَ بين الفينة والأخرى عن الإلحاد، ولم يذهب للكنيسة البتّة. أيعني هذا أنّه يستحقّ شفقة معلمتي وصديقاتي والجميع؟

ظلّت هذه المسألة تقلقني وأنا مستلقية بصمت في غرفتي بعد ثلاثة

أو أربعة أعوام من الحادثة. كان أبي أكثر انفتاحاً معي فيما اعتبره كذبة أصّلها الزّمن. أخبرني أنّه قَبْلَ خلق البشر على الأرض عاشت خلائق أخرى وكانت تشبهنا، وأنّ حيوانات ونباتات أخرى قد سبقتها، وقبلهم كانت الأرض مجرّد صحراء جرداء. أخبرني أنّ أرضنا عبارة عن نقطة صغيرة في الفضاء، تشبه النّجوم التي نشاهدها في السّماء، وأنّ النجوم هي فعلاً عوالم أخرى، ولعلّها مأهولة بمخلوقات أخرى. أخبرني بكل هذه الأشياء بعفوية شديدة لم تمنحني مجالاً للشك فيه.

ومع ذلك لم يفسّرْ لي، ولم أسأله، عن سبب وجودنا على هذه الأرض. بدت الإجابات في دروس المدرسة الدّينية أكثر إقناعاً. خُلِقْنا، لأنّ الرّب أوجدَنا، وهو من يرعانا وعرشه فوق السّماوات، وسينقلنا للجنّة إذا كنّا صالحين. وعلى هذا، فحيواتنا مجرّد معابر.

لكنّ النّاس يولون أهمية كبرى لهذا العبور! ورغم أنّ لا أحد منهم يأخذ فكرة الجحيم بجديّة، إلّا أنّهم جميعاً يخشون إلحاق الضرر بأنفسهم، ويخشون المرض، والموت. كنتُ مستعدة لتأييد بابا في أن ليس للنار وجود؛ لم يقف أي ملاك على كتفي يوماً. وإذا ما كنتُ صالحة فهذا لأنّي أردتُ ذلك، وإذا ما شعرت بالذّنب فهذا لأني ارتكبتُ إثماً. وحتّى... أمّي، وأبي، وأساتذتي، والعمّال في الطّرقات، الجميع في الواقع، وحتّى الغني والقوي، يعملون ليل نهار بُغية كسب مال يُنفقونه على طعام يأكلونه لِئلّا يموتوا. ومع ذلك، مرّت الأيام، والأسابيع، والأشهر ولم يموتوا. وذات الأمر ينطبق عليَّ وعلى أخي وأختَيّ.

كانت فكرة مقلقة، لكنّها تسلّلت إلى قلبي. وسأفكّر بالأفكار العقيمة ليل غد. أتراني سأتوصّل إلى إجابة عليها؟ وأثناء اضطجاعي شبه نائمة، احتشدتْ كلماتٌ غامضة في أذني: «الخلود»، «التطور»، «الكون»، «الوعي»... تراقصت معاً حتى التبس صوتها أيضاً. فكّرتُ من جديد بالتّعبير المُبهم الذي ارتسم على وجه معلمتي. تساءلتُ عمّا إذا كانت ماما تذهب للكنيسة أيّام الآحاد بسبب إيمانها أم لأنّها تهاب الآخرين،

ثمّ تذكرتُ مساءً في شهر أيّار، المرة الوحيدة التي سمعتُ فيها موعظة، تذكرتُ رؤية مذبح مزيّن بأزهار الليلك والشّموع، وراهباً يؤرجح ذراعيه بتجبّر على المنبر وصوته يخيّم على الرّاكعين، وهو يروي لهم عن الكرامات التي كان أحد القدّيسين قادراً على تحقيقها. بدا أن الجميع يصدّقونه. وعند انتهائه، عُزف الأُرغُن مصحوباً بترتيل جوقة ترنّمت بنشيد أشبه بجدول رقراق من الفضة انساب من فوقنا. اختلج جسدي عند سماعهم، واختلجتُ مرّة أخرى وأنا أتذكّر هذه التّجربة. شعرتُ بحزن شديد لأنّي أجهل كيفيّة الصّلاة. أدركتُ بألم وحدتي، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشّعور. لِمَ عليَّ التّذمُّر في نهايةً المطاف؟ قد أكون صغيرة السّن، لكن لن أقبل بخداعي منهم. سأفهم كلَّ شيء يوماً ما، عندما أكبُر.

بإمكاني سماع أنفاس أختي ذات النسق الواحد في السرير إلى جانبي. فيمَ تحلم؟ أتحلم بمنزل الدّمى الكريستالي الذي وعدْتُها به إذا أفسحت لي مساحةً أكبر في السّرير؟ لا أملكُ أدنى فكرة عن طريقة العثور عليه... إذا كبرتُ، فسأكون أكثر عطفاً على أخي وأختَيّ. سأمتنع عن إبكائهما، وستصبح أمّي أكثر ابتهاجاً...

أمّا الآن فيجب أن أنام. كنتُ منهكة. تمنيتُ هبوب رياح عليَّ لتنقلَني إلى قمّة إحدى الجبال التي شاهدتُها في ذاك الصيف. أحببتُها كثيراً. أنا أكيدة من أنّي سمعتها تناديني عبر الأثير...

-2-

ذات صباح، حينما كنتُ أتساءل عن قرار والديْ بخصوص تعليمي بعد اجتيازي للمرحلة الإعدادية، وصل أبي فجأة إلى المنزل من عمله قبل ساعةٍ من عادته، يتبعه عاملٌ يحمل صندوقاً على كتفه. حملني والدي برهة من الزّمن، ثمّ نظر لي في عيني، وقال لأمّي التي كانت تراقبه بتوتّر: «حسناً، لقد انتهى العمل مع... لقد اكتفيت من العمل معه. سأتنفس الصّعداء أخيراً».

واجه الشّريكان مشكلات متزايدة في العمل معاً. طباعهما المختلفة ولّدت صراعات مستمرّة بينهما: إذا همّ أحدهما بأخذ خطوة إلى الأمام، عرقله الآخر. إضافة إلى أنّ العمل الرّوتيني قد أضجر والدي، وشعر أنّ راتبه متدنٍّ ولا يلبّي طموحاته. في ذلك الصّباح أشعلَتْ حادثة بسيطة جدالاً عنيفاً بينهما، مما وضع حدّاً لشراكتهما.

وفي السّادسة والثلاثين بدأ والدي حياته المهنيّة من الصّفر. كما حدث في المرة الماضية، تعطّشه لمتعة جديدة والاستقلال حثّاه على المضي قدماً.

اصطحبني في الصّباح ذاته في نزهة طويلة. ذاكرتي لا تسعفني بخصوص تفاصيل ميدان دارمي الرّحب والمغلّف بضباب الخريف أثناء حديث والدي المتواصل. خاطب نفسه على الأرجح، فآثرتُ الصّمت وازددتُ سروراً. أمريكا... أستراليا... آه، لو أنّه أخذنا في رحلة حول العالم! لقد ألمح إلى احتمالات أقل مغامرة أيضاً - العودة للتدريس،

والبدء في عمل تجاري - لكن بعيداً عن ميلان دائماً. أحببتُ المدينة دون تفكيرٍ مَليّ فيها، لكنّي وجدتها لا تُطاق منذ تلك اللحظة. لفيفٌ فاتن ينتظرني في مكان آخر. اكتنفني والدي برعايته، وبدأتُ أكبر عمراً ومكانة، وذهبتْ كل مخطّطات مستقبلي الدّراسي أدراج الرّيح. يتوجّب العمل لمساندة أسرتي! لا بدّ أنّ والدي قد رأى التماع الحماسة في عيني عندما رفعتُ رأسي لأشاهدَه.

عندما عدنا للمنزل، وجدتُ أمّي أشبه بروح هائمة. لم أفهم سبب خوفها. كانت لا تزال امرأة شابّة، أولادها أقوياء ومعافو الصّحة... وكنتُ أعرف أنّ والدي أرادها أن تكون أكثر شجاعة!

بعد عدة أسابيع أراد رجل بناء محطة كيميائية في الجنوب وطلب من والدي إدارة المصنع، لكن حتى هذه الوظيفة لم تُطمئن ماما. معها حق فوالدي كان سيخاطر مخاطرة كبيرة إذا قبل المنصب؛ لم يكن يملك خبرة في ذلك المجال. ابتسامته الجاذبة الواثقة هي التي أغوت مموّل المشروع، فقدّم عرضاً ممتازاً يتيح لنا قضاء الأعوام المقبلة في طقس مشمس. لم يتطلّع أبي للمستقبل البعيد. وشعر بالسّعادة لقبوله هذه المخاطرة في الوقت الرّاهن. لم يلتفت لمخاوف أمّي ووافق على مغادرتنا في الرّبيع.

أوه، الشّمس، الشّمس! أشعتها وفيرة ساطعة! كلّ شيء يتلألأ في هذا النّطاق الجغرافي. البحر عبارة عن مساحة شاسعة من الفضّة، والسّماء أشبه بابتسامة لا نهائية فوقي، سماءٌ احتضنتني بزرقتها اللامتناهية وجعلتني أنتبه لجمال العالم للمرة الأولى. مراعي بريانزا وبيدمونت الخضراء، ووديان الألب، التي لمحتها في طفولتي، ببحيراتها السّاكنة وحدائقها السّاحرة، لا تقارن بهذه المساحة الممتدّة، بإعجاز البحر العميق ونسيمه العليل.

تنفّست رئتاي التّواقتان كل ذلك الهواء النّقي، وكل مذاقه المالح: ركضتُ على الشّاطئ تحت الشّمس، متحدّيةً الأمواج وأنا أشعر بأنّي

قد أصبح طيراً من تلك الطّيور البيضاء التي تطفو فوق زبد البحر قبل اختفائها في الأفق. ألا أشبِهُها في الواقع؟

كم كنت سعيدة ذاك الصّيف! كم تهلّلت أساريري فرحاً خلال مراهقتي الجميلة، الخالية من الأعباء!

كنتُ في الثّانية عشرة من عمري. في قريتنا (عظّم السكّان المحلّيون من شأنها واعتبروها بلدة) كانت هناك مدرسة إعدادية فقط. استُدعي أستاذ ليعطيني الدّروس، لكنّ والدي صرَفَهُ بعد وقت قصير، لأنّه لم يعلّمني أكثر مما أعرف. اخترْتُ غرفةً كبيرة لتكون مكتباً لي في منزلنا الجديد والضّخم، وجلستُ هناك في أوقات العصر القائظ، أتصفّح بلا حماس كتباً ضخمة أهداني إيّاها والدي عن: تشريح الكائنات، والفيزياء، واللغة. شاهدتُ عندما خرجتُ للشرفة أناساً يتسكّعون كالعادة أمام المتجر، والحانة في الميدان، وشاهدتُ فلّاحات بدا أنّ أعباء الحياة تثقل كواهلهن، وشباباً غير مهندمين يتشاجرون مع بعضهم بلكنة غير مفهومة وصياح، وخلف الميدان بحرٌ متلألئ، وقُبيل غروب الشمس شاهدتُ قوارب صيد الأسماك وهي عائدة إلى الميناء. اتّضحت ألوانها المشبّعة بالحمرة والصّفرة مع اقترابها، يتبع بعضها بعضاً إلى المرفأ. التقطَ سمعي ثرثرةَ بعض الصّيادين، وسمعت أهازيجهم وهم يسحبون القوارب للشاطئ.

كنتُ إذا خرجتُ من المنزل، جريتُ إلى موقع البناء الضّخم بمحاذاة سكّة الحديد حيث يقع المصنع الجديد ويزداد ارتفاعاً بسرعة فائقة، وحيث يوجد والدي دوماً. كان يوجِدُ لي مهاماً بسيطة لأنجزها. وكنتُ أُتِمُّها بلهفة، وإتقان في تفاصيلها. سألني: «ستمدين لي يد العون لاحقاً، أليس كذلك؟ هل تريدين العمل سكرتيرة عندي عندما يجهز كل شيء؟». خجلي القديم بات يصارع شعوراً جديداً بالرّغبة في الاعتماد على النّفس والإقدام.

لربّما أراد والدي تعويضي عن انقطاعي عن الدّراسة، لكن لم يلحظ

أيُّ شخصٍ فخري بنفسي. شعرت حينذاك بأنّي على تواصل حقيقي مع العالم، وتيقّنت من أنّ الأشياء المحيطة بي أكثر تعقيداً واستحواذاً للانتباه من الأشياء التي قد أقرؤها في كتابٍ ما.

كان عمّال المصنع وسيمون، فلّاحون خالطت السّمرة بشرتهم، أقبلوا من الرّيف القريب بحثاً عن عمل. بينهم فتيات كذلك، رفعن السّقالات كبهلوانيّات، كما رفعن جرادل فيها ليمون على رؤوسهن للتّوازن. ابتسمن عندما شاهدْنَني، وشعرتُ بشيءٍ من الزّمالة معهن، انتابني الفضول نحوهن، وكرّرتُ أسماءهن التي لها وقعٌ لطيفٌ على مسمعي على إخوتي عندما عُدْتُ للمنزل. تساءلتُ إذا ما كنتُ سأتجرَّأ يوماً على إمرتهن كما أفعلُ مع الخادمات.

لاءمَ أبي وظيفته الجديدة تماماً. كان صارماً وحازماً ومليئاً بالطّاقة، ومنهمكاً دائماً في عمله. تبادلنا الأحاديث معاً على طول طرقات قريتنا بعد وجبة العشاء. شاهدَنا السّكانُ المحلّيون وهُمْ على عتبات منازلهم بإعجابٍ شابَهُ الخوفُ. اعتبروا أمّي أشبه بمريم العذراء بُعِثَتْ للحياة، وسمعنا أصوات نساءٍ يتبعنَها، يبارِكنَ أبناءها. صغيرة ورقيقة في ثيابها البسيطة، شكرتهُن أمّي بابتسامة لطيفة. في أوقات كهذه بدت حتى هي سعيدة، ونظرت لزوجها باحترام أقرب للتّبجيل، كما لو أنها قد اكتشفت حديثاً كمْ هو مذهل.

أتذكَّرُ صورةً لي التُقطت بعد عام واحدٍ، عندما بدأت أعمل بانتظام في أحد مكاتب المصنع. كنت أرتدي ملابس غريبة: سترة فيها جيوب كثيرة وصغيرة لساعتي، وقلمي، ودفتر ملاحظاتي، فوق تنورة قصيرة. شعري المموّج يغطي جبيني لكنّه قصير من الخلف، مما منحني هيئة الفتيان – تنفيذاً لمقترح والدي بالتّضحية بضفيرتي الطّويلة مقابل مجدٍ ذهبي. انعكس شكلي الغريب بوضوح علي: لم أعد طفلة، ومع ذلك لم أكن امرأة بالمعنى التّام للكلمة. اعتبرتُ نفسي عامِلةً حيّة الضمير، واكتسبْتُ ثقتي بنفسي من أهمية عملي. كان مصدرَ رضا متناهٍ أن أكون

مفيدة، نفّذت أوامر والدي بإخلاص تامّ وتفانٍ شديد. انهمكت كما فعل هو في مشكلات المصنع، ولم أملّ من معمعة كتابة الأرقام في سجل الحسابات لساعات حتى أنتهي، لكنّ مشاهدة العمّال وهم يعملون أو يتحادثون في أوقات استراحتهم القصيرة كان أشبه باستكشاف لعبة تسلبُ الألباب. في المصنع ما يزيد عن مئتي عامل. جاءت مجموعة منهم من بيدمونت، وحرصوا على تشغيل الأفران ليل نهار، أما البقيّة – الرّجال المحليّون – فمشوا دوماً قرب السّاحات، وحول سقائف المعدّات. بدا جليّاً أنّ أغلب الرّجال نبذوني. ومع ذلك، بدا أنّ مشاهدتهم إيّاي فجأة بتقاسيم وجهي الصّارمة، تمنحهم شيئاً من البهجة. أوحوا إلي من خلال مشيهم الدؤوب لوهلة شعوراً بأنّهم تقبّلوا عملَهم بسرور.

أرعبهم والدي، ووجدوني أكثر عقلانية منه. وهكذا وبتزلّف ساذج حاولوا الوصول لكُتبي الجيّدة، على أمل التأثير عليه بما يفهمه. لكنّي كنتُ أعلم علم اليقين أنّ لا فائدة من محاولة التّخفيف من انضباطه المتزمّت. وعلى أي حال، مثله، وجدتُ صرامته ضروريّة. كلُّ ما حاولتُ فعله هو حثّهم على تقبُّلها، حتى إنّي حاولت إقناعهم من خلال ضرب المثل بطاعتي له. لعّل والدي كان على دراية بمساعيهم. في النّزهات القصيرة بين المصنع ومنزلنا حدّثني بنبرة لم أسمعها من قبل في صوته – نبرة لم تكن حنونة أو لطيفة، بل هادئة، ومسترخية، وغير مضطربة: قال لي: «لنحاول تنفيذ الأمور بهذه الطّريقة، أو تلك... إذن فلنرفعْ الأجورَ قليلاً». بدا أنّه يطلب رأيي، وكنت أدرك فرحي الشّديد إذا طلب مشورتي لحلّ مشكلاته. وجدنا نحن الاثنين أنّ للمصنع قوّة وحش في قصّة خرافية حتى استلزم منّا التزاماً تاماً. تحكّمنا بأعصابنا رغم أنّه دبّ الرّعب والإثارة في أوصالنا، وهيمَن علينا هيمنةً كليّة. اعتبرنا نفسينا ربّي العمل.

إذا عدتُ للمنزل مساءً، أشعر بعدم الرّضا كطفلة عادت من مدرستها. شعرت بعدم انتمائي للمنزل، وسمحتُ لشعوري بالانعزال بالظهور من خلال ازدرائي الجليّ للآخرين. كنتُ مراهقة بلغت حديثاً عمراً مليئاً

بالتّذمّر والتّفاخر أمام الخادمات. كان لصوتي طبقةُ الاستعلاء ذاتها وأنا أشير لاستهتار أخي وأختَيَّ، وإهمالهما لواجباتهما المدرسية، ولافتقار ماما للسيّطرة التي كان من الممكن أن تجعلهم أكثر انضباطاً. لا بدّ أنّ الخادمات قد نشرن عنّي شائعات تقف لها شعور الأبدان فزعاً. لم يشاهدْنني ممسكةً بإبرةٍ في يدي قطّ، ووجودي في المنزل كان نادراً، ولم أُبدِ اهتماماً لمساعدتهنّ في الأعمال المنزلية.

مررتُ بعد ذلك بثورات انفعاليّة: يمكن مقارنتها بغضب والدي فقط. لعلّي كنتُ عصبية المزاج وهذه الانفعالات تشير إلى توتّري العصبي، أو ربما كانت ببساطة مؤشراً على اضطرابات البلوغ. أيّاً كان سببها، كانت غامضة تماماً بالنسبة لي، كغموضها للآخرين. طريقتي الوحيدة للتعامل معها هي مغادرة المنزل، والجري على الشاطئ، واستنشاق الهواء النّقي حتّى أهدأ، حينها تنجلي ذكرى غضبي من ذاكرتي، وخلال هذه العملية أنسى كذلك الحادثة التّي أزعجت أمّي.

أمي! يصعب أن أصدق كم تجاهلتها. بالكاد فكّرت فيها عند هذه المرحلة من حياتي. مذ وصلنا لذلك المكان بدأت تمرّ بإنكارٍ بطيء لذاتها، لكنّي لا أتذكّر مراحله. عانت ظاهريّاً من إحباط وخجل منعاها من الخروج وحدها أو مع الأطفال للشاطئ أو الحقول. ولم تجدْ الرّاحة في حيّنا. النّساء المحليّات من الطبقة الوسطى، وهنّ أمّيّات، وكسولات، ويؤمِنَّ بالخرافات، ويندر أن يغادرن منازلهن. أمّا الفلّاحات فكُنّ يعمَلْنَ بجدٍّ أكبَر من أزواجهن، وأغلبُ السّكان عاشوا معتمدين على البحر، يقيمون في أكواخ على بعد مئة متر منه.

لم تهتم بتاتاً بالمصنع أيضاً، ولم تزعجها مشكلاته. فرِحتُ فرحاً شديداً لهذا لأنّي لم أعتقد أنها ستوافقني على كل ما فعلته هناك، لكنّي شعرت أيضاً حتّى أكثر من وجودنا سابقاً في ميلان، أنّ أهواءها واهتماماتها كانت بعيدة كل البعد عن اهتمامات والدي وبالتّالي عنّي. كما شعرتُ أيضاً أنّ سبب هذا الاختلاف هو المشاعر السّلبية بينهما، لم

يتمكّنا دائماً من إخفاء عدم رضاهما. ولم أجعل هذه الحقيقة تزعجني: أقصيتُ هكذا أفكارٍ مقلقلةٍ عنّي، ولم أحاول سبر خباياها. لعلّي خشيتُ اكتشاف أشياءَ كنتُ أصغرَ مِن أنْ أفهمها، لكنّي لاحظتُ موقفاً بسيطاً جعلني أدرك أنّ والدي لم يحبّ والدتي بقدرِ حبّه لي.

حدث عند قرب انتهاء شتائنا الأول هنا أنْ دُعينا أنا وماما وبابا إلى مركز الإقليم على العشاء وبعدها للمسرح مع مالك المصنع وزوجته، الذي زارنا خلال الصيّف. وعند اقتراب غروب الشمس لركوب القطار، عاد والدي للمنزل وكنت قد تأنّقت وتجهّزت، وخلال وقت قصير استعدّ هو الآخر. لكن أمّي وقفت قبالة المرآة، وتردّدت في ارتداء فستانها الذي لم ترتده منذ زمن بعيد. وضعت مسحوق التّجميل على وجهها مرة تلو المرة، وعندما انزعج والدي من التّأخير، ذهبَ إليها من جديد في الغرفة.

ما يزال بإمكاني مشاهدة الغرفة، والمرأة. تلك المرأة التي بدا أنّها لا تحجبُ جمالَ الغروب بل انعكاسَ البحر الرّمادي المضطرب. وما يزال بإمكاني سماعُ عبارةٍ قُذِفَتْ كسكّين: «هل أستنتج أنك لستِ إلّا خائنة؟».

ارتجفتُ لنصف ساعة في القطار، غير قادرة على انتقاد بابا أو الدّفاع عن أمّي. ثمّ شاهدتُ وجهها فجأة، التفتَتْ نحو باب المقصورة، ثمّ جرَتْ والدّموع في عينيها. هل استرجعتْ من جديد تلك اللحظة الأليمة في ذهنها؟ أم تذكرتْ لحظات أخرى كثيرة تشبهها؟ أم أحزنَها أنّي شهدتُ على هذه الإهانة؟ بدأتُ التّفكير فيها لأوّل مرّة، على أنّها امرأة مريضة، ومكتئبة وضعيفة، لا ترغب في الشّفاء أو حتّى الاعتراف بوجود خطب فيها. قرأتُ في الكتب التي في المنزل عن الحبّ والكراهية. لاحظتُ علاقات جيراننا وخصوماتهم. اعتقدتُ أني أعرف الكثير عن الحياة، لكنّي لم أستطع تفسير سبب تعاسة أسرتنا لنفسي.

مرّت أشهر، وازدادت أمّي حزناً، وتضاءل اهتمام والدي بها. وأصبحت نزهاتهما معاً أكثر ندرة، أمّا أنا - رغم أنّي لم أعدْ طفلة -

فعشتُ حياتي كما لو أنّ شيئاً لا يهدّدها. ما السّبب؟ ببساطة لا يمكنني تفسير عَمَاي، لإعجابي المستمر بوالدي. لعلّ أمّي خجلت خجلاً شديداً من مرضها، وعانت أيّما معاناة منه، لتطلعني على سببه، ولربّما كان السّبب صغر سني وإخلاصي للرجل الذي ألحق بها الأذى، ولعلّها تركت التّبريرات للمستقبل، على أمل وجود فرصة مبهجة.

لم تعد تذهب للكنيسة حتى مع إصرار والدي، ممّا منح النّساء المرائيات حجّة للنميمة. كانت حسنة التّربية ومهذّبة لدرجة أنهنّ جميعاً أحببنها واحترمنها. لعلّهن منذ البداية استنتجن أنها يجب أن تكون تعيسة مع زوج كوالدي وطفلة مثلي؛ فوالدي لم يَرَ ضغينةَ أو شحناءَ السّكان المحليّين. كان الثّريَّ الوحيد في المنطقة، بغضّ النّظر عن مالك المصنع الذي يقيم أساساً في ميلان، والكونت الذي يملك تقريباً أغلب أراضي المنطقة وغالباً ما يزورنا (مع زوجته المتزيّنة بالجواهر كما لو أنّها صنم جاهليّ، ركع الرّجالُ والنّساءُ إذا مرّا حتّى يلامسوا التّراب تقريباً). ضمّت الطبقة الوسطى رجالاً محترمين عملياً، كانوا يتسيّدون أبناء المجتمع، ومن ضمنهم: مجموعة محامين حرّضوا على دعاوى قضائيّة طويلة ورّطوا فيها الفلاحين البسطاء الذين جفّفتْ الضّرائب الدّماء في عروقهم، وعدداً من الرّهبان وضبّاط الشرطة. لكن لم يُبدِ والدي أي استجابة لملاحظاتهم فقط. بل وأسوأ من ذلك، لقد رفض عشاءً أقاموه على شرفه، ورفض أن يكون رئيس منشأة محليّة صغيرة احتاجت التّمويل. هكذا تصرّفات لم يسمع بها من قبل، وغير معتادة، وتكاد تكون مهينة. شاهدتُ عدداً من المرّات نساءً غادرن منزلنا ممتعضات ومدهوشات، لأنّه لم يقبل دجاجاتٍ كنّ يأملن أنْ تحسّن تعامله مع أبنائهن.

كان أبناء الطبقة الكادحة هم الأكثر جاذبية في المجتمع، لكنّهم كسولون وغير متعلّمين. بدا على الأقل أنهم يملكون فطرةً سليمة. شكواهم الوحيدة بخصوص «المسؤول» كما أطلقوا عليه، هي: أنّ معايير تزمّته «مبالغ بها كثيراً»، لقد استحدَثَها.

استجاب والدي في البداية لهذا الحقد بالضّحك عليه. لكن عندما تعرّف تدريجيّاً على الطّبقة العاملة المحليّة ازداد حنقاً. غيظه الأشد كان بسبب استفحال النّفاق. كلّما ازداد انعزالاً، ازدادت قراراته عناداً. بالغ في التّفريق بين أشباه الشّرقيين ورفاقه الشّماليين. بدا أنّهم يضغطون عليه، وشعر أنه محاط بالبؤس. لعلّه كان يتصرف دونما وعي لخوفه من تشبيهه أو تشبيه أبنائه بهذا المجتمع، ونتيجة لذلك لم يعد باستطاعته التّصرف بموضوعية. بالغ في تعظيم نفوذه لدرجة أن تحقيره غدا تأليباً. أراد في البداية تعيين عمال من بيدمونت في المصنع - إنشاء شبه مستعمرة - لكنّ مالك المصنع لم يسمح له بذلك لأسباب اقتصادية، ولحنكته أيضاً. ومع ذلك، كانت الأيدي العاملة من الشّمال، عاشوا هم وأسرهم في مجموعة معزولة، ارتاب منها عمّال القرية.

اعتدت أنا أيضاً على المقارنة بيننا وبيْن «الآخرين» ووجدت في ذلك متعة كبيرة. عندما هرعت من المصنع للمنزل، وقبعتي الحمراء على شعري القصير، سمعت النّاس وهم يتحدثون عنّي خلال مروري. كان هناك متسكعون غير معتادين خارج الحانة والذين شاهدوني، بابتسامة عريضة. بدا أنّي أثرتُ فضولهم، وحرمانهم أيضاً من مشاهدة مرور الفتيات المحلّيّات، خجلتُ وحذرتُ، ومع ذلك أعجبني تودّدهم. جعلني هؤلاء الرجال أبغُضُ القرية. أحببتها فقط لجمال الطّبيعة الطّاغي، والذي لم أملّه. شعرتُ بحنين غريب لميلان. غريبٌ لأنّي غادرت المدينة دون تأنيب للضمير، والذي عبّرت عنه في الرّسائل المكتوبة لصديقاتي فقط. عندما أتذكّر مدينتي في الشّمال، والتي غدت ذكرى من الأمس، بدت لي مُغوية وساحرة. اشتقتُ للمدينة التي لا ينضبُ نشاطُها، وجموع النّاس، والازدحام الذي منحها جوهرها. كنت أحاول استعادة ذكراها وهي في أفضل حالاتها، أستحضر صوراً محدّدة، جعلتني أصدِّق وجودي فيها: حين كنتُ فتاة صغيرة ممسكة بيد والدي، ونحن نمشي في الضباب أو النّهار المغبّر. تخيّلتُ ذكريات الطفولة بخصوص مدينة

طفولتي بِأسى لم أفصح عنه، أسى شديد جعلني أرتجف بلا تحكم منّي إذا تذكرته أحياناً.

أخذني بابا إلى روما ونابلس كمكافأة لي على قضائي الشّتاء «في الخدمة»، وتوقي هذا للمدينة، حيث توجد «الحياة» فعلاً، اشتعل فِيَّ من جديد. لأوّل مرّة منذ عامَيْن مشيتُ بين الحشود والتقيت بأشخاص عَلا سيماءَهم وعيٌ ثقافيٌّ وفطنة ونباهة. شعرتُ بأنّي طفلة من جديد: بلا اكتراث، بلا انشغال بال، لكنّها تتوق لاكتساب المعرفة من كل شيء، ومن كل شخص يحيط بها. لتلك التّجربة تأثير عاطفي أعظم عليَّ من أي معرض فنّي أو منظر طبيعي جميل. رسائلي إلى أمّي، ويوميّات رحلتنا التي شجعني والدي على كتابتها قد امتلأت بالملاحظات البريئة، ملاحظات منتشية، وانتقادات طفوليّة، لكنّ حماسة استجابتي العاطفية استمرّت في ظهورها.

تُوِّجَتْ تلك الإجازة ببلوغي. ذِكراي غامضةٌ عنه، اغتسلت بنور شديد النّقاء، الصّور التّي أستحضرها تراكمت فوق بعضها، كحروف كلمة جديدة قد تعني نتاجاً جوهرياً للوجود. جعلتُها جزءاً منّي، خطرة، ومليئة بالدّهشة. بإمكاني الشّعور بدفءٍ جديد يسري في أوردتي، إعياءٌ لا سبب له، وتوقٌ لحنان أكبر، وآفاقٌ أوسع... لكنّي أشعر بخمول في الوقت الحالي. أيعني هذا كلّه أنّي على وشك الدّخول في مرحلة جديدة من حياتي؟

-3-

كان ثالث سبتمبر نقضيه في القرية. حلّ موسم السّباحة وولّى، بلا اختلاف عن المرّات التي سبقته. أتذكر أنّي قسّمت وقتي بين متعة السّباحة المنهكة وقتاً أطول ومسافات أبعد، والقراءة كثيراً، والتّي أضنت عقلي وتركتني بشعور ناقم مبهم.

لا أتذكر شيئاً مميزاً من ذاك الصّيف ولا شعور والدتي، أو أخي، أو أختَيَّ، أو صديقاتي، ولا حتّى والدي. لكنّنا أقمنا في إحدى الليالي حفلاً لزوّار الصّيف والأسر المحلّية. فكرة والدي حتماً. ثلاث غرف من منزلنا شُغِلَتْ وزُيِّنَتْ بالمصابيح والنّباتات، وزارنا قرابةُ أربعين شخصاً: نسوة من روما ونابلس، التمعتْ أعينهن بالمتعة عندما شاهدن نمط حياتنا الرّيفي، ورجالٌ متأنّقون، شاهدوا والدي بفضول وهو يؤدي دور المُضيف، وعددٌ من محاسبي المكتب، وأساتذة المدرسة المحليين مع أسرهم. رقص الشّباب والعجائز على أنغام جوقة صغيرة. أجبرتُ على المشاركة كفتاة كبرى، رغم تردّدي لأنّ الرّقص يصيبني بالصّداع. شعرتُ أنّ الفتيان يشيرون لي، ومحاولاتهم المتذبذبة أسعدتني. في الاستراحات بين الرّقصة والأخرى لاحظتُ أنّي أشاهد والدي. أبي راقص ممتاز ورشيق، وكأنّه شابٌّ من جديد، لفت انتباه الجميع بخفّة ظلّه، وبطوله الفارع شقّ طريقه بين الأزواج ضارباً لي مثلاً في اللطف، والتواضع، وإشاعة الفرح. تساءلتُ عمّا إذا كانت أمّي سعيدة تلك الأمسية. مغلّفة في فستان أسود من الدّانتيل اللامع والموشّى بحبّات اللؤلؤ. ذكّرتني

بسنوات مضت، في إحدى الأماسي شاهدتها وهي متوجّهة إلى المسرح وهي تتأبّط ذراع والدي. خجولة لكنّها تزهو فخورةً في ثيابها الأنيقة. كانت لا تزال بهيّة الطّلعة. في ذلك المساء لم تتجاوز الثّلاثين من عمرها.

ومع ذلك، فتصرفاتها الآن تشعرني أنّها قد فقدت ثقتها بنفسها تماماً، رغم أنّي لا أستطيع تخيّل السّبب. وبجهد جهيد تمكّنتُ من متابعة الحوارات واللهو. أجهل إذا كان هذا جليّاً لوالدي والضّيوف.

استيقظت قبل الثّامنة من صباح اليوم التّالي. مررت بغرفة أمّي، واعتقدتُ أنّها ما تزال في السّرير. طرقت الباب لأرى إذا كان هناك ما يمكنني فعله لها. سمعتُ نداءها المتململ يدعوني للدخول. حينها كان والدي نائماً: رأيتُ وجهها متّجهاً نحو الباب. لكنّه كان مُلغزاً بين الوسادات وملاءات السرير، ولذلك أغلقت الباب وذهبتُ لتناول طعام الإفطار مع أخي وأختَيَّ.

مضى زمنٌ يسير، سمعت بعده صيحة، تلتها صيحات، وصرخة مهولة خارج المنزل، جعلتني أقفز مبتعدة عن المائدة. قبل أن يتسنّى لي الوقت للوصول للنّافذة انتقلت الجلبة إلى عتبات السّلالم وعدتُ أدراجي إلى باب المنزل، والأطفال والخادمات تبعوني. سمعتُ أصواتاً متعجبة محذّرة، وأقداماً بخطوات متناسقة كما لو أنّها لأشخاص يحملون شيئاً ثقيلاً. الخادمة أسرعت لباب المنزل، ثمّ صرخت، واستدارت بسرعة لتحجب عنّا المنظر، ثمّ دفعتنا لدخول غرفة الطّعام. لكنّي شاهدتُ رجُلَين يحملان جسدَ أمّي. بيضاء، ونصف عارية. رمى أحدهم قماشاً عليها، والذي تدلّى للأسفل، وأبرز ارتخاء ذراعيْها، وقدميْها، وشعرها. تبعهم حشدٌ من النّاس. اعتقدتُ أنّي قد جُنِنْت.

لم أُجَنّ. إنّها أمّي فعلاً. عيناها مغمضتان، ووجهها شاحب كميّتة، وعلى إحدى ذراعيْها وجنبها بقعٌ حمراء. خرج والدي من غرفة النّوم. دون أنْ يكمل ارتداء ثيابه وبدا مَبغوتاً حرفياً. امتلأ وجهُه بالدّموع ويده على جبينه. لا أتذكر شيئاً بعد ذلك، لأنّي غبتُ عن الوعي.

سمعتُ ثرثرة نساء يناقشن ما حدث عندما أفقت. لقد شاهدن جسداً أبيض يطل من شرفتنا وبسبب أشعة الشمس حسبنه أحد الأطفال. ورغم أنّهنَّ أشرن له ليدخل إلى لمنزل، إلّا أنّ الجسدَ مال إلى الأمام، ثمّ هوى مرتطماً بالأرض.

حضر الطبيب، ورافقتُه إلى غرفة النّوم حيث استلقتْ أمي بلا حراك. أبي، وهو في اضطراب شديد، جلس إلى جانبها، يعصر كفّيه. بكى بكاءً جيّاشاً عندما شاهدني، شاهدتُ دموعه لأول مرّة، ثمّ انهار على الكرسي، وسحبني بين ركبتيه وغطّى وجهه في كتفي.

غمرني إحساسٌ لا يطاق بالفَقْد. قوّة عاطفة أبي ملأتني رعباً. انتابني إحساس عظيم بأنّ هذه اللحظة المريعة هي تمهيد للحظاتٍ مرعبةٍ ستلحق بها. لم أُردْه أن يتركني. ولأول مرّة في حياتي تمنّيتُ لو بإمكاني إغماض عينَيَّ والاختفاء. لم أتمكّن من التفكير في شيء لأقوله – ولا حتّى سؤاله عمّا إذا كانت أمّي على قيد الحياة.

كانت حيّة ترزق. بأعجوبة، رأسها وجسدها سليمان. كُسر ذراعها الأيسر فقط، وظلّت فاقدة للوعي ثلاثة أيّام، ورفضت بعدها الحديث عن أي أمر متعلّق بالواقعة. توسّل إليها أبي ذات مساء وهو جاثٍ على ركبتيه أن تُخبره عن السّبب، لكنّها لم تفعل. كل ما قالته: «يجب أن تغفر لي، سامحني...». كنّا معاً جميعاً في الغرفة. انتحب والدي، وإلى يومنا هذا أجهل مَن منهما فطر قلبي أكثر: دموعه أم حديث أمي الواهن، الصادر من إنسانة شبه ميّتة.

أردتُ أن أصدّق فكرة أنها أقدمت على الانتحار لنوبة جنون ألمّت بها، رغم أن هذه الفكرة أرعبتني أيضاً. والداً، مغلوباً على أمره ومرتعداً في الغرفة، بدا صادقاً في مشاعره عندما سألها عن سبب اكتئابها. حدّقت فيه بصمت. انتابني شعور غريب أنّها كانت تنتظر مبرّره هو... ومع ذلك كنتُ مقتنعة أنّه لم يملك أدنى فكرة عمّا كان يدنو منه.

ظلّت طريحة الفراش شهرين، أنهكتها حمى شكّلت خطورة على

مخّها. كانت حاضرة كما لم تكن من قبل، وغائبة كما لو أنّها هجرتنا أخيراً. حام في المنزل مناخٌ مشؤوم، شيء اختلف عن قلقنا من استمرار مرضها. في مقاومة هذا الحال صعوبة، استمرّت في التّزايد. لم ينتبه الأطفال كثيراً إلى ما حدث. عاشوا الحزن بكل بساطة. لكنّي لاحظتُ، بانزعاج أولاً ثمّ بانتباه، أنّه - ورغم تعافي أمي واشتداد عودها ببطء، ووجود إصرار مميّز فيها - كانت هناك فجوات في ذاكرتها، وكانت إمّا تتصرف بعاطفة مفرطة أو بعداء نحو المحيطين بها. على أي حال، أشغلتُ نفسي في إدارة شؤون المنزل، والعمل بضع ساعات في المنزل، والقراءة، وكتابة الرّسائل. ولم أتأكد حتماً من هذه الملاحظة، أو أحاول فض الصّراعات التي ولّدتها فِيَّ. شعرتُ بالأسف على والدي واهتممتُ بوالدتي بحذر، وكأنني بذلك سأكون قادرة على طرد الأعراض الجديدة. أفزعني مرضها. تيقنتُ في تلك الفترة من حبي لهما، لكن تولّد لدي الآن قلق جديد. وأقنعت نفسي تدريجيّاً، أني من الآن فصاعداً وحيدة مع مشاعري، منفصلة تماماً عنهما، ورغم اهتمامي بهما وإشفاقي عليهما، شعرتُ أنّي لا أعرفهما، وحتماً لم أجرؤ على إصدار الأحكام عليهما.

تعافت أمي مع انتهاء الشّتاء تقريباً. يدُها التي كسرت أوهن قليلاً، ويجب تجبيرها مرّتين لتدنّي مهارة الجَرّاح، لم تستطع تحريك يدها بشكل سليم. شعرَت بتوعّك متواصل. كَبِرتْ قبل أوانها، وبدتْ أكثرَ تحطماً وانهياراً من ذي قبل. ترقرقت عيناها بالدّموع كلّما قَبّلت أختُنا الصّغرى اليدَ العاجزة لوالدتنا. وكأنّها عادت طفلة... طفلة مذعورة... عالقة في ذكريات هفواتها.

تغلّب والدي على حزنه فور تخلُّصها من غضبِها، واستعادتها لرباطة جأشها. لكنّه غاص في تأملات طويلة وصامتة، ولم نجرؤ على مقاطعته. أنا أيضاً كنتُ أجلس وأفكّر. فكّرت في الماضي وحاولتُ لأول مرّة سبر أغواره بحثاً عن دلائل تفسّر الحاضر إذا ربطتُها ببعضها.

بدأتُ أدركُ أنّ صراعات هذين الشخصين اللذين أحبهما كانت تختلف اختلافاً تاماً عن الجدالات التي تنشأ أحياناً بيني وبين والدي. بدا أنّ لصراعاتهما جذوراً ضاربةً في العمق، ومصدرها أمر حتمي، لا يقهر. سلَّطَت النّور على خصوماتي مع بعض النّاس وما فعلوه. هام فيما مضى عشقاً بتلك المخلوقة الضعيفة، والآن، في عزلته الصّامتة، لا بدّ أنّه يتذكّر ماضٍ لا أعرفُ شيئاً عنه. لكنّي متيقّنة الآن بأنّ سعادتهما مجرّد ذكرى. إضافةً لذلك، لم أعد أصدّق أنّ والدي سيتعلّمان كيفية العثورَ على القوّة في حبهما لبعضهما أو استعادة شمل أسرتنا.

ورغم أنّ والدي كان مراعياً لمشاعر الآخرين وأحاسيسهم، وحتّى ودوداً مع أمّي ومتحكّماً بأعصابه، إلّا أنّه تقبّل سوداويتها الرّاسخة باستسلام. أما هي، فبدا أنّ شعورها بالخزي قد أوجعها، وقطّع نياط قلبها، لكنّها تاقت للصّلح.

وفي أحد الأيّام، حينما كانت أشعة الشّمس تغمر المنزل، ظلّا قريبيْن من بعضهما أكثر من ساعة في الغرفة الصغيرة حيث ينام والدي في هذه الفترة. وعندما خرجا، كانت وجنة أمّي متورّدة، ابتسمتْ ابتسامة موارية لشابّة. لم أشاهدها على هذا الحال منذ وقت طويل. حدَّقت فِيَّ وكأنّها لا تعرفني، أمّا أبي فبدا تعيساً وتحاشى التقاء عينيه بعيني.

غير أنّ منظر أمّي وهي تلقي برأسها على كتف والدي بدأ يزعجني في الأسابيع اللاحقة. كنتُ أكيدة من أنّه يتجنّبها. في الواقع كان يتجنّبنا جميعاً، وهرب تدريجياً من المنزل، دون أنْ يلحظه أحد.

أقبل الربيع مسرعاً. شعرتُ بالحاجة للبكاء الشّديد أحياناً وقت الشّفق الجميل، للانهيار. أين ولّت أيّام الطّفولة الهانئات: لماذا نأى أبي بنفسه عنّي؟ أما شعر بحجم معاناتي؟ أما عاد يحبني؟ آه، لم يعدْ يحبني حتماً. فقدتُ ثقتي به، فقدتُ ثقتي بنفسي، وثقتي بالحياة كلّها.

وبتدريج بطيء، ترسّخ كلٌّ من الشّباب والتّفاؤل فِيَّ. تابعتُ عملي، وكتبتُ رسائل مطوّلة لصديقاتي أفصحتُ فيها عن تنسُّكِ اكتشفته حديثاً.

لاطفتُ العمّال البيدمونتيين بسذاجة، ربّما لأعوّض عن انزعاجي من السّكان المحلّيّين والأشياء المحليّة.

كنتُ أتغيَّر جسديّاً؛ ملامحي، إيماءاتي باتت أقلّ غرابة. غدا وجهي أكثرَ إشراقاً، وأكثرَ تعبيراً. والدي هو من جعلني أتمعّن في نفسي في المرآة بارتباك. سمعتُه يقول لنفسه ذات مساء بزهو وابتهاج: «ستكون جميلة...». لم أصدّق كلماته في الواقع، لكنّها أدخلت السّرور على قلبي.

لاحظ الآخرون تغيّري أيضاً. كان هناك شاب وسيم قد جاء من القرية وعمل في المكتب إلى جانبي. وقد استمتعتُ برفقته وصداقته. حينما نكون وحيدين في فترات الاستراحة بين المهمة والأخرى كنّا نتبادل الأحاديث والمزاح بسعادة. عاملني قبل ذلك الرّبيع باحترام فائق، شابَهُ شيءٌ من التّهكم. لكنّه الآن يطري عليَّ. في البداية، أسعدني موقفه الجديد. أخبرني عن ثرثرات السّكان وكرّر على مسمعي كل ما قاله أصحابه له عنّي. أحدهم – كمّا ادّعى – كان واقعاً في غرامي وأراد خطفي. الاختطاف شائعٌ في هذا الجزء من البلد، حيث يليه اغتصاب وزواج. اعتبرتُ المسألة مزحة وذكّرته بوالدي الذي يُدخل اسمه الرّعب في الأوصال. لكنّي انزعجتُ بعد ذلك، عندما شاهدتُ عينَي ذلك العاشق المتيّم.

أخبرني شابٌّ في المكتب أيضاً أنّ الكاهن قد أشار وهو على المنبر في مواضع عدّة لأسرتنا. وادّعى أنّ متاعب والدتي الصّحّية هي عقوباتٌ من الرّب. أقسم الشّاب أنّ مجموعةً من كبيرات السّن يَقُمْنَ بإشارة الصّلاة كلّما مررتُ بجانبهن. أطلقن عليَّ اسم «ابنة إبليس»، واعتبروني امرأة غريبة، وحتّى مؤذية لامتلاكي مؤهلات غامضة. الرّجال من ناحية أخرى، أُعجبوا بي – حسب كلامه – وكان مصرّاً على إطلاعي على تغزلهم. بدا أنّ إخباره لي بهذا يمنحه متعة. لم أعرف إذا كان عليَّ الشّعور بالإطراء، أو الإهانة من القصص التّي نسجوها. لكنّه بدا صادقاً، وكنتُ على استعداد لتذكيره بألّا ينسى مكانته؛ ففي نهاية المطاف أنا ابنة

المدير وساعدُه الأيمن. حاولت التَّقليل من أهمية كلامه بالضّحك عليه، لأريه أنّي لا أعوّل كثيراً على ما قاله، وغيّرتُ دفّة الحوار فجأة. لم يكن ذا تعليم جيد وكانت تصرّفاته تقليدية: كنتُ أجذبه علانية لنقاشات أحشره فيها بالزّاوية بسرعة. ثمّ أضحك، أقهقه عالياً، فترتسِم أمارات الدّهشة على وجهه كالفتيات، ثمّ يضحك معي على نفسه.

جاءت امرأة عجوز لمساعدة أمّي كانت ضحيّة أخرى لنزواتي. تحّدثنا كثيراً، وكانت تقول إنّي إذا كبرتُ وأصبحتُ أمّاً، فسوف أتأمّل وظيفتي الحاليّة وأبتسم. أكّدتُ لها بهدوء أنّي لن أتزوج، وأنّي لن أكون سعيدة إلا إذا عملت. وأضفتُ، أنّ على جميع الفتيات العمل، لأنّ الزّواج خطأ، وهذا ما أخبرني به والدي. امتعضَت العجوز، وقالت: «وما الذي سيحدث حينئذ؟ سينتهي العالم مع عدم الإنجاب، ألا تدركين ذلك؟».

أخرستني كلماتها. كلّمتني أمّي قبل سنوات عن الغموض الذي يكتنف جسد المرأة، لكنّها لم توضح لي طبيعة العلاقات بين الرّجل والمرأة. حتى لو كان يريدُ إبطال زواجه، كنت أكيدة من أنّه يريد إنجاب مزيد من الأطفال، وكنتُ أكيدة من أنّه لا يريد قطع دابر البشر. لكنّي لم أشعر بمسؤوليّة جسيمة حيال المستقبل. كنتُ لا أزال مضربة عن الزّواج.

ورغم أنّ والدتي كانت حاضرة عند جدالي مع العجوز، إلّا أنّها لم تشاركنا الحديث. كانت شاردة الذهن تماماً، كما لو أنّها انسحبَت لتعيش في صحراء قابعة في قعر روحها. وعند قرب انتهاء الرّبيع، اقترح والدي أنْ نذهب أنا وهي إلى تورين لنقيم شهراً واحداً مع أقاربنا. شعرتُ بمسؤولية عظيمة لفكرة الذهاب وحدي معها؛ خشيتُ دوماً ارتكابها فعلاً وحشيّاً أو مدمّراً مرّة أخرى، وربما أني لم أكن واثقة من أنّي أحبها حبّاً كبيراً، كما يجب أن أفعل أو أريد، شعرتُ بالعجز أمام وجهها الحزين، وانحنيتُ أمام شعوري العظيم بالأسى.

لكنّنا ذهبنا. وفي الإجازة بدت في الواقع أهدأ وأكثر رغبة بمد يد العون لها، أكثر نشاطاً بدنيّاً أيضاً. أمّا أنا، فوجدتُ الرّجوع لمزارات

طفولتي بشكل غير متوقع قد ساعدتني على تبديد شيء من مخاوفي، ومنحتني شجاعة جديدة.

حل الصّيف من جديد. كنت قد بلغتُ الخامسة عشر من عمري. ووصلت مجموعة جديدة من السّباحين. التقوا يومياً على الشّاطئ، ودعونا لمشاركتهم رياضاتهم. انتاب الجميع فضولٌ بشأني، رجال من كل الأعمار راقبوني حيثما ذهبت. حلمتُ أحلام يقظة: أولاً مع شاب خلوق ومشاكس، ثم مع آخر ما زال يافعاً ذا جسدٍ قوي ورشيق وشعرٍ مموَّج، ذكّرني بالتّماثيل البرونزيّة التي شاهدتُها في المتاحف. لكنّ أيّا منهما لم يجعل قلبي ينبض بشكل أسرع أو يلهمني لألاطفها كما فعل هو. تساءلتُ دائماً إذا كان هذا وقوعاً في الحُب، لكنّي اعتبرته مصدراً للمتعة، شيئاً منحني نكهةً جديدةً للحياة التي أعيشها الآن بطولها وعرضها. ولساعات داعبتني الأمواج تحت الشّمس الحارقة، واستمتعتُ بخطورة السّباحة بعيداً عن الشاطئ حيث اختفيتُ عن مرأى الجميع. جعلتني هذه الأنشطة البدنيّة أتوحّد مع الطبيعة، جعلتني أعي أنّي شابّة، وأنّي سليمة الجسد، وحرّة. أسعدني ذلك.

لكنّ عودة الحزن إلى المنزل أفزعتني؛ أصيبت أمّي بالاكتئاب وكادت أنْ تفقد اتّزانها العقلي. إضافة لذلك، لفتَ والدي نظرها لهذا بأبشع الألفاظ، أما الأطفال الصّغار فأعانوا أنفسهم أكثر من قبل. مضى وقتٌ طويل مذ شارَكنا اللعب، وأدّى دور الطّفل. من الواضح أنّه قد اكتفى من الحياة الأسرية، ولم يعد مهتمّاً بأيٍّ منّا. في الخريف، بدأ يقول كل ليلة أنّ عليه البقاء لوقت متأخّر في المصنع. اقتصر وجوده في المنزل على تناول الوجبات، وإذا حضر فإنّه يلزم الصّمت. سأم الموظّفون من سوء معاملته المتزايد، وهو الآن يعاملني بلا اختلاف عنهم. أربكني هذا الصّد، وحاولتُ بيأس معرفة سببه.

ولم يدم جهلي طويلاً. كنتُ وزميلي في المكتب وحيدَيْن أغلب الوقت في المكتب الكبير، غرفة رماديّة الجدران والمكاتب، على

رفوفها ملفّات وسجلّات الحسابات، وفرن كبير للفحم، والذي جعل الهواء شديد الحرارة. يدخلها محاسب آخر بعد الظهيرة فقط، أما الرّابع فلم يكن موجوداً. في الاستراحات بين العمل استمرينا في تبادل بعض الملاحظات التّافهة، أو إكمال حوارات أكثر جدّية قاطعناها، لنستكملها من جديد في النّهار التّالي. كان في الخامسة والعشرين من عمره، شديد الفحولة نابضاً بالنّشاط، ذا بشرة سمراء، وعينَيْن بنّيتَيْن لامعتيْن. تحدّث بإسهاب وبلا تكلّف. ومع ذلك كان هناك شيءٌ من التّنافر، الذي لم يزعجني إخفاؤه دائماً. وهو لم يُوْلِ أهميةً كبيرة لملاحظات الفتاة الصّغيرة. تفاجأ من اعتمادي على نفسي، حيث اعتبر النّساء خاضعات ذليلات بالفطرة. كنتُ أعرف شيئاً يسيراً عنه. سمعتُ شائعة غريبة تحكي عن احتياله على فتاة قبل ذهابه للعسكريّة، ومحاولتها الانتحار عندما رفض الزّواج منها بعد عودته. لم يحبّه والدي. تحمّله فقط لأنّه كان عاملاً ماهراً، لكن إذا وجدَنَا نكلّم بعضاً، عنّفني.

ربّما من قبيل الانتقام، أخبرني هذا الرّجل بما يعرفه أغلب من في القرية؛ أنّ لوالدي عشيقة، شابّة تعمل في المصنع، وأنّ علاقتهما بدأت أثناء سفرنا أنا وأمي في الرّبيع، وأنّ والدي زارها يومياً كلّ مساء. وأنّها وأسرتها الفقيرة والكبيرة، أقاموا على حسابه خارج القرية.

والدي! آلاف الحوادث البسيطة توضّحت لي. أُجبرْتُ على تصديق الفضيحة المريعة. مرضتُ ألماً وخزياً، وتمنّيتُ انشقاق الأرض لتبلعني.

حتى ذلك الوقت كان والدي مثلي الأعلى. ومع ذلك، وخلال لحظة، تحوّل إلى مخلوق مرعب. رجل أنشأني على تقدير الصّادقين والمخلصين، لكنّه أخفى عمداً جزءاً من حياته عن أمّي، وعنّا جميعاً. آه، أبي، يا أبي! كنتُ بالأمس أنعمُ بالأمن والأمان لوجاهتنا، ومقامنا، لكن تلاشى هذا كلّه الآن: فسدَ كفساد المحيطين بنا، هوَيْنا لمكانة تقلّ عن مكانتهم. آه، يا حسرتي على أخي وأختَيَّ! هل عرفَت أمّي شيئاً عمّا

حدث؟ أشفقتُ فجأة على تلك المرأة المنكوبة وامتلأ قلبي غضباً، وعتباً وجّهتُ بعضه لنفسي.

لعلّ والدي قد خانها فعلاً قبل محاولتها الانتحار. نبذتُ الفكرة في ذلك الوقت بإذعانٍ تام آنذاك، وأنبذها الآن. فكرة في غاية السّوء. لا يمكنني تقبّل أنّ مرضها العضوي منذ ذلك الحين كان دلالة على سلوكه.

لو أنّ لي فقط إعادتَه لرشده، ومواجهةَ شجاعتي وإصراري بشجاعته وإصراره، وإنقاذَ أسرتنا من الانهيار!

لكن الرّجل الذي أخبرني بهذا في هذا الوقت، والذي أطلعني على هذه الفاجعة - إمّا أنّه خبيث أو مجنون - أقنعني بعدم جدوى هكذا رد فعل. رسم عند هذه المرحلة صورة كئيبة للمستقبل. كنتُ لأعتبر شفقته عليَّ في ظروف أخرى مهينة. بالكاد ألاحظها الآن. ضغطَ على يدي، ومرَّر أصابعه بين خصلات شعري. وبلا انتباه، ورغم ارتجافي غضباً ويأساً، استسلمتُ لمتعة التّواصل معه. لم أتمكن من فهم هذه القوّة، هذا الحضور الذي بدأت أدركه توّاً. ما هو الحب؟ الصّورة التّي استلهمتُها عنه من الكتب كانت في غاية الرّومانسية. أيمكن أن يكون الحبّ مرعباً، تجربة تحطّ من قيمة الذّات؟ هل كان بقوّة تفوّقت على حبي لوالدي حتّى احتقرته؟

لم أفكّر كثيراً فيما يمكن أن تقدّمه الحياة. افترضتُ دائماً أنّها تحتوي على مخزون لا ينضب من الخير والجمال. غير أنّها الآن تبدو منهوبة، وعصيّةً على الفهم.

كم يوماً عشتُها على هذا الحال من العذاب المريع؟ لم أعد أعرف. كل ما أعرفه هو أنّي في فترات الاكتئاب، والتي تلت بداية الجنون، سمعتُ صوتاً شابّاً، ومتّقداً، وملحّاً إلى جانبي. صوتٌ أمطرني بكلمات الغزل. لعلّي كنتُ منهكة، أو مسلوبة الحواس، لكنّ الصّوت استمر، وسيطر عليَّ بعذب الكلام. وبدأتُ أستجيب، بتكذيب مستمر، ولكن أيضاً بأمل جديد: أصبحتُ ألطف واستسلمت له.

وبطريقة ما اكتشفت أمّي علاقتنا. ذات مساء، ولسبب ما نسيته،

استدعى والدي بعض الرّجال بعد العشاء. أحدهم محامٍ - رجل غير مهم أصبح أقرب أصحاب أبي - وتحدّث بلطف، كما حضر زميل المكتب. تحدّثوا جميعاً. انفجرتْ أمّي ضاحكة فجأةً، وسألتْ المحامي: «أخبرني، هل صحيح أنّك وزوجي تمشيان وحدكما بمحاذاة النّهر؟ أخبرني بما تتحدثان عنه...».

تبادل الرّجال النّظرات، مذعورين، شاحبي اللون ومتوتّرين. وقفت أمّي، وقالت إنّها تشعر بتوعّك، ثمّ غادرت الغرفة. بقينا هناك، على محيّا والدي علامات غضب شديد مكبوت. وبتمهّل، بصوت أقرب للهمس، أعلن قائلاً: «لقد جنّت هذه المرأة!».

صرختُ فجأة وقلتُ له: «وسأجنّ أنا أيضاً يا بابا!»، وأنا أنظر إليه بتمرّد ويأس. سرى في جسدي تشنّجٌ مؤلم.

صرخ قائلاً: «أمسكي لسانك». وبغضب اندفع أمامي كما لو أنّه يريد تقطيع أوصالي، لكنّه كظم غيظه بجهد، وصرخ قائلاً: «غادري الغرفة!».

لا أعرف كيف اجتزتُ تلك الليلة. ظلّت أمّي في سريرها مصابة بالحمى في صباح اليوم التّالي. لا بدّ أنّها انتظرته ليتفقّدها ويطلب الصّفح منها، لكنّه لم يذهب إليها. أمّا أنا، فأخبرني أنّ عملي في المصنع سينتهي بانقضاء الشّهر. كان هذا رد فعله على غضبي تلك الليلة.

ذرفتُ دموعاً مريرة عندما وصلتُ للمكتب. أحببتُ حياة المصنع تلك كثيراً، لم أطق التّخلي عنها. لم أتخيّل وجود عمل آخر سيُناسبني غيره. سكبتُ هذه الهواجس على صديقي، الذي حضر ليُؤازرني.

«وماذا عنّي؟ ماذا سأفعل؟»، همس قائلاً. عاد إلى مكتبه، أخفى وجهه بين يديه. واهتزّ كتفاه بتوتّر. ذهبتُ له وقد نسيتُ ألمي. أمسكني بقوّة وقرّبني منه.

«أَسَرَ جمالُكِ الألبابَ البارحة. أنا فخورٌ بك. أردتُ الارتماءَ عند ركبتيكِ وتقبيلكِ...».

أغمضتُ عيني. أكان يقول الحقيقة؟ أردتُ التّحقّق من كل قلبي. أغمضتُهما بضع دقائق. شفتاه على شفتي. أطبق عليَّ جسدي. وبدل إثارة حواسي، هدأت. انتظرتُ على أمل أنْ يغمُرني شعورٌ جارف.

ضوضاء مفاجئة أبعدت نظري عنه. أمّا في اليوم التّالي، فكنّا وحدنا من جديد، وذهبتُ إليه طلباً للرّاحة. أخبرني أنّه يحبّني، قبّلني قبلات قصيرة. تقزّزتُ منها قليلاً ثمّ أبعدته. لكنّي احتجتُ إلى رفقته في الأيام التّالية. أنسى حزني عندما أكون بمعيّته. نسيت شعور عدم التّصديق الذي شعرتُ به، كلّما شاهدتُ عينَي أبي. بدت مشاعري مشلولة: كلّ ما أردتْهُ هو النّسيان فقط.

شعر صديقي بجهلي ولاحظ فتوري – فتور فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. وباستخدام التّلميحات والابتسامات المواربة، أخفى استثارته. وببطءٍ داعب جسدي، جعلني أنفعل وأقبّله كما لو كنّا نلعب لعبة غراميّة. كنت قد بدأتُ أرسم ملامح حب عظيم في ذهني، وبدا أنّ هذه التّوطئة هي المتعة الوحيدة.

وهكذا، في الصّباح، عندما كنتُ أقف عند الباب الفاصل بين مكتب والدي ومكتبنا، وعلى شفتي ابتسامة طفوليّة، فاجأني باحتضان قاسٍ غير معتاد. يداه المرتجفتان فتّشتا ملابسي، أدارتا جسدي حتى كنتُ نصف مرميّة على المقعد. شعرتُ بالاختناق وبدأت أئنّ، ارتفع صوتي إلى صرخة كبتُّها بتغطية فمي ودفعه بعيداً عنه. سمعتُ صوت خطوات تركض وشخصاً يغلق الباب الأمامي بقوّة. ترنّحت باتجاه المختبر الصّغير خلف مكتب أبي، وتمنّيتُ أن أكون بمأمن هناك. حاولت تمالك نفسي، لكنّي فقدت قواي. شعرت بالذّعر فجأة. خرجتُ من الغرفة، وشاهدته. بدا متعجّباً وكانت أنفاسه ثقيلة، وعيناه ترجواني بصمت. لا بد أنَّ هلعاً شديداً قد أصابني. عندما أقبلَ باتّجاهي، شاهدتُ نظرةً مرعبة مفاجئة، ثمّ رفع كفَّيه في إشارة دلّت على الاستعطاف.

-4-

هل امتلكني هذا الرّجل؟

ذاكرتي لا تسعفني بشأن اضطرابي الذي لا يمكن وصفه، لكنّي أعرف أنّي صدّقته تدريجيّاً.

حياتي، التي هزّها تخلّي أبي عنّي، قد انقلبت الآن رأساً على عقب، تغيير تراجيدي. ماذا غدوتُ؟ طفولتي على المحك حتماً.

امتلأتُ كبرياءً وزهواً لاستقلالي وتفكيري بنفسي، والكبرياء ذاتها حرمتني من الانجراف في بكاء بسبب معاناتي من هذا البلاء. أُجبرتُ على تقبّل أنّي مسؤولة عمّا حدث أيضاً.

وحاولتُ بيأس تبيان حقيقة ما زالت تدهشني. عرفتُ هذا الرّجل قبل عامين تقريباً، وقابلتُه يوميّاً تقريباً، وقبلتُ صداقته ومشورتَه في العمل. كان تعاملي معه صريحاً، بشيءٍ من الطّفولة. وقد أفرحني أيضاً تحامُقُه بين الحين والآخر. بعدها، وذات يوم، هشّم احترامي لوالدي بهدوء... لماذا لم أشكّك في كلامه ولا لحظة؟ لأنّي لا أعرف شيئاً عن الحياة. تجربته الأكبر غرست في ذهني شعوراً آنيّا بالانصياع، وفوق هذا كلّه كان قد قدّم لي تعاطفه وشفقته. منذ اللحظة التي شاهد فيها عذابي المفاجئ من الفقدان، أصبح شخصاً مختلفاً، شخصٌ جديد، تحلّى بكل المؤهلات التي افتقر إليها والدي. بدا في غاية الاحترام وهو يصدر الأحكام بأَنَفَة على والدي، وفي غاية التّأثير وهو يدافع عن حقوق أمّي! هناك مناسبة واحدة فقط نكصْتُ فيها فزعاً منه: عندما سألته إذا أراد دعمي من خلال تقديم برهان

إذا ما قرّرتُ مواجهة والدي يوماً ما، فرجاني حينها أنْ أبقي الموضوع طيَّ الكتمان، وألّا أنبس ببنت شفّة عنه... أمطرَني بعد ذلك بوابلٍ من عبارات الحبّ التي لطّفت مشاعري نحوَه من جديد. ولم أشكّ للحظةٍ في وفائه. قبّلتُه بعنفوان. شعوري الأثير بالاستعلاء ما زال ينبض فِيَّ.

غمرني كذلك شعورٌ غامر بالإنهاك في ذلك الوقت. لعلّه كان يعي ذلك. طوّقني بذراعيه، وقال لي إنّه يحبني، وكنت على استعداد دائمٍ للإصغاء له...

لم أتخيّل للحظة أنّي قد أكون ضحيّة مخطّط ذي دم بارد. كنت متأكدة من أنّ الحب مسؤولٌ عمّا يحدث. ومع ذلك شعرتُ بأني غير مستعدة لهذا الضّيف الغامض! لم أعترفْ أبداً أنّ كوني امرأة سيؤثر على مستقبلي، وهو ما حدث، أصبحتُ امرأة فجأة، في الوقت الذي لم أعد أثق فيه بوالدي، عندما هبطت قيمة الماضي الذي تشاركته معه، وفي الوقت الذي لم تعد أمي قادرة فيه على نصحي أو الإجابة عن تساؤلاتي.

لم أشعر بإغواء، ولا للحظة، لكشف سرّي المريع لها. لقد عانت بما يكفي، اكتنفَها بؤسُها.

بدا أنّ والدي يبعد عنّي أميالاً كثيرة، انقطع عن حياتي للأبد. وعلى أيّ حال، شعرتُ بعذابٍ لا يحتمل، وأخفيتُ الاختلال الذي مررت به عنها.

وحيدة في الظّلام، سمحتُ لنفسي بتفكيرٍ متفائل، آمال أعرفها. لعله كان من تبعات الصدمة النّفسيّة المباغتة التي تلقّيتها... متى أخبرت نفسي لأوّل مرّة أنّ عليَّ مبادلة هذا الرّجل العواطف، وقبول الدّعم والأمان اللذين قدّمهما لبقيّة حياتي، وأنّ كل شيء فعَله لي حتى الآن هو ما غيّرني؟ لم أعد أتذكّر بوضوح. بدأتُ أصدّق أنّي أحببته دون أن أدرك ذلك، أنّه - رغم عدم مقدرتي على تحديدها - قد امتلك صفةً أغوتْني، مهما كان غير معجبٍ ظاهريّاً.

ثمّ بدأتُ أحدّث نفسي بأنّي حتى لو لم أرغب بحياة مبنية على الحب والتّضحية في المستقبل، فلعلّها تمنحني الأمان، والسّكينة، والسّعادة

التي تمنّيت. سأكون زوجته... ألم أصبح زوجته أصلاً؟ أرادني، كان مقدّراً لي، ودفعتني الظّروف نحوه حين حسبتُ أنّ حياتي تمضي في اتّجاه آخر... عريس الحكايات الخرافية، الذي اعتبرته شخصية طفوليّة دائماً، قد يوجد على أرض الواقع. إنّه هو!

أدرك أنّه قد حقّق مبتغاه، عندما بدأتُ أفكّر بهذه الطّريقة. لعله لم يتفاجأ كثيراً، لكن لوقت قصير لم يكن متأكداً من النّتائج، وبما أنّه أصبح الآن أكثر ثقة وأملاً، بدأ يشجّع عاطفتي، تعبير مبالغٌ به عن أحاسيسي عبّرت عنه في رسائلي. إذا حدث وطلبتُ إيضاحاً أو استفسرتُ منه عمّا حدث، كان يسكتني بتقبيل يدي وشعري، ويضرب الأيمان أنه لن ينسى إهدائي نفسي له ما بقي فيه من نفس، ثمّ يحاول الاستحواذ على جسدي من جديد. لكنّي كنتُ في غاية القسوة، ورفضته. ككثير من الفتيات، قرأتُ روايات أشعلت جذوة خيالات لا حدود لها، لم تتجسد أمامي. ورغم أنّ خبرتي مع هذا الرجل قد أثارت غثياني، لم أصدّق أنّه قد أحاط بالحقيقة من كل جوانبها. تخيّلت أنّي إذا تزّوجته، سأطير فرحاً، وأنّه سيعوّضني عن كلّ ما مررت به. عند الخامسة عشرة، فهمي للأمور الجنسية كان لا يزال في غاية البدائية، وعانيت كثيراً. ولعلّ فخراً مُبهماً هو ما حرّضني، وأكّد على الثّقافة الرّاسخة للتضحية بنفسي من أجل الحب.

لاحظ أبي انعزالي وتوتّري. وواصل فجأة تهديده السّابق وأمرني بعدم العودة للمكتب من جديد.

زادني هذا الانفصال المفاجئ توتراً. كنت متيقنة من أنّي كنت أكابد أسوأ أيّام حياتي. تمكّنت في النهاية من إرسال رسالة للشاب الذي دفعني لإخبار أمي بأنّنا مغرمان ببعضنا. وفي حزنها، وقنوطها، وطريقها للانهيار العقلي، بدا أنّها عادت شابة من جديد وهي تتشرّب كلمات ابنتها المغرومة. كانت تتخيّل نفسها عندما كانت في العشرينيّات، أكانت تخدع نفسها من خلال تألّقٍ شاهدتْه فِيَّ وحلمتْ به لكنّها لم تتمكن من تأكيد ذاتها؟ كان فِيَّ حتماً شيءٌ ما في تلك اللحظة، ولأول مرّة: لعلّها

كانت تعلم بذلك بحدسها. لم تعلمْ بتاتاً عن الفاجعة التي اختصرت مراهقتي. اعتقدتْ - آنّها هي أيضاً! - أنّ شعوراً جديداً كان ينمو فِيَّ وسينقذني من حياة جدباء خافت أن يقودني إليها تثقيفي. استجمعت قواها على أمل طمأنة مخاوفي، ولتشاهد تحقّق حلمها ببلوغ منتهى السّعادة أخيراً في حياة ابنتها.

شاهدتها بحزنٍ وتعاطفتُ معها، ومع ذلك خفتُ على نفسي أيضاً. عندما أدركتُ أنّي هشّة مثلها، لم أمتلك إلا التّساؤل عمّا إذا كنت أوفر حظاً منها، وعمّا إذا كنتُ أخدع نفسي - كما فعَلَت هي - من خلال وضع الكثير من الإيمان في الحب.

عامل والدي العلاقة كلها بتصغير وإهانة، وبدا غير مصدّقٍ لمشاعري. لكنّي تحدّثتُ مع بطلي المثير للشفقة لإقناعه بأنّ الشيء الوحيد الذي نريده في الحياة هو الزّواج. كتبنا إليه، وتجادلنا معه. غضب غضباً شديداً. وحتى مع هذا الغضب لم يشكّ بالحقيقة؛ كيف له أن يتخيّل حدوث تصرُّفٍ إجراميّ وهو متيقّن من الخوف الذي أجّجه في كلّ شخصٍ اقترب منّي؟ كان ببساطة مغتاظاً من فكرة أنّ ابنته المفضّلة التي تَرَعرَعَتْ على نبذ الأوهام والاعتماد على نفسها فقط في معترك الحياة، قد سقطت ضحيّة افتتان غبي. لم يكن مستعداً ليأخذ حصّته من العتب حتماً، ولا لمواجهة حقيقة أنّي قد سُلبتُ من حبّه وعنايته وأنا في أمَسِّ الحاجة لها.

لقد عانى هو الآخر. بتعقيد وبدائية في آن واحد، لم يتمكّن من فهم ما يجري حوله البتّة، ولذلك لم يتمكّن من إيجاد الحلول. كل ما فهمه أنّ وقت عزلته قد حان، وأنّه قد أبعد الإنسانة الوحيدة التي فهمتْه. إدراكُهُ بأنّه قد يواجه بلاءً وشيكاً، منذ اللحظة التي بدأتُ فيها الرّفض الاجتماعي ليكون مركزاً عليه في المرحلة القادمة، سلّحَهُ بالرّغبة والإصرار على الهيمنة ليكون المنتصر، أيّا كان الثّمن.

فاجأه دفاعُ أمّي المستميت عنّي. كانا قد تجنّبا أي تواصل منذ ليلة

انفعالها العصبي، لكنّها الآن تطالب بحقّي في السّعادة كما لو كانت بنداً من بنود اتفاقيّة السّلام بينهما. بدا أنّها تقول: «قد أكون كبيرة في السّن، لكن على الأقل بإمكاني أنْ أكون جدّة. حتى لو لم أتمكن من العثور على سلام القلب، فبإمكاني العثور على سلام العقل. سيكون هناك جمال في الحياة إذا كانت ابنتنا سعيدة واعتنيتُ بأبنائها...».

رفضَ أنْ يكلّمني. أدرك أنّه قد فقد كلَّ تعاطفي معه، وأنّ كلّ الآمال والأحلام التي شيّدها يوماً حولي كانت على المحَكّ. قال لحبيبي الشّابّ إنّه لا يتخيّل زواجي؛ كنتُ في الخامسة عشرة والنصف من عمري فقط. وإنّ علينا الانتظار بضع سنوات. في تلك الفترة، بإمكانه زيارتُنا مساءً ومرافقتُنا في النّزهات المسائيّة.

سأله عن إمكانيّاته. هل ينوي العثور على وظيفة أفضل؟ هل سيعمل في الخدمة المدنيّة؟ لفت نظره إلى أنّي لن أحصل على مهر. وعلى الرّغم من ذلك، بإمكانه الاحتفاظ بوظيفته في المصنع. تخيّلتُ أنّ صديقي سيستقيل من عمله ويبحث عن عمل آخر فوراً، حتى إذا عنى ذلك الانتقال لبلدة أخرى. لم يحدث شيء في الحقيقة. لم يجد في الاعتماد على والد زوجته المستقبليّة مهيناً، إضافة لذلك، لم يعارضْ تصرّفه، بل على العكس، كان متأكداً من أنّنا إذا تزوّجنا فإنّ والدي سيكون مجبراً على منحي المال.

وهكذا جاء إلى منزلنا ليلاً كخطيب. لم يلتقِ بأبي مطلقاً، لأنّ والدي كان يغادر فور انتهائه من طعام العشاء. أمّا الأطفال الأصغر سناً، فكانوا يجلسون حول المائدة، ويقرؤون أو يلعبون بألعابهم، بينما نطرّز أنا وأمّي تزجيةً للوقت. سَلّى حبيبي نفسه من خلال إغاظتي، حيث كرَّرَ تلقائياً كلّ ما قلتُهُ. وبين الفينة والأخرى سرق منّي قبلة، دون اكتراث باعتراضات أمّي أو ضحك الأطفال، هدّأ هذا من روعي. غادر عند قرابة العاشرة مساءً، ورافقتُه إلى الرّدهة المظلمة، حيث كنّا نتعانق، وقبضَ أحياناً بيده على جسدي باضطراب، وأحيا فِيَّ مشاعر الخوف الدّفين.

انتشرت في البداية كثيرٌ من الأقاويل بين الجيران عن علاقتنا: أكثر ثرثراتهم بشاعة كانت تخصّ إبعادي المفاجئ عن المصنع بسبب اكتشاف والدي للعلاقة. الأصوات ذاتها، قبل عام، قد همست أنّ حب والدي لي يتجاوز حدود الأبوّة. وكأنّهم استمتعوا بالقبح والأكاذيب الشّنيعة. لم يعرف والدايَ شيئاً عن هذه الإشاعات، وجهلهما وشعورهما بالأمان جعل شعوري بالخزي يتعاظم.

شعرتُ أنّ أقل ما يمكن لخطيبي فعله هو لجم ألسنة المغتابين. لكن بدا أنّه اكتسب أهميّة خاصّة وجديدة في عيون أصحابه، كما لو أنّه قد امتلك العالم. حسدوه من ناحية، وفرحوا من ناحية أخرى، لأنّ شاباً محليّاً قد أهان الغرباء المتعجرفين. بإمكاني أنْ أقول إنّهم كانوا يسخرون منّي كلما مررت بهم في الشارع، لكن مهما كان احتقاري فلم أبيّنه لهم. كان خطيبي يضحك على الشّائعات، وفاجأني تصرّفه. حتى أنّه ضحك عندما نسجوا حكاية لم أسمع بها من قبل، أنّه هتك عرض الفتاة التي حاولت الانتحار بسببه. لم يحاول الدفاع عن نفسه ولا إعطاء أي مبرّرات.

ماتت الشّائعات بمضي الأشهر. لكن على أي حال، كنتُ قد اعتزلت الحياة المحليّة. كان خطيبي غيّوراً وطلب ألف طلب مبهم منّي: إذا زارنا أيّ رجل في المنزل، فيجب ألّا أطلّ من النّافذة، حتى لو كان طبيب أمي، فيجب أنْ أهرع لغرفتي. كنت قد اعتدت على الحرية مما جعلني أتمرّد عليه، لكن سرعان ما تذكرت ما حصل، واعتبرتُ ذلك نهائياً مما ذكرني باستمرار بهزيمتي النّكراء.

في الواقع، كتبتُ وأخبرتُ صديقاتي أنّي سعيدة. أردت خداع نفسي، وكنت قادرة على تحفيز أوهامي حتى سمّمتني.

كنتُ في غاية العزم على أن أحب خطيبي لدرجة أنّي لم ألتفت للمشاعر السّلبية التي أثارها فِيَّ. اكتشفتُ سلسلة عيوب لم أتوقعها فيه. عرفتُ أنّه لم يتعلّم تعليماً لائقاً، وظننته أكثر ذكاءً. وأهم من ذلك،

كان فيه شيء من المراوغة، شيء يصعب ملاحظته في شخصيته والتي خيّبت ظنّي كثيراً، وكثيراً ما أهان حبّي له علانيةً مما جعلني أنكص فزعاً، دهشةً، واستياءً... لكنّي كبحت تلك المشاعر فوراً. أردت إقناع نفسي بسعادتي في الحاضر والمستقبل. أردتُ حبّاً مسلّماً به وتجربة جميلة. أصبحتُ في السّادسة عشرة من عمري وأردتُ حباً تتجسّد فيه كل قصائد الحياة الغامضة، لكن لم أجد شخصاً ينظر إلي في عيني، ويسألني مباشرة عن مشاعري، ويحدّثني عنها بصدق وكلمات مؤثّرة أفهمها.

وجهي - أشحب الآن - يؤطره شعري الذي تركته يطول من جديد، والذي فقد حيويته وتميّزه. هل مرّ حقّاً حينٌ من الدّهر ذهبتُ فيه للشاطئ متى شئتُ، وغصتُ في البحر لساعات وساعات، وطفتُ بالحقول، وسمحتُ لنفسي بأحلام لا نهاية لها تتعلّق بالجمال ووظيفة المستقبل؟

قرّر عدم الاستغناء عن وظيفته، والاعتماد على ترقية مبكرة وأن يكون الوريث المستقبلي لمنصب والدي. تجادلنا وقتاً طويلاً بخصوص المَهْر. وأجبر نفسه في نهاية المطاف على تقبّل حصولنا على معونة ماليّة شهريّة فقط. وحتّى هذا الدّعم أراده قانونيّاً، لكنّ والدي غضب غضباً شديداً لدرجة تهديده بفضّ المفاوضات. لم يتحمّل خطيبي مسؤولية شيء عدا تلميع خزانة ثيابه، وشراء خاتم الزّواج لي. منحنا والدي مالاً للأثاث، أمّا المساهمة الوحيدة التي قام بها والداه فهي التّعجب من بخل أهلي.

لم نتحدث عن الخطوبة، رغم أنّها آلمتنا جميعاً. فلماذا إطالتها؟ حددنا يوم الزّفاف في نهاية شهر يناير.

وبعد أقل من عام بقليل على وقوع الحدث الذي قلب حياتي رأساً على عقب، لم أتحدّث بكلمة مع أحد عنه، ولا حتّى خطيبي ذاته. أنجزنا التّرتيبات ببهجة. وفي الليلة التي سبقت الزّفاف، وجد بابا، في إحدى نوبات غضبه عذراً ليعاملني بلؤم وسوء...

في تلك الليلة، جاءت أمّي إلى سريري. حاولَت إيجاد كلماتٍ تهيّئني بها لما سأواجهه في الليلة التّالية. قاطعتُها على عجالة، وعانقتُها،

ومرَّرتُ أصابعي في شعرها الرّمادي، وبكيت بكاءً مريراً. وبعد أربع وعشرين ساعة، كنتُ مع زوجي في القطار والثّلج يُغطّي الرّيف تحت النّجوم، فكرتُ كيف تمكّن والداي من إخفاء عذابهما؛ كان لكل منهما عذابه في ذلك اليوم، وقد بذلا جهداً جبّاراً ليكونا سعيدَين مع الضّيوف الذين حضروا الحفل... تساءلت عمّا إذا ما كانا يبكيان الآن في غرفَتَيْهما وحيدَيْن.

-5-

أطلّت نوافذ غرفة الطعام في شقّتنا الصّغيرة على شارع عريض، تنتشر وراءه البساتين: خلفها سلسلةُ تلال وبحر شاسع. أطلّت الغرف الأخرى على حديقة صغيرة ومهجورة، غزتها الشّجيرات وسكّة حديد. وبين الحين والآخر يهتزّ المنزل قليلاً عند ذهاب وإياب القطارات، يُسمع دوي صافراتها في الغرف. في الطابق السّفلي مؤجّرون، لكن مقابلتهم نادرة. عندما نخرج أنا وزوجي والخادمة نحاول عدم إحداث أي ضوضاء.

تذكّرني فساتيني دائماً بأنّي امرأة متزوّجة، امرأة جادّة، مكانتها في الحياة ثابتة ولا يمكن نقضها. في المرة الأولى التي مشيتُ فيها على امتداد الشّارع الرئيس للبلدة إلى جانب زوجي، زميلي السّابق، أثقلتني كثيراً قبعة من الرّيش وكان جسدي غريباً في فستان حديث التّصميم. جحيم الزّمن والأشياء قد فصلاني عن طفولةٍ كنت أتمتع بها قبل عامٍ واحدٍ فقط.

وبتردّد شعرت بحاجتي إلى – دون تغيير – اكتسابِ هُوية المكان، أنْ أتآلف مع تقاليد ومشاعر النّاس الذين شكّلوا عائلتي الجديدة، وتشرّب المناخ الذي نشأ فيه زوجي وحيث سيتعلم أبنائي.

أحياناً، عندما أزور أمي، يكون الاختلاف بين العالم الذي جئت منه وذلك الذي بتُّ الآن جزءاً منه في غاية الوضوح. ملأني هذا التّباين بشيءٍ من الضّغينة التي لم أكشف عنها؛ منبَعُها ماضِيَّ: شيءٌ غريزيٌّ، وغير منعكس، وظالم، موجَّه نحو أمي، وأختَيَّ، وأبي، وكل أمنياتي الحالمة القديمة.

مرض أمّي جعلها مفرطة الحساسيّة. كانت الوحيدة التي لاحظت شعوري: مرّتَين أو ثلاث مرّات في تلك الأيّام من حياتي الزّوجية لاحظتُ تفاجُؤَها المؤلم الذي شعرَت به بسبب صمتي، على وجهها الأبيض الذي أنهكه الآن بؤسها. المشاعر التي عدتُ بها من شهر عسلنا كانت ضبابيّة، وتلاشت بسرعة. لم يكن هناك إشباع عاطفي أو استثارة. آه، آمال شابّة في مقتبل عمرها! لم أتمتّع بالوقت الكافي قبل الزّواج لتشييد عالم متكامل من الأحلام البهيجة، وكم كانت خيبة ظنّي مُرّة كالعلقم. كلّ ما علق في ذاكرتي من شهر العسل هو شجارنا على سبب تافه في اليوم الثّالث، مما أبقانا في الفندق صامتَيْن وحاقدَيْن لبقية النّهار. ثمّ لماذا خشيتُ رؤية الدّهشة وحتى عدم الاستحسان في عيون صديقاتي ومعارفي عندما قدّمتُ زوجي لهم في ميلان؟

لم أرغب في سماع الأسئلة التي طرحتها على نفسي، ولا الإجابة عنها. ولهذا جعلني بؤس أمي المضطرب أنزعج بشدّة. علمتُ علم اليقين أنّها توقّعت أنْ أعود امرأة مختلفة، أقرب للأخت لها من الابنة، لا بدّ أنّ مشاعري العميقة ذكّرتها بذكرياتها متفائلة. أجبرتني في نهاية المطاف على الاعتراف لها، ولنفسي، بعدم وجود غموض أشد، ولن يوجد قط، وأنّ كلّ شيء قد كُشف لي قبل عام واحد، في ذلك الصّباح المشؤوم الذي اعتقدتُ أنّي نسيته.

لم أثق بخالتي. كل ما أردتُه هو كسب قلبها وبالتّالي كسب أسرتها، ولم أعتقد أن ذلك سيكون صعباً. اعتبروني غريبة بالفعل عنهم، قد خُلقتُ من مادّة أفضل وأكثر قيمة، وهذا هو مصدر غروري وتكبّري. وبدوتُ للعجوزيْن طفلة. حماتي - من جهة أخرى - لا بدّ أنّها شعرت بشيء من القوّة التي كنتُ أخفيها بضعفي، لكن لعلها قرّرت أنّي لا أشكّل تهديداً لها. وبالنّسبة لكل أفراد أسرته، كان زوجي الزّوج المثالي حتماً، ويستحق الظّفر بي.

ذهبت لزيارة خالتي مساءً. وجدتها تحيك قرب مدفأة ضخمة، لهبُها

هو مصدر الضوء الوحيد في عتمة المطبخ للطّابق الأرضي أحياناً، بينما كان الباب مشرّعاً دائماً على الحديقة. بدت أكثر شباباً إذا تورّد خدّاها، أجملَ بملامحها الطبيعية. ابتسمَتْ بموارية وهي تكلّمني بصيغة رسمية.

حتى عمّي خاطبني بتكلّف. كان طويلاً، شبه عملاق، ومحدودب الظّهر، ذا حركة بطيئة. كان هو من يتبضّع كل صباح. «وهل المدام سعيدة؟»، اعتاد أن يسأل ابنته عنّي، وهي امرأة لا تتكلم كثيراً في الثّلاثين من عمرها، كانت تجد دائماً شيئاً تتذمّر بشأنه. سليطة اللسان، ومنطوية على ذاتها، وفاترة المشاعر ومع ذلك مزاجيّة، حتّى والدتها كانت تهابها. في الواقع ذاع صيتها بين النّاس كامرأة همجيّة، لكنّي لم أكن أعلم هذا في ذلك الوقت. ولم أكن أعلم أنّ أسرتهم كانت منبوذة. قبل سنوات عديدة، خضع عمّي للمحاكمة وسُجِن، وهو أمر غير معتاد في البلدة. أخبرني ابنه قصة معقّدة عن إهانات وانتقام ليبرهن على براءة والده، تحدّث بغضب شديد مما جعلني أصدّقه. والآن، في ظلال وانعكاسات مطبخهم، وأنا أشاهد تحركات الكهل المتشنّج، أتصوّر أحياناً أنّ الجدران المحيطة بنا ما هي إلّا زنزانته، السّجن الذي عاش فيه لعامين... كان لطيفاً وحذراً. لقد أجّج فِيَّ شعوراً بالشّفقة والخوف دائماً. بدت العلاقات بين الأفراد غريبة بالنّسبة إلي؛ كل شيء في منزلي كان أكثر تنظيماً وانضباطاً، وأكثر وضوحاً. ومن ناحية أخرى، أذهلني في بيئتهم الجافّة التزامُهم بالعادات، وتعظيمُهم التّقاليد، ورغبتُهم في التّلاحم وتقديسُهم لروابط الدّم، والقربى، والأرض. وبألف طريقة بسيطة، بدءاً من طريقتهم في إعداد الطّعام ليوم احتفال معيّن، وانتهاءً بدفاع حماتي المستميت عن أخيها أمام الغرباء، في حين أنّهما كانا قبل لحظة أقرب للعراك. لاحظتُ أنّ نمط حياتهم يختلف اختلافاً كليّاً عن نمط الحياة التي شكّلت شخصيتي وأهوائي. كانت حياتهم مليئة بالمتناقضات، والعادات الخاطئة (أضفت هذا الحكم بالإكراه تقريباً) لكن لها محاسنها.

وبمرور الوقت صرتُ أكثر خمولاً. كنتُ بحاجة لفعل شيء بدل التّخلي عن نفسي كُلّياً لمحيطي الجديد، ونتيجة لذلك خضع جسدي

لرغبات زوجي رغم أنّي وجدته مثيراً للاشمئزاز جسديّاً أكثر وأكثر. أُرجع ذلك إلى إرهاقي، وتعبي. لم أحاول أبداً التّغلّب على برودي الذي فاجأه وأحزنه أحياناً. سلوكٌ علني بلا تحفّظ بدا غير مقنع. لذّتي الوحيدة كانت في أنْ أشعر أنّي مرغوبة، لكن حتى هذه اللذة اختفت عندما شاهدتُ ما بعث الاشمئزاز منه، وما سمعته كان إمّا همجيّاً أو هراءً. أغمضتُ عينَيَّ، وتوقّفت عن التّفكير، واستلقيت كما لو كنتُ في غيبوبة.

نمتُ بعدها. كم كان عمري؟ لم أبلغ السّابعة عشرة بعد... نوماً طويلاً، وهانئاً؛ نوم فتاة شابّة.

المرأة التّي جاءت لتنظيف المنزل غادرت كل صباح عند الحادية عشرة. أعددتُ العشاء والغداء بنفسي، أعددته رغم عدم استمتاعي بذلك. ودون أن أعرف كيف، تسرّبت الأيام من بين أصابعي. احتفظتُ بعدد من سجلّات المصنع. عملٌ بإمكاني إنجازه في المنزل، والتي أعطاني إيّاها والدي حتى أوهم نفسي على الأقل أنّ لي شيء من الاستقلال. لكنّه كان يتطلّب ساعتين أو ثلاث من وقتي فقط. اشتركتُ بمجلات وقرأتُ القليل منها، وكتبتُ لصديقاتي ومعلّماتي. خلال الأشهر الأولى من زواجنا، جاء كل الأشخاص المهمّين في البلدة لتهنئتنا، وبادلتُهم الزّيارات، واستمتعت، وانزعجتُ في آن واحد من دوري الجديد كامرأة متزوّجة.

كنت أفرح في الأماسي التي يزورنا فيها رفاق زوجي. تفاخر زوجي بجهاز إعداد القهوة، ثمّ دعاهم لتجربة نبيذنا. دخّن الرجال وثملوا، وتناسوا وجودي، وانحطّوا أحياناً لمستوى الدّناءة. شاركتهم الأحاديث إذا تناقشوا عن السياسة، وشعرتُ حينها أنّ خجلي قد انزاح قليلاً. الرجال الذين جادلتهم كانوا بمستوى زوجي الثّقافي. عارضوا منطقي لكن سرعان ما استسلموا.

أما في الأماسي الأخرى فذهبنا لمنزل أحد أقاربه، رئيس الحزب الدّيموقراطي المحلّي. تجمّع كثير من سكّان البلدة الذين ينتمون للطبقة الوسطى هناك، بعضهم مع زوجاتهم. حوارات وثرثرات النّساء التافهة

استبدلتها جدالات الرّجال المزعجة، وشعرتُ أنّهم راقبوني بثقة معدومة موارية، كما لو كانوا يتذكّرون غرابتي وأنا أصغر عمراً. شخص واحد فقط، طبيب شاب، عاد مؤخراً من توسكانا، والذي يقيم الآن مع أقاربنا، جعلني أشعر منذ البداية بوجود شخص يشبهني في ميله للتّفكر والتّمعُّن، وسلامة اللغة، والنّظرة للحياة. كان مثقّفاً وفطيناً، وانتابه الفضول بشأني. شعرتُ أنّه قد لاحظ التّناقض بين حياتي الخارجية وحياتي الدّاخليّة، والتّي - كما اعتقدتُ - فاجأته عندما لمح الظلال الخاطفة على وجهي الطّفولي أحياناً.

رغم أني تمنّيتُ أن أكون أكثر اندماجاً في العلاقات الاجتماعية، إلّا إنّي الآن أكثر انقطاعاً عن أي تواصل مع العمّال، والفلّاحين، وصيّادي الأسماك. كانت الطّبقة الوسطى أكثر خبثاً مما تخيّلت. لم أصرّح بذلك إطلاقاً، لكنّي خشيتُ سرّاً من أن يعديني ذوو التفكير المحدود بتفكيرهم. بدأت فعلاً أحسد النّساء على هدوئهن. الطّبخ، والدّين، والكسل، والتّفاني في الاعتناء بأطفالهن كان محور حياتهن. حتى لو كان الأزواج ملحدين، فإنّهم يتوقّعون من زوجاتهم مواصلة الذّهاب للكنيسة. لعلّ زوجي تمنّى ذهابي أنا أيضاً سرّاً، لكنّه لم يذكر ذلك لي. ومن ناحية أخرى، كان مُصرّاً على عدم إنجاب الأطفال، وكرّر ذلك على مسامعي كثيراً. أكان السّبب عدم رغبته في أنْ يشاركه أي شخص فِيَّ؟ وأنا كذلك لم أشعر بأيّ رغبةٍ ملحّة لوجود طفل في حياتي، شخص يستحوذ عليَّ وأعتني به، شخص قد يمنح حياتي معنى آخر.

قال لي: «يُشيدُ رفاقي على الدّوام بذكائك. يقولون إنّهم يغبطونني على زوجتي...». لم أكن متأكدة من مصداقيَّتِه. كان لدي حتماً انطباع بأنّهم يعتبروني لطيفة وربما جذّابة، لكن عندما أشاهد نفسي في المرآة لا أرى نفسي بهذه الطّريقة؛ وجدتُني ناعسة، كطفلة عجوز، لكن حتّى هذا لم يزعجني كثيراً.

استيقظت عزّة نفسي القديمة من جديد مرّة واحدة فقط خلال تلك الأشهر. ذات مساء حينما كنتُ أرتّب محتويات صندوق احتفظ زوجي

فيه بأوراقه، ومراسلاتنا، وبعض الهدايا التّذكارية. ذهلتُ عندما وجدتُ، إلى جانب رسائلي، رسائل حبيبته الأولى والتي كتَبتْها له قبل ستٍّ أو ثمانِ سنوات! كانت لا تزال عزباء تعيش في البلدة آنذاك. صادفتُها أحياناً في الشّوارع، كم التمعت عيناها بغضاً عندما شاهدَتْني! قرأتُ رسالة واحدة فقط من رسائلها... رسالة مليئة بالأخطاء الإملائيّة والعبارات المُقتبسة من كتاب فيه نماذج من رسائل الحب. كان زوجي جالساً إلى جنبي قرب المدفأة، ارتسمت ابتسامة حمقاء على وجهه. وأثناء قراءتي لمتفرقات أخرى، سقطت رسائل أقصر كتبَتْها نساءٌ أخريات. «إنّها... لي عندما كنتُ جنديّاً، كما تعلمين... هذه من ابنة صاحب نُزُل...». لكنّي لم أكن أصغي إليه. كنتُ أقرأ برقيّة، مذيّلة باسم حيوان المرأة الأليف، وأنظر للتاريخ. أرسلتُها في الصّيف الماضي، خلال فترة خطوبتنا. مزّقتُ هذه الأوراق لقطع صغيرة، ولم يجرؤ على الاعتراض.

لماذا صدّقتُ شبكة الأكاذيب التي نسجها حولي؟ ولماذا أتألّم وأعاني؟ هل أحبَبْتُه حقّاً؟ أم أنّه تداعٍ، صرحٌ كنت قد شيّدْتُه بدقّة وسريرةٍ صافية، ينهار الآن أمام ناظري؟

انفجرتُ في نوبة بكاء، وتلاشى شعوري بالصّدمة. قرّرتُ النّسيان، التّوقف عن تعذيب نفسي. أيّاً كان ما حدث فهو الآن في طَيِّ الماضي، وهو زوجي الآن، وكنتُ واثقة من أنّه سيتأثّر بإخلاصي له تدريجيّا.

لم أعد أشاهد أبي. زوجي، والذي وجد أبي أكثر تطلّباً وقسوة، كلّمني عنه. وهو ما فعلَتْه كذلك أختاي وأحياناً أمّي. قضى معظم وقته خارج المنزل، وقد فقد اهتمامه تماماً بحيوات أبنائه. كان يجلب الرّعب معه إذا دخل المنزل، وإذا أغلق الباب وراءه، يُجبر إخوتي على مشاهدة منظر انهيار أمّي ودموعها وحسراتها. حتّى أختي الأصغر سنّاً كان عليها بذل مجهود كبير لتهدئة أمّي وإعادتها لصوابها، أمّا أختي الأخرى، التي تبلغ ثلاثة عشر عاماً الآن، فهي فتاة هادئة ولبيبة، وتولّت دون وعي منها إدارة شؤون المنزل. لمّا زارني أخي، شنّ هجوماً عنيفاً على أبي لأنّه كان قد

أجبره على العمل في وظيفة تتطلّب جهداً بدنيّاً في المصنع بدل أن يسمح له بالذّهاب إلى المدينة لمواصلة دراسَته. ترقّبنا جميعاً الطّامّة الكبرى.

لم أرغب في إصدار الأحكام على والدي. ظننتُ في الواقع أن قدَري التّعيس قد ساهم في انهياره المعنوي. ألمْ أهجُرْهُ، دون القيام حتى بمبادرةٍ تجعله يلازم المنزل، ويكون قرب أبناء الذين كان يفخر بهم يوماً ما؟ هل امتلكتُ حقّ حجب نفسي عن الرجل الذي أدين له بالفضل كلّه وأنا في الخامسة عشرة من عمري؟

جزءٌ من الأحكام أطلقتُها على أمّي. ضعفها، وإنكارها للخلاف، يغيظاني أكثر الآن مما يجبرني على التّسليم وقبول موقفي وهو ما أظهر لي ببساطة مدى تشابهنا. لكنّ المرأة المسكينة كانت تكابد الويلات، لا في حياتها العاطفية، بل وفي جسدها أيضاً. كانت تستسلم تدريجيّاً لمرض ما مروّع. مرضٌ لاحظتُ أثره في كلامها اللامترابط، ولسبب ما خفتُ على نفسي وعلى أمومتي التي اكتشفتها حديثاً، منعني هذا الشّعور من مؤازرة أمّي أكثر من ذي قبل. وبدلاً من ذلك تمنّيتُ لو أنّي كنتُ فعلاً الزّوجة المحبّة التي تخيّلتها والدتي. اعتَقَدتْ أنّي إذا كنت سعيدة فسوف أتمكن من معاملتها برفق وعطف وسأوفر لها كل خيرات الحياة التي حرمت منها.

لم أعرف ما يجول في خلد والدي، ولم أعرف ما أخبرَه به الطبيبُ الذي وصف المهدئات لماما وبذل جهده لإقناعها بتغيير نمط حياتها، وبالمغادرة والثّقة بقدراتها، وبتأثير الزّمن، وبأطفالها. لعلّ الطّبيب توسّل إلى أبي، كما فعلت أمّي حتماً، كذب وأشفق عليها. كما فهمنا مما حدث، إنّها الآن قد وصلت إلى مرحلة تتقبّل فيها عاطفته حتى لو من باب العطف عليها وحتى إذا توجّب عليها مشاركته مع شريكة.

أدركتُ الآن استحالة تغيّر والدي. كان - في الثّانية والأربعين - في أوج نجاحه الوظيفي، وفي خضم حرب مع العمّال، مستلهماً إرادته كما حدث من قبل من رفضه القطعي للتّسليم بالفشل. تجنّب حتماً التّفكير بالماضي، ولم يدرك وجود فرصة فيما مضى لتجنّب هذا الحال

المأساوي. أكان مكتئباً؟ أكان مذعوراً؟ لا إشارة ولا كلمة منه دلّتني على الجواب. كل ما أعرفه الآن هو أن عداوة المجتمع له باتت علنيّة، رفضهم إيّاه قد أجّجَهُ راهبُ الكنيسة، وأبناءُ الطّبقة العليا المحلّيّون الحسودون، والعمّال الذين فصلهم من وظائفهم أغضبوه غضباً شديداً، فأصبح يغيظهم عمداً. كان يفقد كل إدراكه بالواقع.

ومضت الأسابيع، وأقبل صيفٌ بالكاد لاحظته. وكان كسلي جسديّاً، وليس عاطفيّاً فقط.

طُرق باب منزلنا في إحدى الليالي. كانت أمي، وعمّي يسندها، نصف عارية، نظرة شاخصة في وجهها، وتصدر أصواتاً غير مفهومة. لقد غادرت المنزل دون أن تلحظها الخادمات، وهامت في الطّرقات. لا أحد يعرف كم مضى من الوقت، حتّى التقت بوالد زوجي الكهل، الذي جاء بها للمنزل. لعلّ رغبتها الملحّة في البحث عن والدي جعلتها تفعل ذلك.

صعقتني مشاهدتها. وفجأة تخيّلتُ منزلي السّابق: بابٌ مشرّعٌ على الشارع بينما الأطفال نيامٌ، جاهلون لما يحدث. وبمواجهة أمّي - ذلك التّجسيد البشري للشقاء والتي جاءت تطلب العون ليلاً - مررت بثورة غضبٍ همجيّة عارمة... ارتجفتُ، وسرت في جسدي حمى... وقذفت تلك التّعيسة بكلمات جارحة، كلمات مجنونة تشبه جنونها. أوّاه، يا أمّاه... أكلّ هذا من أجل رجلٍ لم يستحقّك على أي حال...!

ما يزال بإمكاني رؤية نفسي في ثياب النّوم، عارية القدمين قرب السّرير، وهي مائلة على الجدار، وتشاهدني وتنتحب بتذلّل. عندما وصل طبيبها لاحقاً، جعلها تتناول مهدّئاً قويّاً. وبعد هنيهة طلبَ إرجاعها للمنزل ولأطفالها. عدتُ إلى السّرير. وبصمتٍ وهدوء أعدتُ تذكّر المشهد المرعب من بدايته مرّة بعد مرّة، وشعرتُ مع ازدياد الحمى بمقت وكره للحياة، والاشمئزاز، ووهن لا نهاية له...

عاد الطّبيب. لم أكن أعرف أنّي كنتُ أحمل روحاً جديدة في رحمي، لكنّي فقدتها الآن.

-6-

وبقيتُ طريحةَ الفراش بلا حراك عدّة أيام، كرّرتُ بلطف لنفسي الكلمة ذاتها، مرّة تلو المرّة: أمّي. ومع ذلك كنتُ غير متأكّدة من أني كنت سأحب الطّفل الذي ينمو في أحشائي، ولذلك شعرتُ بعدم قدرتي على الحداد بانفعال على ما فقدته.

وفي الوقت ذاته أوجعني تأنيب ضميري، الذي أحبطني، وانتزع منّي مرّة أخرى ثقتي بنفسي وشهيّتي للحياة. فكّرت بأمّي وشلّال الكلمات الوحشيّة التي صدرت منّي في تلك الليلة المريعة... ما الذي كانت تعنيه أمّي لي في الواقع؟ أكنتُ أحبّها بالفعل؟

لم أجرؤ على الإجابة عن هذين السّؤاليْن. كنتُ أشاهد نفسي في نور جديد، بعد أن نسف الانهيار أملي بالأمومة، والذي تلاشى فور علمي به. بدأتُ أفكر أني لم أساهم في إسعاد أمّي، باستثناء إنجابها لي ربّما، حين كان والداي ما يزالان متحابَّيْن. كما أنّها لم تؤدِّ – وهذه حقيقة – أيَّ دورٍ محوريّ في أيٍّ من ذكرياتي السّعيدة، لكن هل هذا كافٍ لتعليل عدم اكتراثي الطّويل بامرأة عانت معاناة شديدة؟

تمكّنتُ الآن من تكوين صورة أكثر وضوحاً عن ماضيها من تلك التي كوّنتها فيما مضى.

عاشت هذه المرأة التّعيسة مع زوجها ثمانية عشر عاماً. المسرّات المعدودات التي عاشتها كزوجة تحوّلت إلى أعباء ثقيلة. حتّى كأم، لم يقدّرها أبناؤها تمام التّقدير. ولم تتمكن ولا لمرّة واحدة من التّعبير

عن مشاعرها الحقيقية، مما يعني أنّ خلال حياتها كلّها لم يفهمها أي شخص. وجدها والداها أنّها عاطفيّة، وانفعاليّة، وضعيفة، رغم كونها الأذكى والأكثر اجتهاداً بين قريناتها. ولأنّهما كرها زوجها، قطَعَتْ علاقتها بهما دون تبرّم. واختلطت معتقداتها الدّينية بتصوّفٍ زاهد، فلم تستمتعْ بطقوس الكنيسة، وهكذا لم يشفِها الدّين من ألمها. ورغم أنّها امتلكت ذائقة رفيعة، وكان خيالها حيّاً ومتأجّجاً، إلّا أنّها لم تستخدمها في حياتها، ولم تندمج كلّيا في أي عمل إبداعي يمنحها اهتماماً بما هو خارج ذاتها. لم تحظ بصداقات المقرّبات ولم تثق بأحد طوال حياتها. علاوة على تقلقل حياتها المستمر، مما جعل مرضها يقوّض قوتها الجسديّة بلا هوادة.

اعشقيه، ثمّ ابذلي روحكِ، واستسلمي! هل هذا هو قدرها؟ أوليسَ هذا قدرُ كلّ امرأة؟

احتجتُ شهراً كاملاً لأتعافى، والتقيت بأمّي مرّة واحدة فقط، في يوم كانت هادئة فيه. إحدى أكثر ملاحظاتها منطقيّة كانت: «أوه، لو أنّ لكِ إنجابَ طفلٍ فقط!». ذعرتُ عند معرفة مدى توقها لطفل، لتكرار الأمومة! بعد ذلك اللقاء منع الطّبيب الزّيارات عنها. زارني أخي وأختاي كل عصر زيارة خاطفة، فاغِري الأفواه يكادون لا ينطقون من أثر الحزن. لم تستمع أمّي لهم؛ تأرجح مزاجها بين الهذيان والوعيد، ولم يعد بوسع الممرضة الاعتناء بها. ارتمت أُختاي بين ذراعَيْ في نوبة بكاء، وأنّب أخي نفسه لأنّه لم يكن أكبر عمراً ليبعد أمّي التّعيسة عن والدي، والذي - كما اتّضح - ليس في قلبه مثقال ذرة من رحمة نحوها.

كان أبي مكفهرّ الوجه وكتوماً. لم يكلّمنا. استمرّ خوفنا، وعجزنا، وتخاذلنا...

قال الطبيب في نهاية المطاف إنّها تحتاج العلاجَ المناسب والمتوفّر في مشفى الطّب النفسي. كما أكّد على ضرورة قطع أي تواصل بينها وبين أطفالها المذعورين. مغادرتها، بعد أشهر طوال من التّوتر، كانت

في الواقع عتقاً لها منهم. تلك المرأة الرّقيقة الحزينة التي شاهدوها وهي تميل على أسرّتهم قد استحالت حضوراً شبحيّاً، ما عادوا يشعرون بالحب اتّجاهها واعتقدوا أنّها لن تحبّهم بعد الآن، ومع ذلك، اشتاقوا إليها وتاقوا لعودتها، ليطمسوا ذكريات كابوس عايشوه.

وماذا عنّي؟ هل تمكّنتُ من طلب الصّفح منها، من إخبارها كم هالني انعدام إنسانيّتي هولاً عظيماً، وإخبارها أنّي تمكّنتُ أخيراً من فهمها؟

لا. لن أتمكّن من التّواصل معها مرّة أخرى. لن أتمكن من الحديث معها. كنتُ أعرف ذلك. انتهى كلّ شيء. لم يبقَ منها شيء، ممّا كانت عليه، سوى ذكرى، نموذج مروّع...

وتوالت دورة الأيام، ورغم موت عاطفتي، أصبحتُ أنشط جسديّاً ببطء. لم أتذمّر. بفعل تتابع الأحداث المأساويّة في حياتي القصيرة، كوّنتُ الآن صورة كاملة عن العالم. إنّه سجنٌ غريبٌ... لا معنى فيه لأي شيء: فرحٌ وألمٌ، سعي وتمرّد. الكرامة فيه تكمن في الاستسلام والاستكانة. لم أحاول حتّى الاعتناء بإخوتي، أو التّخفيف من أحزانهم ومنح قيمة لحياتي. وصلت منزلنا مربية شابّة بعد وقت قصير من مغادرة والدتي وقامت بما في وسعها لتكسب حبّهم. وبعين الشّك راقبتُ تلك المرأة المتأنّقة المتدلّلة وهي تتجهّز لمهمّتها المعقّدة، كان من واجبي ضمان عدم تحكّمها بالفتاتيْن كثيراً، لكن ما حدث هو أنّي تخلّيت عن إخوتي فانسحبوا بشكل غير ملحوظ عني. لهفة تطلّع والدي لمجالستي كانت أقل من لهفة إخوتي، ولم يذكر أحد اسم المرأة الغائبة له قط.

زوجي، ذو الفضول المعتاد، كان راضياً عن هدوئي الخارجي وخضوعي المتزايد له، وغلّف أنانيّتَه المتناهية برِداء النّخوة الرّقيق. لم أصدّق تعبيراته العاطفيّة، لكنّها ساهمت في الحد من الشّجارات ونقاشات صريحة. بدا كما لو أنّ كلّاً منّا يهاب مواجهة مشاعره الحقيقة. وهكذا ومن خلال اتّفاق ضمني حافظنا على علاقاتنا بودٍّ وعقلانية. لكن

لم يكن هذا حقيقياً. لقد صدّق أنّي ما زلتُ أحبّه، ولهذا السّبب اعتقدتُ أنّه أحبّني بشيء من الاستئثار والتّملك، حبٌّ نابع من فكرة تقليدية بالواجب. كان يتباهى بجمالي الذي أينع من جديد، وذكائي، وانصياعي الأعمى لأهواء غيرته والتي لم أجدها في غاية الإهانة. استياؤه الوحيد كان لرفضي المستمر لشذوذه الجنسي. كان جاهلاً أكثر من كونه همجيّاً، تعذّر عليه تبرير جهله، ممّا آلمه. وبدوري، انصبَّ اهتمامي على الدّفاع عن نفسي.

ومضت الأيام، والأسابيع. وبُعثت ذكريات قليلة من مرقدها بين الفينة والأخرى عن تلك الفترة الزّمنية، أكثر الفترات توتّراً في حياتي والتي يتعذّر فك رموزها: اكتئابٌ مرّ كالعلقم لا يمكن علاجه، أجبرني على العيش بطريقة ميكانيكية، رضيت بالقضاء والقدر بلا شكوى، وتعاظم فِيَّ زَهو غريب بقدرتي على ذلك... ذكريات طفولتي كانت بمثابة واحة كنتُ أهرب إليها أحياناً، لكنّي كنتُ أصطدم فيها دائماً بصورة أمّي المعذّبة عندما رأيتها أول مرّة في مشفى الطّب النّفسي بعد أسابيع قليلة من مغادرتها للمنزل. ككتلة جليديّة مربوطة بحبل برفيقها الذي هوى إلى قاع السّعير. أوه، صوتُ أمّي، لقد تغيّر فعلاً، وكانت تنطق بأشياء غير مفهومة! المبنى الضّخم ذو الغرف العديدة، كان يُرْجِع صدى ضحكات ودموع، صدى عواطف ممزوجة بالجنون يفصلها جدار عن باقي العالم. أروقة ممتدة مهجورة، وأخرى تمشي فيها ممرِّضات علّقن مجموعة مفاتيح في خصورهن، وبوّابات لمحتُ عندها أحياناً أشخاصاً أعينهم مفتوحة عن آخرها وأفواهُهم تبتسم ابتسامات عريضة... صور من هلوسات. شاهدتُ أخيراً غرفة بيضاء، ذات قضبان حديديّة تعلّقت بها أمّي وهي تنادي البلدة الشاسعة في الخارج. إنّها جميلة تحت أشعة الشّمس، تصرخ كما تصرخ طفلة شاهدت بحيرة أو غابة. كنت قد خرجتُ من المشفى وأنا أتألم كثيراً في داخلي، غير قادرة حتى على البكاء أو الكلام، في حالة من العذاب الذّهني، والذي كان شبه جسديّ،

مُهدِّد ومروّع. انتابني توق مؤلم لا يمكن وصفه، رغبة عارمة في الهروب: للهروب من الحياة، للهروب من الطّريق المؤدّي للجنون.

أمضيتُ عاماً على هذا الحال، غلّفني خلاله ضباب موحش، ثمّ... شعرتُ بنبض حياة جديدة داخلي، فبدأتُ فترة من الانتظار المحموم.

تحجّرت رعباً في البداية. عذّبني قلق، لم أعبّر عنه علناً، بخصوص ما سيرثه ابني من زوجي ومنّي... كما كانت هناك مخاوف أخرى أيضاً، أقل عمقاً لكنّها ما تزال جدّية، تتعلّق بمستقبل حياتنا الزّوجية، واستعدادي للأمومة.

سرعان ما اختفت تلك المشاعر الأوليّة. واجهتُ المستقبل وقبلته بإقدام أجدُه جديراً بالملاحظة حتّى الآن، أسوأ ما واجهت هو استمرار اكتئابي. بدأت أعي مشاعر الأمومة فِيَّ. شعرتُ بقدرتي على تكريس نفسي لطفل كان يتكوّن فِيَّ بغموض. شعرتُ بمقدرتي على حبّه حبّاً لم أحبّه لبشر حتى الآن. وشعرتُ بسعادة عارمة خفيّة تنمو فِيَّ، أنعشتها من آن لآن دموع فرح ذرفتُها. امتلكتُ سبباً للبقاء على قيد الحياة. واجب لا جدال فيه. يجب ألّا يولد طفلي ويحيا فقط: بل ويجب أنْ يكون الأكثر صّحة، والأكثر جمالاً، والأهم، والأفضل، والأكثر سعادة. سأهديه جهدي، وشبابي، وأحلامي. وهكذا أعددتُ نفسي للمهمَّة؛ لأكون أفضل أمّ في العالم.

غضب زوجي غضباً شديداً عندما أطلعته أوّل مرّة على خبر حملي، لكنّه أصبح أكثر تفهّماً وعاملني بلطف. أدركتُ أنّه هو الآخر قد شعر أنّه سيكون أباً محباً، بفطرة أبوّة كاملة، وأنّ المسؤوليات التي سيواجهها لم تقلقه.

والدته، والتي كان زواجنا المدني كابوساً بالنّسبة لها، توسّلت إليَّ عندما سمعت بالنّبأ، أنْ «أُنصِّرَهُ»، ووعدتها بذلك، وتذكرتُ أنّ بابا قد سمح لأمّي بذلك. لكنّي أخبرتها كذلك أنني لن أسمح لها أو لابنتها

بالتّدخُّل في تنشئة طفلي. لم أرغب بتلويثه بأي ممارسات متخلّفة تمارس في المنطقة. لم أردْهم أن يضعوا حجاباً في سريره، أو أن يقمّطوه بقماش، أو يعطوه أي عقاقير خطيرة. وعلى كلٍّ هذا أجابتني بوقاحة تناقض حياءها المعتاد: «حسناً، لقد رُزقت بعشرة أطفال واعتنيتُ بهم جميعاً!»، ستة أطفال من أولئك العشرة قد فارقوا الحياة وهم رُضّع، أمّا النّاجون فيعتبرون محظوظين. اعتَقَدَتْ أنّ كل الأطفال يجب أن يمرّوا بخمسة أو ستّة أمراض، وخلالها سيقبض الرّب روح من يشاء منهم ليكون ملاكاً.

يا لها من مسكينة! لقد ساعدتني في تقطيع وخياطة القمصان والصّدريات، واستمتَعَتْ بالعمل. في غرفتنا الصّغيرة بدت هادئة مطمئِنّة – شعرت بعدم أهميتها، كأغلب اللائي عانين في حيواتهن وبالتّالي منحن الآخرين سعادة لم يعشنها، وإذا ما استجدّ طارئ ألقين باللائمة على أنفسهن.

ومصادفة، لم يفارق كلٌّ من زوجي وعمّي سريريهما: أصيب عمّي بالتهاب مفاصل قبل وقت طويل وأهمل علاجه، أمّا زوجي فأصيب بضيق تنفس شديد. مرض الكهل لم يبدُ خطيراً، لكن زوجته وابنته اعتنتا به، ووجدتُ نفسي وحيدة للاعتناء بزوجي الذي ازداد مرضه سوءاً بسرعة. ظننتُ ذات ليلة أنّه كان يواجه صعوبة في تنفّسه، لكن بعد أن اتّبع الطّبيب كلّ العلاجات الميؤوس منها قال: للمرض كلّ أعراض الدفتيريا. لم يتمكن إخفاء هذا عنّي رغم حالتي. كنتُ متأكّدة من أنّي لن أقوم بأي شيء للمخاطرة بالرّوح التي في رحمي، فتحلّيتُ بالهدوء والثّقة. لم أُطلع زوجي على خطورة مرضه، لكنّي طبّبته ليلاً، شعرتُ أنّ مواصلة الاعتناء به لن تؤذي حياة طفلي أبداً. وبعد بضعة أيّام انتهت الكارثة. حينها فقط أخبرتُ زوجي عن فرصته الضئيلة في النّجاة من مرضه. دام سروره فترة قصيرة، حيث تدهور حال والده وفارق الحياة بعد أسبوعيْن.

ورغم كونها المرّة الأولى التي يموت فيها قريب لي، إلّا أنّي لم أحزن - ربما لأنّي كنتُ غير قادرة على ذلك، وربّما لأنّ جلّ تفكيري انصبّ على الحدث الوشيك الذي جعلتُ حياتي كلّها تدور حوله. اكتشفتُ الحكمة من الموت. فزوجي وحماتي، الذين لم يحبّا والدهما كثيراً منذ طفولتهما، واعتبراه مجرّد مصدر للمال فقط، كشفا العذاب العظيم الذي ألمّ بهما - لعلّهما كانا صادقين في ذلك.

وجّه هذا الحدث تفكيري لأشياء قالها لي أبي. فكثيراً ما كلّمني عن رياء ونفاق الجيران. قال أبي: إنّ الوالدَيْن، سواء أكانا من الطّبقة الوسطى أو العاملة، فإنّهما سيواجهان عقوق الأبناء ولن يتذمّرا مطلقاً. عانت الأمّهات من جور مفرط بصمت تام على وجه الخصوص. لم تصدُق أي زوجة مع زوجها بخصوص شؤون المنزل الماليّة. ولم يأخذ أيّما رجل أجره كاملاً إلى منزله. عدد الأزواج المخلصين لبعضهم معدود على الأصابع، ولفت والدي نظري إلى عشيقات عدد من أصحابه - نساء يعشن لوحدهن أو مع أزواجهن ذوي رواتب لا تسدّ الرّمق. قبل فترة وجيزة، تشتّتتْ أسرة بسبب جريمة قتل حيث تفاجأ الابن بعلاقة بين زوجته وأبيه. فتيات كثيرات بعن أجسادهن لا بسبب الجوع فقط، بل لأنّهن أحببن التأنُّق. وبعمر الرّابعة عشرة لا توجد فتاة عفيفة تماماً، لكنّهن يلازمن المنزل جميعاً، يتفاخرن بشرفهن الرّفيع، ويتّحدّين سكّان الحي لإثبات العكس. يُعتبر النّفاق فضيلة، وستنزل نازلة وخيمة العواقب بكل امرِئٍ تسوّل له نفسه تدنيس قدسية الزّواج والسّلطة الأبويّة الأولى! والويل كلّ الويل لمن يحاول تعرية حقيقة هؤلاء الأشخاص!

ولأنّ والدي تبنّى موقفاً صريحاً، وأدانهم بقسوة، جنى بُغضَ وكراهيّة عددٍ كبير من النّاس له... أشخاصاً أقلّ مكانة منه. كشفه العلني عن ريائهم جعله منبوذاً اجتماعيّاً.

وهذه هي البيئة التي سيولد فيها طفلي!

ترقّبتُ الـولادة بانهماكٍ شديد، واتّقيتُ كلّ استحكامٍ لليأس،

وانشغلت بإعداد التّفاصيل. علمتُ أنّي سأكتسب مكانة جديدة وأكبر أهميّة في لحظة المخاض ذاتها، وكان هذا دافعي. لازمتْني صورة واحدة: أمّي وهي شابّة في تلك الأيام الخوالي، حين كنتُ طفلة. شعرتُ بحنين جارف لدفئها، ولذلك سأحيط طفلي المنتظر به...

-7-

ومع بشائر رذاذ المطر وانبلاج الفجر وقت الغروب، لامست شفتاي رأس ابني الصّغير. شعرتُ أنّي قد جرّبت، لأوّل مرّة، الهناء في حياتي الخاصّة. ملأني شعورٌ متدفّقٌ بالخير الوفير. وأنّي جزءٌ متناهي الصّغر في هذا الكون اللانهائي. شعور بالانتشاء، بعدم القدرة على التّفكير أو التّحدّث. بالانفصال عن ماضِيَّ ومستقبلي، وانسياقي نحو مجهول مُبشِّر. ترقرقتْ عيناي بالدّموع. واكتنفتُ طفلي بين ذراعَيّ: كان حيّاً! حيّاً! قد صنعه جسدي، وعاشت روحه فِيَّ: إنّه يحتويني كلّي وله أن يطلب منّي ما يريد، من الآن فصاعداً. منحته فرصة العيش للمرة الثّانية. قبّلته قبلةً طويلة لطيفة، ووعدتُه أنّي سأكرّس نفسي له، بالتزامٍ يُضرَب فيه المَثَل.

شاهدتُ زوجي يبكي فرحاً. شاهدت ابتسامات الجميع، ثمّ غفوت. لاحقاً، عندما ارتحت واسترخيت على ملاءات قطنية نظيفة، تذكّرتُ تبسّمي في وجه أختَيَّ عندما جاءتا لزيارتي، والنظر في مرآة جلبتها إحداهن لي. شاهدتُ وجنتَيَّ المتورّدَتيْن، وعينَيَّ اللامعتَيْن، ووجهي الوضّاء: اتّخذتُ هيئة أمٍّ جميلة. فيما زارني فيما بعد والدي، وعدّدَ له الطّبيب مراحل الولادة المختلفة: آلام المخاض الأولى عند الثّانية صباحاً، ثمّ تقلّصات سريعة حتى الذّروة، ثمّ نصف ساعة من المعاناة، تلتها انقباضات متلاحقة، ثم تنفّس الصّعداء عند سماع الصّيحات الأولى لطفل سليم ومعافى وقوي. وصلتني كلماته كقصص من زمن أثير، استجمعت شيئاً بسيطاً من حواسي. أجل، لقد غلّفت النّار جسدي،

غطى رأسي عرق بارد، أصبحتُ – هل حدث هذا لفترة مؤقتة أم للأبد؟ – مخلوقةً ضعيفةً ترجو تعاطف الآخرين معها، نسيَتْ كل مسألة أُخرى، يداها تشبّثتا كرهاً بمعونة متخيّلة في الهواء أعلاها، وتغيّر صوتُها في معركة مع الموت. أجل، في اللحظة التي وصل فيها ابني إلى العالم اعتقدتُ أنّي سأموت. صرخت تمرّداً باسم جسدي الممزّق، وأمعائي المقطّعة، وإدراكي المتشظّي. متى حدث هذا كله؟ من قبل، من قبل! قبل أن أعرف نفسي كأمّ، وقبل مشاهدتي لعينَي صغيري. بعد تلك اللحظة، كان كلُّ شيء كأن لم يحدث، لأن ذلك الجسد الصّغير الدّافئ المتدثّر في ثياب الرّضّع كان في سريره إلى جانبي. شعرتُ باسترخاء عظيم يتسلّل في أوصالي، ففي ذلك اليوم كنتُ قدّمت نهدي لذلك الفم الصّغير وسمعتُ منه صوتاً جعلني أبكي وأضحك في آن واحد.

شغلي الشّاغل خلال فترة الحمل كلّها كانت مسألة إذا ما كنت سأتمكن من إرضاعه أم لا. حتى أنّي قلتُ لنفسي في الليلة السابقة إنّي سأتحمّل طواعية بضعة أيام من الألم إذا كان ذلك سيضمن إرضاعي للطفل. وهكذا، عندما شاهدت فمه الصّغير وهو يمتص الحلمة، وسمعتُ حنجرته تبتلع الحليب المتدفق من ثديي، ومن ثمّ شاهدت وجهه المسترخي وهو نائم بين ذراعي، مررت فوراً بلحظة سعادة لا يمكن وصفها بكلمات. أمتلك طاقة عاطفية لا حدود لها، وهي التي أبعدت الإرهاق عنّي، وجعلتني أفكّر في أنّي بدأت أتحكم بحياتي. أثناء نوم ابني في سريره إلى جانبي، حينما حُكم على الغرفة بالهدوء والعتمة، سمحتُ لمخيّلَتي بحرّية التّجوُّل، وخطرت في ذهني خطّتان: الأولى، تتعلّق بابني، جمعت كلّ الأفكار التي خطرت في بالي في الأشهر التي سبقتْ ولادتَه، وأوجدت المسرّات الحقيقية في واجباتي كممرّضة، ومعلّمة، ورفيقة. أمّا الخطّة الأخرى، فهي النّبض الأول الغامر للتعبير عن عواطف جديدة ومميزة – عواطف لم أعبّر عنها قَطّ لكنّها الآن تتدفّق فِيَّ. بدأتُ أخطّط لكتاب في ذهني. ظننتُني سأكتبه فور استعادتي لقوّتي،

في ساعاتي الطويلة للراحة قرب المهد. وأحياناً، عندما أخلد للنوم، أبتسم لفخامة أفكاري.

في الليلة السّابعة أو الثّامنة بعد الولادة، استدرتُ نحو الرضيع وتمتمت بكلمات حبٍّ له، شاهدتُ وجههُ البريء يبتسم ابتسامة عجيبة، كاملة، ومشرقة. كان لها وقعٌ عظيم عليَّ حتّى اعتقدتُ أنّي سأفقد الوعي.

لم أصدِّق الطبيب عندما قال في صباح اليوم التالي إنَّ الابتسامة قد تكون تقلُّصاً عضليّاً، لا إراديّاً كليّاً، بفعل متعة نفسية في لحظة الشّبَع والرّاحة. كان من المهدِّئ التّفكير بها على أنّها تعاطفٌ آنِي بيني وبين طفلي، وأنّ غموض المساء السّاحر بمنظر الطّفل المحبوب، قد أكّده بالفعل وجودُه البشري!

نظر الطبيب إليَّ بتعاطف. حذّرَني من مَغبَّة الفرح الشديد ونصحني بعدم القلق، لأن الطفل كان يفقد وزنه. طمأنَني مرّة أخرى إلى أنَّ حليبي كان كافياً، وأنّ ما من داعٍ للقلق.

دثّرتُ نفسي طوال ذلك اليوم بذكرى تلك الابتسامة، والتي بدت مجرّد تمهيد لسعادة سيجلبها ابني لي خلال نموّه.

جاءت أختاي والممرضة لزيارتي. تحدّثتُ معهن بهدوء، كنت أشاركهن رضاي، عندما انضمَّت إلينا حماتي. لم يبدُ عليها أي أمارة على أنّها شاهدت زائراتي، قبّلت ابن أخيها، ثمّ وقفت جانباً، بعبوس وصمت. الأخريات، بعد النّظر لبعضهن، تابعن الحوار بهدوء، وبعد مغادرتهن انحنتْ قليلاً باتّجاه سليطة اللسان المتوحّشة. لم أنتظر حتّى يغلق الباب، لأشتم قبل هروعي إلى سريري. لطالما كرهتْ أختَيَّ لأنّهما لم تتوجّها لتحيّتها، لكنّي لم أشاهدها تظهر غضبها علناً. توسّط زوجي بشيء من الحماس. لم أشعر إلّا باحتقارهما، وأنا أغوص بحمَّى تسري في جسدي بين الوسائد. واتّباعاً لنصيحة خادمتنا التي ازدادت توتراً، أبعدتُ الطفل عن صدري. ظلّت حماتي غاضبة. لم تستطع التّوقّف عن الصراخ... وكنتُ في غاية الإرهاق، نصف غائبة عن الوعي، غير قادرة

على التّواصل مع زوجي أو توضيح حالي النّفسي والبدني... في تلك الليلة لم يكن الطّفل راضياً عن تغذيته وصاح. في زيارة الطّبيب الصّباحية وجدني أذرفُ دموع الأسى على ابني، والذي كان يرضع بلا فائدة.

جفّ حليبي. وخلال الأيام الخمسة عشرة التّالية كنتُ قد جرّبتُ كل علاج، وكلّ حمية، بلا منفعة. كنتُ مهووسة بفكرة أنّي يجب أن أكون مرضعة طفلي الوحيدة، مهما كان الثّمن. بدا أنّ الجهد الذي كنت أحتفظ به حتّى ذلك الحين قد تلاشى. بكيت وبكيت بهدوء، كطفلة، وأنا أشاهد نهدَيَّ اللذَين لَمْ يتورَّما، وطفلي الذي يفقد وزنه. توجّب عليَّ الرّضوخ لفكرة مشاهدة رأسه الصّغير وهو يطلب غذاءه من نهدَي سيّدةٍ أخرى. ضَرْبٌ جديدٌ من الألم قد نهشني، عاطفيّ وبدنيّ في آن واحد. نُسفَت أحلامي العظيمة التي تنامت وأنا أنظر لمَهدِه، وقاومتُها بسُخط، كما يكافحُ شابٌّ قابلَ وجهاً لوجه موتَه المبكّر الظّالم...

كان عليَّ الاستسلام وإلّا سيموت الطّفل، وتمكّنتُ من تدبير الأمور. ستقيم مرضعةٌ معنا وسينام ابني إلى جانبي. كرهتُ الفتاة التّي حلّت مكاني، بوجهها البليد التّقليدي وحركاتها الثّقيلة الحمقاء. وحتّى هي، لم تملك حليباً كافياً. فبعد أنْ اختبر طفلي الجوع، صار شَرِهاً. استغنينا عنها بعد أسبوع. أمّا المرضعة الجديدة، فكانت خلوقة، وذات وجه ناعم ولطيف، وسكّنت من قلقي بخصوص صحّة الطّفل. ولأنّها استشعرت غيرتي الأموميّة، رفضَت إغواء تقبيل الطّفل الذي تطعمه من حليبها، وبذلت جهدها لاتّباع القواعد التي وضعتُها بحذافيرها، وبفضلها تمكّنت من التّغلب على مخاوفي والتّنازل عن المهام التي لا أستطيع تنفيذها بنفسي، وحاولتُ استعادة صحّتي المتداعية. لا يزال بإمكاني رؤية نفسي، في فستان أبيض، ووجه مشرق، جالسة على مقعد وأنا أحاول الحصول على شيء من الدّفء في شمس مايو، أثناء الاستماع بلا تركيز للطبيب. زارني يوميّاً، وكان الشّخص الوحيد الذي جلب معه رفقة روحانية في حياتي. عانيتُ آنذاك من أنيميا حادّة: لم أكترث لها،

لكنّها أثّرت على أعصابي، وجعلتني أنام أكثر. باتت صحّة ابني هوسي الأكبر، وقادتني إلى المبالغة؛ لا بدّ أنّ تطلّبي كانَ فَظّاً مع المرضعة، رغم أنّي كنتُ في غاية الامتنان لها في لحظات أهدأ. كَبِرَ ابني كزهرةٍ بين أُمَّيْهِ. وبمرور الوقت أحببتُه أكثر فأكثر بإفراط، وشعرتُ أنّ كل ما له قيمة فِيَّ مشمولٌ فيه، وأصبح جسدُه الصّغير محور حياتي.

لم ألحظ أنّ زوجي قد فقد اهتمامه فِيَّ كُلّيّاً، ولم أدرك أنّي قد توقّفتُ عن التّفكير فيه. عاملته حينذاك بحكم التّعود لا غير. كان والد ابني، وعلى ابني في يوم ما احترامه، وتصرّفي معه كان بدافع رغبة عنيدة للإبقاء على وهم استقامته، حتّى يستحقّني أنا وابنه. كنتُ أشعر بالامتنان إذا شاهدتُه متأثّراً وسعيداً لأيّ دليلٍ يشيرُ إلى تطوّر ابننا. وكنتُ أشعر بالامتنان كذلك إذا شاركني مخاوفي المتعاقبة، وتحمّل انزعاجي ليلاً وعدم رضاي عن أي شيء، باستثناء الطريقة التي يبتسم فيها ابني لي.

ومع اقتراب نهاية الشهر الخامس، فقدت المرضعة ابنتها، فتوقّف إدرار حليبها. كأنّ عيناً حاسدة حالت دون إرضاع ابني. جاءت امرأة جديدة للمنزل، شديدة الإزعاج وسمراء، ذات شخصية تختلف اختلافاً تامّاً عن المرأة التي غادرت توّاً. لم أقابل قَطّ امرأة أكثر غرابة، وغير منطقيّة، ورابطة الجأش مثلها. ولأشهر، مع نمو الطفل بقوّة وجمال، شَنَنْتُ معركةً متواصلة مع نفسي لاحتمال هذه الفلّاحة. ضحكتها الرّنّانة الحمقاء – سواء أكانت تزلّفاً أو وقاحة – أهانتني كلّما سمعتُ جَلْجلَتَها على بعد إنشاتٍ من وجه ابني الصّغير.

انتقد زوجي موقفي منها نقداً لاذعاً، فشعرت بالألم. ألم يدرك أنّي كنتُ أنزعج من نقائصها، لأنّي أردتها أن تكون أمّاً ثانية لابني، وهذا التّصنُّع أعابَها؟... خشيتُ، فوق كلّ شيء، أنّ ابني سيمتص مع حليب تلك الغليظة، المشؤومة، الجراثيم. وعندما لاحظتُ إصرارَ زوجي على الدّفاع عنها، دخل الشّك إلى قلبي، فامتعضتُ امتعاضاً شديداً من كل شيء كُتب لي في الحياة.

أرعبني هذا الظّن كثيراً، لدرجة أنّي كنتُ أجبن من التّحقق من حقيقته بنفسي. في الواقع، وبغض النّظر عن الجهد التي بذلتُه مع الطّفل، كنت غير قادرةٍ بشكل متزايد على الإبصار، والرّغبة، والعيش. تعبٌ نفسيّ على تعبٍ جسديّ. لم أرضَ عن نفسي، ولُمْتُني على إهمال أفضل صفاتي، على كبت وإخفاء كلّ شعورٍ صادقٍ وعميقٍ فِيَّ. في الواقع لم يكن مرضاً الذي بدأ يُبرِز نفسه، بل هو عجزٌ جوهري في حياتي. الأمُّ والمرأة اللتان فِيَّ لا يمكن أن تعيشا معاً. منحني الطّفل المتورّدُ السّعادةَ والتّوتر، واللّذين منحاني شعوراً غريباً بعدم الاستقرار، والتّأرجح الغريب بين الكسل والنّشاط، والرّغبة واللامبالاة. لم أتمكّن من معرفة منبع عدم الاستقرار ذاك، لكنّ النّتيجة هي أنّي بدأتُ أبصر نفسي كإنسانة غير متّزنة وناقصة.

-8-

دوّنتُ كل الأحداث المهمة في حياتي والمتعلّقة بضعفي وطفلي الحبيب في مفكّرة صغيرة: أعيش وأتنفس الآن من أجله وحدَه فقط، وكأنّي اكتفيتُ به. هذه الملاحظات، إلى جانب ملاحظات متعجِّلة عن الدّلائل الأولى على نبوغه واستجاباتي المختلفة لها، كانت موضوع محاولاتي الأولى في الكتابة.

ما يزال بإمكاني تخيُّل جسده عارياً عند الاستحمام، تسنده أيدٍ حريصة عليه: كان جميلاً. جمالٌ مثالي تأمّلتُه بحياء ثمّ بفخر. تصوّرتُ وجود عِلَلٍ فيه وتساءلت عمّا إذا كنتُ سأبقى أحبُّه إذا عانى من أيٍّ منها، لكنّي كنتُ أقول لنفسي دائماً في نهاية المطاف إنّه مهما كان شكلُه فهو سيجعل حياتي رائعة. تذكرتُ نظرته المتأمّلة نحو السّماء الزرقاء، وفمَه اللّذيذَ النَّيِّقَ، ورأسَه المكسوَّ بشعرٍ كستنائيّ جميل، ويدَيه المضطربتَيْن القويّتَيْن، وهما تتحرَّكان على الدّوام. ما يزال بإمكاني مشاهدةُ نفسي، وأنا أميل على مهده ساعة تلو السّاعة، نهاراً بعد ليل، حزينةً معظم الوقت، بهجةٌ عارمة تملأ صدري، وغموضٌ غالباً. كنتُ بالأهمية ذاتها لطفلي، كما كان هو بالأهمية ذاتها لي. كان سعيداً ومعافىً صحياً بسبب عينَيَّ السّاهرتَيْن. أنا الوحيدة التي شجّعت تطوّره باستمرار وإصرار. وأنا الوحيدة التي منحتُه كُلّي، ولذلك فهو في الواقع ينتمي لي وحدي فقط. والدُه، وجدَّتُه، والآخرون استمتعوا بالعرض، لكن كنتُ أنا من كتبتُه. كلّ ما تعلّمه وسيتعلّمه مصدره أنا.

غادرتْنا مرضعتُه قبل أن يتمّ عاماً واحداً. في الرّبيع والصّيف التّاليين،

بدأتُ أتنزَّه معه نهاراً. ساعدتُه وهو يحاول الخطو بلا توازن، ورفعته وحملته بين الحقول أو على طول الشّاطئ. ما الذي قلناه لبعضنا، ابني وأنا، في ذلك الوقت؟ ذاكرتي لا تسعفني. ناداني «ماما»، وبكل انتباه لبّيتُ نداءه. إمّا أنْ أكتب الرّسائل لصديقاتي، أو أنجز سجلّات المصنع وهو على ركبتَيَّ، أو أقرأ وأنا ممدّدة إلى جانبه على السّجادة وهو يلهو بألعابه المفضّلة. التمعت عيناه الزّرقاوان أحياناً التماعةً مخمليّة بين رموشه الطّويلة: أدركتُ حينها مدى قوّته، وأنّي سأرضخ له دائماً. كيف عساي أن أحرم بشراً مما يريد وهو ينظر لي بمراوغة تفتن القلب؟

لم تعد خالتي تتذمّر من رفضي لاستخدام تعويذات السّحر درءاً للحسد وما شابه. كانت ما تزال في حداد. ومتى ما جاءت لزيارتي، كانت تبدو أصغر حجماً وأكثر إرهاقاً من ذي قبل، لكنّ أساريرها تتهلّل إذا شاهدت حفيدها الظّريف. قال السّكان المحلّيون إنّ ابنتها تعاملها الآن بعداء وحقد. لم تبثّ همومَها لي، لكنّي لاحظتُ تحدّب أصابعها المتزايد، فأصبحت أكثر صمتاً من ذي قبل: تساءلتُ عمّا إذا كانت تئزُّ ألماً.

بعد ولادة الطّفل، تحسّنت علاقتي مع أخي وأختَيَّ. غادرت المربية منزلنا لوظيفة أفضل، ولم تشغل مكانَها مربيّةٌ أخرى. ذهبنا كلّ شهرين معاً لزيارة أمّي. لم تعد تطلب مرافقتنا إلى المنزل، وقلّت استجابتها لأسئلتنا المتلهّفة شيئاً فشيئاً. قلقَ الأطباء من زيادة وزنها وكان كلامها ولغتها الجسديّة يتقهقران لكلام وتعبيرات الأطفال. الآخرون، عندما أدركوا عزلتها العاطفيّة كُلّياً، ازداد انتقادهم اللاذع لسلوكيّات والدي، رغم عدم مناقشتهم للموضوع معي. كانوا يعلمون أني لم أكن في منتهى السّعادة، وأشفقوا عليَّ. لكنّهم اعتقدوا أني لم أكن امرأةً معدومة المشاعر، ضاق صدري ممّا قالوا، غير أنّي لم أشعر بأي رغبة لأبرهن لهم خطأهم، أو لمحاولة كسبهم إلى صفّي.

قابلتُ والدي في بعض الأحايين. كان قد استأجر المصنع واهتم بمضاعفة العوائد المالية فقط. ولم يفكر قَطّ بحال أبنائه الذين هجرهم

رغم تحسّن ظروفه. لقد عامل طفلي الصّغير كحيوان أليف، وانزعج من زوجي الذي ترقّى لمنصب مدير. انسلخ والدي انسلاخاً تامّاً عن حياتنا في المنطقة، وكان في انتقاداته لي غِلٌّ كثيرٌ لم أتمكن من تبريره. ومع ذلك، حتى مع هذا، بمحادثته لي كنتُ أنتقل من جديد إلى عالم أفكار أكثر شموليّة واتّساعاً، وعندما أعودُ إلى غرفتي الصّغيرة أشعرُ بالاختناق، وكأنّي أهوي في بئر عميقة. حتّى حواراتي مع صديقي الطّبيب فشِلتْ في إخراج جوانب حياتي القوية والأصيلة كما حدث مع والدي.

استمتعتُ بالإصغاء إلى آراء الطّبيب العقلانية والمتشائمة غالباً، لكنّه أدهشني وضايقني أحياناً. لربما كان التّشابه بيْن ذوقيْنا هو ما جعلنا صديقيْن مقرّبيْن، على الرّغم من أنّ تنشئتنا وتعليمنا مختلفان، باستثناء أنّي لم أمتلك الثّقة بالنّفس، ولم آمن لأفكاري. لكن كيف بدوتُ له؟ لأنّي كنتُ شديدة الحذر معه، كما كنتُ مع آخرين كيلا أتصرّف كامرأة تأسف على حالها.

واجهتُ صعوبة في الحفاظ على علاقة متسامحة مع زوجي، وانطفأت نار عشقه المتملّك. تولّدت لدي شكوك عن خيانته عندما دافع عن فتاة المصنع الماجنة، وألقى باللائمة على والدي. ورغم ذلك، كان ما يزال غيّوراً، وأظهر ذلك بتزايد بطرق تعسّفية.

عندما انجرفنا في أحد الأيّام في جدالٍ عقيم، وقف غاضباً، واقتنص فستاناً جديداً كنت على وشك ارتدائه، ومزّقَه لأجزاء... شعرتُ في واقع الأمر أنّه هاجمني أنا، وسرعان ما ضبط أعصابه، وأوجد مسوّغاً لتصرّفه. حاولت التّناسي. لم أرغب في تهويل الموقف...

راقبته. كان دائم الاعتداد بنفسه، وراضياً عن موقفه عندما يكون بمعيّتي، أمّا مع من يتفوّقون عليه أو بين جمع من الناس فكان جباناً ومتذبذباً. بدا أنه تعوزه الحكمة، ولذلك عجز عن أن يكون حبيباً أو خصماً على حد سواء. اعتبرته عديم الفائدة، ودخيلاً على وجودي. لم يدرك تقييمي له وتمعّني فيه. لكن عندما أنظر لابني، أنسى تماماً الرعب النّاتج عن تحليلي الغريزيّ لأبيه، وتعيد ابتسامته إنعاشي وتهدئتي.

قضينا في ذلك الشّتاء مساءً أو مساءَين أسبوعيّاً من جديد في منزل أقاربنا. الطّبيبُ، ورجلُ أعمالٍ متزوِّج، وسكرتيرةٌ في البرلمان المحلّي، ومعلمٌ وأبناؤه، وأخي وصديقُه أحياناً - صديقٌ في إجازة غالباً - تجمَّعْنا بانتظام هناك. كان هناك أكثر من عشرين شخصاً في صالون الاستقبال أحياناً. استمعنا لتحليل السّكرتيرة للأغاني النّابوليتانية، وثرثرنا، وتناقشنا في مواضيع غير جادّة غالباً.

حماتي كانت حاضرةً دائماً. لاحظتُ بشيء من التّعجّب أنها قد قررت التّأنق وخلع ثياب الحداد، وباتت تميل للملاطفة. كانت تغار علَناً من الفتيات الأصغر سنّاً والأكثر حسناً منها. ولحسن الحظ لم يلحظها أحد، باستثناء الطّبيب، الذي عالجها قبل أشهر من ألم عصبٍ متواصل، وسخر منها بملاحظات وهو يبتسم بمواربة. كانت تطرق رأسها دون أن تجيبه، وكأنّها متحيّرة منه.

كان من الجليّ أنّ الطّبيب قد سُرَّ سروراً عارماً لأنّه شاهدني وأنا أشارك في هذه الاحتفالات. لم أُعجب دائماً بما يحدث فيها، لكنّي استمتعت نوعاً ما. وكنتُ أُعامَلُ باحترام وجدتُه مغوياً من نساءٍ كُنّ متهكّمات بشكل عام. آمنت بأنّ سمعتي كفتاة مهذّبة وحكيمة صغيرة - بدلاً من الصّورة التي كوّنها زوجي بسبب غيرته - قد شكّمَتْ سلوكَ أولئك الرّجال وأجبرتْهم على التّقليل من إظهار صفاتٍ ماديّة النّزعة.

ذات مساء وبينما كانت السّكرتيرة تغنّي، لمحتُ عينين ثاقبتيْن لرجل راقبني كما لم يحدث لي من قبل. كان «دخيلاً»، حسب لفظ أطلقه السّكان على أي شخص لم يولد في المنطقة. أخبَرنا أنّه أحبّ السّفر وهذا سبب إقامته خارج البلد حتّى عاد إليه قبل ثلاثة أعوام. في الواقع، كان بإمكانه التّكلم بعدّة لغات، وكان حتماً - بغض النظر عن الطّبيب - أكثر الحضور تعليماً وذكاءً. راتبه ضئيل، كسبه من عمل خاص، وأقام مع زوجته وعندهما صغيرهما الجميل، والذي كان بعمرِ ابني ذاتِه.

أسرتانا على وفاق منذ أسابيع قليلة فقط: وجدتُ أنّ زوجته مزاجيّة

الطّبع نوعاً ما، على وجهها الأبيض المسلول ملامح التّهكم دائماً. أمّا زوجها فكان في الثّلاثين من عمره، وذا شعرٍ جميل، لم يكن طويلاً، لكنّ بُنيته رياضيّة، وامتلك صوتاً مميزاً؛ هادئ غير أنّه رنّان. كان حسن التّصرف دائماً، ومع ذلك كان من الصّعب معرفة ما يجول في خاطره، وأنا لم أُثر انتباهه تماماً. في الواقع، لم يُكوّن أي شخص رأياً عنه. جاء هو وزوجته إلى إقليمنا لأنّهما أملا أن يحسّن الطّقس هنا صحّتها.

حدة نظراته أرعبتني. ماذا أراد؟ تراءى لي أنّه ابتسم بتندّر، كما لو أنّه نال مبتغاه بعد لفت انتباهي. جاءتني متعته المكتومة كصفعة على خدّي. لكن نوعاً من الانجذاب الاضطراري جعلني أتحرَّى عينيه من جديد. لم تعودا تبتسمان، كانتا شاخصتيْن، ومتحكّمتيْن، ومتوهّجتيْن. ارتبكتُ عندما ذهبت للسّرير في ذلك المساء، كما لو أنّ عدوّاً مجهولاً قد أعلن الحرب على حين غرّة، دون أنْ أعرف السّبب أو ما هي النّتيجة. ولأول مرّة منذ زواجي، يتجاسر رجلٌ من خارج دائرة علاقاتي على النّظر إليَّ كما لو أنّ سمعتي بأنّي قاسية ومترفّعة لم تعنيا له شيئاً. شعرتُ بالاستياء، كما كنتُ في غاية التّعجُّب منه.

ولمساءات مماثلة تالية تبعتني عيناه الزّرقاوان في كل مكان، ولم تفقدا النّظرة الآمرة التي لفتتْ انتباهي كثيراً، ثم أصبحتا شبِقتَين، وكأنّه يعيش في حلم نشواني. كان قليل الكلام بطبعه. وبقدر استطاعته، انسحب من الآخرين ووقف في الزّاوية، ليحدّق فيَّ، دون أنْ يلحظه أحد. ذات ليلة وهو يتمنّى لي مساءً طيّباً أمسك يدي في يده وقتاً أطول من اللازم، دون أن ينبس ببنت شِفّة. سرتُ للمنزل مع زوجي في الرّيف الشّتوي وأنا أنسج قصصاً رائعة في عقلي. وفي المنزل وجدتُ الطّفل نائماً، تراقبه الخادمة المُجهدة، والتي غادرت مباشرة لغرفتها. انقبض قلبي. وفي السّرير، انتظرتُ النّوم بقلق.

كان رأسي ثقيلاً في صباح اليوم التّالي. نظرتُ للأسفل عبر نافذة غرفة الطّعام للشارع وشاهدته يمشي بلا هدف هناك. شاهدَني لكنه لم يأبه

بوجودي. وبعد لحظة ابتعدتُ عن النّافذة لملاعبة الطّفل. في ذلك المساء، قبل الخروج، توقّفتُ أمام المرآة كما لم أفعل من قبل.

في تلك الأمسيات تهامس أبناء المعلم معاً، وهم يمعِنون النّظر في استمتاع حماتي بالإصغاء لأحاديث الطّبيب. وذات مرّة، كلّمني أخي عنها، وهو يتمتم بعبوس: «لقد انتشر سرّ حماتك وبات مشاعاً... لن يفخر الطبيب بغزوته!». أردته أن يوضّح لي قصده. خاف من العواقب. ما قصده؟ ماذا هناك بين صديقي والمخلوقة المسكينة؟ احترت، ثمّ شعرت بانزعاج طفيف. شعرت بوحدة أكثر من ذي قبل، لم يلحظها أي شخص عدا ذلك الرّجل...

هدفه الآن واضح كوضوح الشّمس: كان معجباً بي، وأرادني أن أعرف شعوره. إذن؟ ماذا يتوقّع منّي؟ ما الذي تخيّل حدوثه؟ غادرنا منزل أقاربنا ليلاً أحياناً، ومشينا على امتداد الطّريق معه ومع زوجته. نظر إليَّ عبر كتفيه الهزيلتَيْن وبعينيه الثّاقبتيْن، تمكّنتُ بعد فترة وجيزة من إبعاد عينَيَّ عنه، ثمّ نظرت إلى الآخَرَين، وهما يمشيان دون أن يشتبها بشيء إلى جانبنا. «ماذا تفعلين؟» سألتُ نفسي. «هل ستسمحين له بالاستمرار؟».

فعلاً. إنّ كل ما احتجتُه هو إرادةُ اتّخاذ القرار. بتّ أفكّر فيه الآن طوال اليوم، في كل أفعالي. كل ما قمتُ به حلّ في المرتبة الثّانية – حتّى ابني لم يتمكّن من تحريري من أفكاري. ومع ذلك لم أشعر بالتّعاطف ولا بالودّ اتّجاهه. لماذا يخفق قلبي بشكل أسرع عندما أفكّر فيه – وكيف عساي فعل ذلك؟ بالكاد كنتُ أعرفه، إلى جانب ذلك، بدا لي كزهرة جاهزة للقطف من مالكها المهمل... على أي حال، لا بدّ أنّه أدرك استحالة استمرار هذه التّمثيلية المصطنعة وقتاً طويلاً.

حلّ رأس السّنة. وذات يوم خلال سفر زوجي، استلمتُ رسالة. رجاني المعجَب أن أرسل له جواباً على الإعجاب الذي يكتمه في قلبه، وأخبرني أنّه يتوجّع ألماً وهياماً. توجّب عليَّ الابتسام. أبصرتُ جسمَ الأمر وشيكاً، رغم أنّ كلماته لم تقنعني. لماذا يتوجّب عليَّ إجابته؟

دهشتُ كثيراً لأنّي أجبتُ رسالته. لا أتذكّر ما كتبتُه تماماً، لكنّي نصحته بأن يسمح لقلبه باستعادة عافيته بشجاعة والابتعاد لأنّه ليس إلّا ظلاً من حلم. كما طلبتُ منه مسامحتي على سماحي بنموٍّ آماله في فترة ضعف. كانت رسالتي صادقة، ورغم وجود شيء من التّهكم فيها إلّا أنّها عبّرت عن أسفي على مشاعرنا العقيمة. شيء من إجهادي، والمرارة التي شعرتُ بها بخصوص استسلامي للقدر لا بدّ أنّه سيؤجج مشاعره. أعدتُ قراءتها قبل إرسالها، واعتقدتُ أنّي بلورت حالتي الذّهنية - بدا أنّي كتبتها لذاتي. وعندما أدركتُ هذا مررتُ بما تخيّلتُ أنّه انهيار مقبل. عرفتُ لأول مرّة كم كانت عزلتي موحشة. شعرت بتعاسة أن أكون في العشرين من العمر ومسلوبة من الحب، فبكيتُ بكاءً مريراً موحشاً. وعندما هدأتُ، أدركتُ عِظم وعمق مأساتي.

لازمتُ المنزل بضعة أيّام بعد رسالتي. لم يجب عليها، وشعرتُ بكلٍّ من الحزنِ والرّاحة لهذا. ودون وعي، جعلني أنظر عن قرب شديد إلى حياتي، أجبرني على أن أكشف له عن مدى إحباطي. لم أستطعْ نسيانَه وشعرتُ تدريجياً برعب شديد يستبدُّ بي: لم يكن استسلاماً ولا تمرُّداً بعد، بل هو ببساطة توتّرٌ من تغيّرٍ غيرِ متوقع في حياتي لأنّي أدركت أنّي أتحدث عن معاناتي...

وجدتُ صمته لا يطاق بعد فترة. وبعد بضع ليالٍ عدتُ للمنزل الذي التقينا فيه أوّل مرّة. فور دخولي شاهدتُ الوجه الذي أخافُه. صار شاحباً: تجنّبتني عيناه. سمعته لاحقاً يقول بصوت أجشّ أنّه كان طريح الفراش في الأيام الماضيّة. وفي صباح اليوم التّالي - خلسة - وصلتني رسالة أخرى منه. كانت عنيفة الخطاب. أخبرني أنّه لا يستطيع التّحكم بحبّه، ولا يمكنه كذلك إخفاء عشقه لي: ليس لديه شيء ضدي ليسامحني عليه، لكن كل ما يطلبه، الآن وللأبد، هو التّعبير عن الحب الذي يكنّه لي، وحقّي في السّعادة هو أكثر أهميّة بالنّسبة له، لم يكن يستحقّني...

لم أعرف إذا كان هذا تخطيطاً محترفاً أو حقيقة؛ أي إذا كان معتاداً على

التّلاعب، وخوض علاقات كهذه، أم أنّي كنتُ أمرّ بنكبة لن أرفض على إثرها أيَّ صوتٍ يوفّر لي الحرية.

ولم أعدْ أتذكّر جوابي له، لكنّي أعلم علم اليقين أنّي جعلتُ مشاعري تتحدّث معه. أنا أكيدة من أنّي تذمّرت بتعاسة، وواثقة من أنّه سيتفهّم، وأنّ وراء ستار مظهري المتحفّظ قد عثرتُ على روح ترافقني. أخبرته أني سأحتفل في اليوم التّالي بالذّكرى السّنوية الرّابعة لزواجي... وأنّ حياتي قد انتهت، وابني هو مصدر سعادتي الوحيد...

واصلتُ رفض التّمعن في عواطفي المضطربة. وبدلاً من ذلك، انتظرتُ ما ستؤول إليه الأحداث. كان عقلي أعجز من أن يسمح لي تصّور ما قد يحدث.

علمتُ أنّها لن تعيش طويلاً، وعلمتُ كذلك أنّها كانت امرأة نزقة، أبرد من أن تمنح أو تستقبل الحب. لم أجد هذا المبرّر كافياً لخيانتها، ولم يكن لديَّ سببٌ لأنتقم من زوجي. حتّى أنّي خدعتُ نفسي بالتّفكير في أسفي الشّديد عليهما. أساساً، لم ينقض ظهري إلّا ابني. وحتى هذا المبرّر غدا أوهن. فقدتْ كلُّ المسائل وضوحَها... توصّلتُ إلى نساء كثيرات جمعن بين حبِّهن لأبنائهن والخيانة. هل كنتُ فعلاً مستعدة لتصوّر هكذا مستقبل مفزع، مشاركتي مسبّبات سعادتي بين متعة الأمومة وأحضان عاشق؟

لا أعتقد ذلك. كنتُ أقنع نفسي بأنّ الحياة أهدتني أخيراً حبّاً صادقاً، وعليّ قبوله، ويجب أنْ آخُذَني كُلِّي وبعضي - طفلي - ببساطة وإخلاص للرّجل الذي يستحقنا نحن الاثنين. تُقتُ لأُحِبَّ وأُحَبّ، وأنْ أهبَ نفسي بلا تحفّظ له، وأن أشعر حقيقةً بالانتماء لرجل. بتلك الطّريقة سأتعلّم العيْش، وسأولد من جديد!

كم يوماً عانيْت مع مشاعري؟ لم أعد أعرف، لكن حتماً ليست أياماً كثيرة. عندما شاهدته من جديد في حفل راقص نظّمه رفاقنا، راقصني بدوّامة من الخطوات المتلاحقة، وهو يهمس بعبارت غزل موجزة. في كل تلك القاعة المزيّنة الفسيحة، لم يصل أيُّ اثنين إلى ذروة حلمهما مثلنا...

شعرتُ أنّي شابّة، دمٌ وفيرٌ قد سرى في أوردتي، وشاهدتُ - بلمحة ضوء تراءت لي وحدي - أنّ كلماته المتّقدة كانت صادقة، وأني امرأة جميلة، المرأة الوحيدة والجميلة هناك... ثمّ أخبرت نفسي أنّ هذا الرّجل سيكون قادراً على إعادة إشعال نارٍ قد تحرقني حرفياً... وفكّرتُ بأنّ قدري محتومٌ، ومع تلك الفكرة تذوّقتُ... نشوتي الوحيدة.

استُدعي زوجي للعمل من جديد بضعة أيام. ذعرتُ عندما أخبرني بالنّبأ ذات عصرٍ رماديٍّ وبارد. كان جالساً قرب مدفأتنا، فذهبتُ إليه وأمسكتُ ركبتيه كما اعتدتُ أن أفعل في السّابق، في النّصف الأول المنسي من غرامنا. ولوهلة نسيتُ أنّه سبب حزني. المسألة الوحيدة التي كانت تهمني عند اقتراب الكارثة هي أنّها ستغمره وستغمرني. وضع أنامله في شعري لأول مرة منذ أشهر، ولاحظ تغيّر وجهي. تأثّرَ بذلك، وقال لي كلماتٍ عذبة عندما انهمرت دموعي. لعلّه ما يزال يحبّني؟ لا أعرف: كل ما كنتُ أعرفه أني لن أتمكّن أبداً من حبّه، لأنّ المرأة التي فِيَّ قد عادت إلى الحياة خلال الأسابيع القليلة المنصرمة - امرأةٌ ذاتُ رغبةٍ تتحرّى خوضَ المجهول، ومستعدّة لرمي نفسها فيه وهي تقدّر نفسها تماماً بين يدي رحمة رجلٍ أقوى منها بكثير...

ماذا سأقول لزوجي؟ سأتركه في حال سبيله. عرفَ الآخرُ أنّي وحيدة وبجرأةٍ كبيرة أرسلَ لي برقيّة، وطلب منّي توقّع زيارته في مساء اليوم التّالي. نقطة اللاعودة. أدركتُ أنّي قد رتّبتُ لقاءً غراميّاً.

حضر. موقفٌ جديدٌ علينا نحن الاثنين، وشعرنا بحرجٍ شديد لدرجة أنّنا نسينا حماسنا المشترك في الأيام الماضية. ولسبب مجهول وجدتُه أحمقَ عندما جلس أمامي في الجانب الآخر من المائدة، مضطرب الكلمات ومسلوباً من شجاعته المعتادة. كنتُ صمّاء بكماء، غير مرحةٍ إطلاقاً. ملأني الخجل، وأبقيتُ انتباهي على الطّفل النّائم في غرفته.

بإمكاني تذكُّر حوارٍ غريبٍ فقط: «يقع على عاتق كلٍّ منّا مسؤوليات،

التزامات مضاعفة، لكن لا يمكنك إنكار أحاسيسكِ... لقلبك احتياجاته كذلك... ليس عليك ازدراء التزاماتك، لكن لا تتسبّبي بالمعاناة لأيّ شخصٍ آخر...».

وقال أيضاً أنّه يجد الكلام صعباً، وأنّي لا أساعده.

«لا يجب أن يعاني أي شخص آخر... سنتمكّن من التّوفيق بين...».

التزاماتنا؟ ارتبك، ثم استجمع قواه، توقّف عن التّوضيح وأمسك يدي، التمعت عيناه وهو يقول لي إنّه يحبّني، وإنّنا سنفرح عمّا قريب، خاطبني بلهجة غير رسمية. وقف وسحبني إليه، وقبّلني عُنوة. وعندما اعترضتُ وابتعدت، قال إنّه لا يريد شيئاً لا أرغب بإعطائه إيّاه طواعية. قال إنّه يكتفي بامتلاك قلبي، وأن يسمع تأكيداً بذلك منّي بين الفينة والأخرى، وأن يقرأ في رسائلي عبارات الشّغف التي تملؤه بالانتشاء. قرّبني إليه مجدّداً، والتصقت وجنته بوجنتي. شعرتُ فجأة أنّه كان رجلاً يغرق، ويحاول سحبي معه للهاوية.

وفجأة، وبعنف، دفعته بعيداً عنّي. قبض عليَّ، وبدأ يعاملني بخشونة... مررت بطيفِ ذكرى: إنّه يشبه زوجي! شعرت بالغثيان، وضحكتُ ضحكاً هستيريّاً.

اندهشَ، ثمّ أفلتني، فهرعتُ لفتح الباب الخارجي، وركضتُ للغرفة الأخرى.

بعد زمن قصير، سمعتُ صوتَ غلق الباب المؤدي للشارع بهدوء. غدوتُ وحيدة في المنزل من جديد، وحيدة مع طفلي، الذي كان نائماً باطمئنان. لم أنظر إليه ولم ألمسه. إنّه حبي الطّاهر الأوحد. بدّلت ثيابي بسرعة ولم آخذه بين ذراعَي، إلّا عندما كنتُ تحت ملاءات سريري. أعضُّ الوسادة ألماً وأشتهي الموت...

-9-

حتى ذلك اليوم كنتُ واثقة من قبضي على القيم الأخلاقية... مبادئ في غاية البساطة والوضوح.

يمكنني تشييد حياتي على قواعدها المتينة، بلا شك فيها، بمعزل عن أي اختبار لها. حتّى لو هرب منّي سبب وجودي، حتى لو شعرتُ أنّ حماسي، وتمرّدي، وغروري قد اضمحلّوا بمرور الأعوام، حتّى لو خنتُ ورفضتُ فردانيّتي على الدّوام، فأنا لن أفقد إيماني بإرادة الإنسان. وحتى ذلك الحين لم أفهم كيف يُهزم أو ينهار البشر روحيّاً بسبب عواطفهم أو احتياجاتهم الجنسية ببساطة. اختبرتُ الألم المتناهي أوّل مرّة في علاقتي مع والدي، لأنّي اكتشفتُ ضعفاً بشريّاً في رجل اعتبرته إلهاً، وشعرت بضرورة الإعجاب به بدل حبّه. عندما وافقتُ على الزّواج من رجل اضطهدني وأهانني في شبابي، اعتقدتُ أنّي مخلوقة مطيعة، وأنّ قدري كامرأة يُجبرني على التّسليم بعدم أهلّيتي عوضاً عن خوض غمار الحياة بمفردي. لكنّي لم أرغب في أن يكون هذا القدر أقوى منّي. تمنّيتُ لو أنّي رضيتُ به وأنا مخلوقة كاملة، بإمكانها تشكيل قدرها.

هل سأسمح لهذا الغريب الآن بالتّلاعب بحياتي التّعيسة؟ كيف لي أن أعرف أنّه لا يسخر مني؟ هل سأعترف أخيراً بأنّي امرأة غير متّزنة، ومتذبذبة، بين يدي المحيطين بي، فريسة سهلة لاحتياجات من أتواصل معهم؟

أريدُ أن أموت، كان جوابي فوراً. في الواقع، كنت نائمة واستيقظتُ؛

كان عليَّ حمل ابني وإعداد فطوره، والاعتناء بالمنزل. سارت الحياة هنا بلا انفعالات، لكن قرأت في كتبي ومجلاتي عن التّقدم والمقاومة... هرعْتُ لفتح النّوافذ ليدخل نور الشّمس ومنظرُ البحر هذه الغرفَ حيث ما تزال الذاكرة تنضح بأحلامٍ متألّقةٍ حلمتُ بها، عندما منَّيْتُ نفسي بطموحات لا نهاية لها كامرأةٍ وكأمّ.

ثمّ ثارتْ سنواتي العشرين عليَّ... لماذا لم أتذوَّق لحظات سعيدة قَطّ؟ لماذا لم أتمكّن من إيجاد الحب، حبٌّ أقوى من الواجب أو الحاجة؟ أردتُ معرفة الجواب من صميم قلبي. لقد استعبدني ذلك الرّجل بضعة أسابيع. لقد اكتشف طريقة الهيمنة على أفكاري... لماذا؟ هل كنتُ وحيدة، وغير محبوبة، ومع ذلك أتأجّجُ بالرّغبة...؟

هو؟ هل كنت أريده هو بذاته فعلاً، ذلك التعيس البائس، والذي كان قبل ليلة فاقداً لكلِّ الشِّعر والسِّحر اللذين أحاطا به، بدا شخصاً في غاية القسوة والوحشيّة؟ شعرتُ فجأة بغضبٍ يتملّكني، لكنّه انزاح سريعاً وأفسح المجال لشعور عميق بالخِزي. لَقد خنتُ مُثُلي العُليا. صَغَّرتُ من حجم ذاتي، من شخصيتي الرائعة كأمٍّ كرّست ذاتها لأسرتها. ارتميْتُ عند قدمي أنانيّ، وغبيّ، وماديّ النّزعة، والذي أراد أن يدوسني كما لو كنت نبتة في طريقه. هل هويتُ فعلاً لهذا المستوى المُتدنّي؟ لا بدّ أنّ رغبتي المجنونة في حياة جديدة قد أعمتني، الحياة التي أردتها كانت خاطئة ومهينة... سأواجه زوجي: أصبحنا متكافئين، رغم أني أكثر حقارة منه، لأنّي أدركُ الآن عمق الهُوّة التي سقطت فيها.

بعد أيام قليلة اصطحبتُ الطّفل ليلعب في حديقة منزل والدي. وفور عودتي لمنزلنا - كانت باقةُ الورد ما تزال على المائدة - حاولتُ بيأس تخمين ما سيكون عليه مستقبلي، ولم أنجح. تفاجأتُ حينما شاهدت الطّبيب قادماً باتّجاه منزلنا. على وجهه نظرة غريبة. لا بدّ أنّه كان يقوم بزيارات مهنية في ذلك الوقت.

وبكلمات موجزة أخبرني عن سبب زيارته. كان في منزل عشيقي

التّافه. لقد اكتشفَتْ زوجتُه إحدى رسائلي في جيبه هذا الصّباح. ملأ الشّك قلبها منذ زمن يسير، ولهذا لم يحزنها اكتشافُ هذا تماماً. كانت تعرف أنّ حياتها الدّنيوية قصيرة، وعلاوة على ذلك، هذه ليست خيانتَه الأولى لها، وليست المرّة الأولى التي تدرك فيها مقدار بغضها له. كل ما أرادته هو الانتقام. ولهذا استدعت الطّبيب – كانت تعرف أنّه صديقي.

تمكن من إقناعها بتسليم الرسالة له، وأن تعِده بعدم الحديث عن الموضوع. سلّمني الرّسالة، واكفهرّ وجهي بسبب هذه الإهانة، فبكيت بكاءً مريراً. كل ما استطاع صديقي الطيِّب فعلَه هو تكرارُ اسمي...

أمسكنا بيدَي بعضنا. بدا أنّ عهد الصداقة الخفيّ هذا يمنح كلَينا السّلوان.

ما الذي يحسبه؟ كيف لي أن أشرح؟

أخبرني بخطته ليبيد الكارثة في مهدها، ووعدني بأن يبذل قصارى جهده لمساعدتي... لن يتوانى في ذلك.

«لكن لا تستقبليه هنا مجدداً. وعد؟».

لم أجبه. وقف، وحينها فقط، وأنا أنظر ليديه من جديد، اختفت الغصّة التي في حنجرتي. تمكّنت من التأتأة بفكرة أنّي لم أرتكب شيئاً يجعله يفقد احترامه لي، ثم بدأت أنتحب.

«أصدِّقُكِ»، قال وهو يشاهدني بأسى.

فكّرتُ تفكيراً عميقاً في الإهانة التي جلبتُها لنفسي يومَيْن متتالين. وعندما وجدتُ أنّ زوجي سيُفسّر الحادثة بأسوأ طريقة ممكنة، فضّلتُ عدم إعلان الثورة. شعرتُ بغضب متزايد لأخبره بنفسي عن محاولتي الفاشلة في العثور على حياة جديدة، حتى يتفهمني ويطردني من المنزل، ويُدرك أنّي لا أنتمي له، وأنّ بإمكاني وهبَ نفسي لرجل آخر، وأنّي سأفعل ذلك يوماً ما. لكنّي كنتُ في فوضى عاطفيّة، ووجدتُ أنّ كلّ إصراري قد خبا، ومعه اختفى إحساسي بهَويّتي الشّخصية. وبقنوط، شعرتُ بوجوب التّنازل عن كل تصوراتي المسبقة عن نفسي وعمّن أكون.

إمّا أنَّ المرأةَ الأخرى لم تستطعْ، أو لم تُرِدْ أصلاً الاحتفاظَ بالسر. لقد أسرّت النّجوى لصاحبتها، فانتشر الخبر المخزي انتشارَ النّار في الهشيم، حتى وصل لسمع زعيم حزب الكهنوت المحلي، وهو رجل يُلقَّب بـ«المحامي الصّغير».

لدى سماع الشائعات الأولى زارني الطّبيب من جديد. أخبرني بضرورة التّصرف كما لو أنّ المسألة برمّتها قذف مشين.

لاحظتُ ازدياد توتره. لقد اعتنى بي. ما سبب اهتمامه؟ لم أستطع إيجاد سبب آنذاك، أي عندما كان المشهد كئيباً... لكنّي لم أنسَ الظّن الذي كوّنته عن علاقته بحماتي. كان منعزلاً مثلي عن هذه البيئة العدوانية، هو الآخر قد استسلم وأهان نفسه. لعلّه اعتبرني ضحيّة أخرى. شعرتُ بعدم وجود شخص أقرب لي من هذا الرّجل اللطيف النّبيل.

عاد في ذلك المساء وطلب التّحدث مع زوجي على انفراد. وضعتُ الطّفل في سريره، واسمتعتُ، كما لو كنتُ في حلم يقظة إلى تمتمة صوتيْهما المتواصلة في الغرفة المجاورة، ثمّ استدعياني للدّخول. قال الطّبيب لزوجي إنّ «المحامي الصّغير» ومن باب المتعة الخاصة قد نشر إشاعات عن تلك المساءات التي قضيناها في منزل قريبنا، وتحديداً عن الحفل الرّاقص الأخير. وكانت الشائعات تستهدفني أنا وامرأةً أخرى. لقد اتّهموها بأنّ لديها عشّاقاً كثيرين، أمّا أنا فلديّ عشيقٌ واحد، لكن كل ما عثروا عليه هو نظرات من النّافذة وخطابات متبادلة...

كان الطبيب في هدوئه المعتاد، بشيمه الكريمة المعتادة، متلهفاً لطمأنتي. فنصح زوج المرأة الأخرى وزوجي أن يطلبا تفسيراً من ذلك الأفّاك النَمَّام. وتلك هي الطّريقة الوحيدة لإيقاف صفاقته فوراً وللأبد، وإعلامه أنّ كلامه لا يخيف أحداً.

شحب وجه زوجي، لكنّه حافظ على رباطة جأشه. وعندما أصبحنا وحيديْن من جديد، تمكّن من منع نفسه من انتقادي على طيشي، ولم يتذمّر من حبّي للتأقلم الاجتماعي حديث العهد. فطبقاً له كانت هذه هي

طريقتي الوحيدة للتباهي بأناقتي وجمالي. وإذا أردتُ السلام في بلدة صغيرة كهذه، فيجب ألّا أتجاوز عتبة باب منزلنا.

لكنّه لم يصدّق قصّة الطّبيب، وتدريجيّاً صارت كلماته لاذعة، وفي منتهى التّنمُّر. كان أحد أولئك الأشخاص المأخوذين بصوتهم الدّاخلي، إذا هبّت عاصفة هوجاء، زادت حدّة انفعالهم. أيقنتُ أنّ ما من شيء سيوقفه الآن. كان في طريقه لاستجواب كامل. شعرتُ بتزايد شكّه والتّلاعب بعقله. لم يتمكن من ضبط نفسه، وطالبني بنسيان كل الإهانات التي أمطرني بها سابقاً، وإخباره في الوقت ذاته أنّي أحبّه وحده. وجهه المعوج أصبح أرجوانيّ اللون، وأوشكت عيناه على الخروج من رأسه. أرعبني. شعرتُ فجأة بأنّي ضئيلة الحجم، مخلوقة ضعيفة ترجو رحمة قوّة عمياء حيوانيّة. عجزتُ عن النّطق وتجمّدت رعباً.

أشعل شبقه غضباً مماثلاً فِيَّ فجأة. لقد حسمت أمري. لماذا أكذب؟ لقد مِلْتُ للرّجل الآخر، ولعلّي أحببته أيضاً! لكنّي رفضته، كما رفضت زوجي، لقد كرهت الاثنيْن... ليطردْني منزله! ليقتلْني! بإمكاني الشعور بتصاعد تبجّحه الحرون، فقفزتُ في غضب عارم. لم يطرح المزيد من الأسئلة عن قصتي، فهدَّدني وهو يكيلُ لي مزيداً من الاتهامات. لم يصدّقني. اتّهمني بأنّي قدّمتُ نفسي للرّجل الآخر، وأنّ عليَّ الاعتراف بذلك.

لا أتذكّر ما حدث بعدها. شاهدتُ نفسي مرميّة على الأرض ككتلة قذارة، ولا يزال بإمكاني سماع سيل إهاناته المتدفق، يغلي كرصاص مصهور. تساءلتُ وأنا مرمية على الأرض الرّخامية عمّا إذا كان سيقتلني. وبهدوء غريب بدأتُ أتساءل إذا - إن كنتُ ميّتة الآن - كانت روحي ستتحد بأي شكل من الأشكال مع روحَيْ أمي وابني.

اضطربتُ بسبب غضبي العقيم عندما - بعد ليلة مرعبة بَصق فيها عليَّ وقَبّلني بالتّبادل، وأصبح جسدي خواءً بلا روح - أدركتُ أنّه كان يحفّزني على الانتحار... «يجب أنْ أقتلكِ بنفسي، لكنّي لا أريد الذّهاب للسّجن... يجب أن يصدِّقوا أنّك الفاعلة...».

ولأيّام وأسابيع تحمّلتُ غضبي المكتوب وبلا طائل. اكتئابٌ متكرّر، وعذابٌ جسديٌّ مروِّع، ثمّ الفزع من الجنون... أحاط الضّباب بكل شيء: لم أعد أميّز بين العذاب المتوالي، والهذيان، والدّهشة. أخبروا والدي عن الحال، وحاول كلٌّ من أبي والطبيب إقناع هذا المجنون عديم المشاعر بالتّغاضي، وتقبّل الموضوع كزلّة عابرة. أمّا خالتي وحماتي فقد خافتا من الفضيحة. أيُّ شيء سيكون أفضل من الفضيحة العلنية! وأحاطوا بي جميعاً كشخصيّات خرجَت من كابوس: صدَّقوا أنّي عاهرة، لكنّهم أرادوا إبقائي حيّة لأنّهم خافوا من مغبّة موتي.

عذّبني كلّ ليلة، وفي كل نهار شعر بتأنيب الضّمير ووعدني بأنّه سيكظم غيظه، وينسى. لعلّه ارتعب عندما شاهد نتيجة فِعله.

في هذه الأثناء، كان من الضّروري أنْ تستمر الحياة، كأنّ شيئاً لم يكن. اضطررتُ للتنزه مع زوجي، وكنّا نصطحب ابننا أحياناً، زهرة يانعة صغيرة عالقة بين والدين يمقتان بعضهما.

أصبحت سمعتي قضيّة رأي عام، مما جعل أعضاء الحزبيْن السياسيّين في البلدة يتّخذان موقفاً مني. حتّى لو كرهني الديمقراطيّون سرّاً، كان عليهم الإطراء عليَّ علناً. لقد زجَرني قِسُّ الطائفة – التي يرأسها المحامي وراهب الأسقفية – وأصرّوا على أنّي امرأةٌ ساقطة. شغلني رد فعل الرّجل الذي تسبّب بكل هذا التّنافر البغيض. زوجته الآن في غاية المرض، فأخذها والداها معهما، لكنّ أكثر من شخص قد لاحظ وجوده أسفل نافذتي. كان باستطاعته اتّخاذ موقف العاشق صراحة، وعندما ألمح الطّبيب إلى إمكانية فعله لذلك، خفتُ.

أجبرتني أختاي ذات يوم على زيارة أمي. مضت الآن أربعة أعوام تقريباً مذ نُقِلَتْ إلى مشفى الطّب النّفسي. لقد فقدتْ ذاكرتها كلّياً، ولم تتعرّف عليَّ حتى. في عينيها لمعانٌ حيويٌّ نادر. تفحَّصَتْ أقمشة فساتيننا، وشرائطنا، وقبّعاتنا كما لو كانت طفلة. أحاديثها عبارة عن كلمات تتكون من مقطع واحد، نطقتها بصوت أجشّ لمْ نألفْه، وهو

ما ميّزها عن طفلٍ يبلغ من العمر عاماً واحداً. اكتسبتْ وزناً إضافيّاً منذ زيارتنا الأخيرة لها، وملامحها الرقيقة النّاعمة قد غاصت الآن تحت وجنتَيها وذقنها الممتلئيْن. على الرّغم من ملامحها المعذّبة، بدا أنّها حيّة وتريد أن تذكّرنا بالإنسانة الرّقيقة والمتزنة التي كانت عليها يوماً ما. بدا أنّها تطلب منا تذكُّرَها.

وأثناء تقبيل شعرها الرّمادي، تهيّأ لي سماع صوت يحذّرني: «لن تقبّلي وجهها مرة أخرى».

مرة أخرى؟... تكرّر التّحذير بلا انقطاع في رأسي، حتّى غنَّيتُه في قلبي على طول طريق العودة في العربة. في الخارج كل شيء عذب ويانع، وأختاي اللتان تكلّمان بعضهما، كانتا نموذجاً للبراءة النّقية مقارنة بمنظر والدتي القاسي.

انتظرني طفلي في المنزل. كان قد بلغ العاميْن، أوه! لقد أحبَّني حبّاً جمّاً بكل ما أوتيَ من قوّة في قلبه الغضّ. كان ذكيّاً، وقويّاً، ووسيماً. عندما أنظر إلى عينيه، أشاهد شيئاً من رقّة أمّي فيهما. أراد أن يخبرني عن مُجريات يومه. تركْنا والدَه وحدَه، لأنّه في مزاج سيّء. وضعتُ الطّفل في السّرير، ثمّ قرّبتُ رأسي من وجنته الدّافئة حتّى أتأكد من استغراقه في النّوم من خلال أنفاسه. ذهبتُ بعدها إلى غرفة الطّعام.

التقى زوجي بالرجل الذي حسب أنّه عشيقي في ذلك اليوم، وتصوّر أنّ الرجل قد ناظره بتهكّم. كان يتوسّط صديقين. لا بدّ أنهما يعرفان كل شيء. ما الذي فكّرا به؟ ما الذي يعرفانه؟ بحق الإله، يجب أن أخبرهم.

كنتُ مستلقية على الأريكة، غير قادرة على الحركة. وصدقاً، لم أسمع ما قاله بوضوح. بدا أن حياتي تنبسط أمامي، رُويت في بضعة مشاهد، وبدا أني أشاهد هذه المأساة من ضّفة أخرى، من خلال عيني شخص آخر. حلقة قصيرة من مسلسل، لا تسرّ مشاهدتها الخاطر. ما الذي سيقوله ابني عندما يعرف عن كل هذا؟ أنا أكيدة من أنّه لو كان قادراً على فهم ما حدث لي في ذلك المساء، فلسوف يرجوني أن أحمله بين

ذراعي وأهرب معه ليلاً بعيداً، لنواجه الجوع إذا استدعى ذلك، نواجه كلّاً من الجوع والموت إذا قُدّر لنا ذلك.

«أنتِ صامتة. لماذا لا تتكلّمين؟ ماذا تخفين عني؟ هل ستجُرّينا إلى ذلك المستنقع من جديد؟ أخبريني، أخبريني».

ووجدتُني مَلقيّة على الأرض من جديد. ركلَني مرّةً، ومرّتين، وثلاثاً. سمعته يكرّرُ إهاناته الفاحشة، متبوعة بتهديد ووعيد.

وأنا ممدَّدةٌ على البلاط، شعرتُ براحة غيبوبة رغم أنّ عينيّ مفتوحتان. غادر الغرفة، وصفق الباب بعد أنْ وجّه لي شتيمة أخرى.

هل أيقظ الطّفل؟

لم يفعل. تمكّنتُ أخيراً من جرّ نفسي إلى الغرفة المظلمة حيث سرير الطّفل: «أوه، طفلي، يا طفلي. لن تراك أمّك من جديد... عليها فعل ذلك - لا يمكنها أن تعيش، أنهكتها الحياة، ولا تريدك أن تعاني... ولأنّ دماءها تسري في دمائك، فسوف تصبح أقوى، وسوف تنتصر... وربما يخبرك شخص يوماً ما أنّ أمّك أحبّتك كما لم تحبّ أيَّ شخص. أنّها لم تكن لعوباً، وأنّ حلمها هو أن تكبر بسعادة وصلاح...».

عدتُ إلى غرفة الطعام. كانت هناك قارورة «لودانوم» ممتلئة تقريباً. تناولتُ ثلثيها، حتى توقّفت حنجرتي عن البلع وحاولت تقيؤ السّائل المرّ، ثمّ استلقيتُ على الأريكة. وخلال وقت قصير شعرتُ بالنّعاس وبدأ جسدي بالاسترخاء...

عندما عاد زوجي بعد ساعة، اعتقد أنّي أدّعي النّوم، فحاول إساءة معاملتي من جديد، أقلّ عنفاً من قبل. بإمكاني سماع صوته من بعيد. لا بدّ أنّه قد شاهد القارورة على المائدة. مال عليَّ، عندما أدرك ما حدث. أمسك بالقارورة التي تحوي بقية السّم، رماها في الشّارع، وبغباء رحّبتُ بفكرة عدم وجود شيء سينقذني الآن.

حضرت امرأتان. أشعلتْ خالتي النّار وسخّنت شيئاً من الماء، وتلتْ

حماتي التّعويذات عليَّ... ثمّ جاءني زوجي وبكى عند قدمي. شاهدتُ كل شيء من وراء حجاب، دون أنْ أشعر بألم. كنتُ على استعداد تقريباً لتصديق أنّي قد متّ فعلاً وروحي كانت تشاهد آخر اختلاجات جسدي الفاني.

هزّتني امرأة وناولتني ماء، لكنّي لم أتمكن من بلعه، وأعطتني جزءاً من ورقة: «اكتُبي على الأقل أنّك الفاعلة، حتى لا تسبّبي مزيداً من المتاعب لزوجك الكلب!».

من ذا الذي يعلم أنّ ابتسامة الشفقة التي ارتسمت في عقلي، قد ارتسمت على شفتَيَّ أيضاً؟ وضعَتْ القلمَ بين أصابعي، لكنّي لم أتمكن من مسكه. حينها وصل الطبيب، وتمكّنتُ من الإشارة بالرّفض. سيمسك بالقارورة، بالتأكيد هو على الأقل، من يعرف الحقيقة، سيتركني وشأني.

لكنّ يدَه القويّة الحازمة أمسكت رأسي، وأجبرتني على العودة للحياة.

الفصل الثّاني

-10-

تَمنّي إنهاءَ حياتي قرارٌ هيّن، رغم أنّي اتّخذتُه في لحظة اضطراب عظيم. بدا أنّ تصرفي استجابة لأمر بعيد، بدل أن يكون لحاجة فوريّة وعفوّية. كان عليَّ إنهاء حياتي. المرأة التي كُنتها قبل الحادثة يجب أن تموت، لقد علقت في موقف لا مناصَ منه إلّا بموت سريع.

منذ متى وهذا الحزن يَبْني نفسه فِيَّ؟ حتماً منذ اليوم الذي زلزل فيه الرجل الذي تزوّجته لاحقاً حياتي، وتركني عُرضة لعوامل الصّدأ التي أوهنَتْني تدريجيّاً: بدنيّاً وفكريّاً. لكنّي لم أكن أُدرك تعاظم الكرب النّفسي حتى اللحظة الأخيرة. كل ما أعرفه هو أنّي منهكة ومرعوبة... هزيمتي الأخيرة لم تكن متوقّعة، ومع ذلك بدتْ منطقيّة. لم أشعر بأيِّ تمرّد. ولم أُفاجأ أصلاً. أُغلقَتْ الدائرة، وقُضيَ الأمر.

وعلى الضّفة الأخرى... تمكّنت من مشاهدة نفسي والعالم بعينَين جديدتيْن كلّيّاً، وكأنّي قد ولدتُ مرّة أخرى لحظة محاولة قتل نفسي. عشتُ طفولتي من جديد؛ كنتُ طفلةً لأسابيع، وكطفلةٍ فقط استمتعت بوجودي.

أشعّة الشّمس، وقِمَمُ الأشجار، يمكن مشاهدتُها من كرسيِّي. أمّا جمال ابني، فمنحني متعةً هائلة. أعجبني كل ما هو لامع، ومزهر، ويثري حواسي، كل ما هو متناغم في طور العيش. لم تسجّل ذاكرتي شيئاً. كنتُ أعلم أني حاولت القضاء على حياتي، كنتُ أعلم أنّ كل شيء حولي يتغيّر وأنّ عليَّ مواصلة العيش مرّة أخرى في نهاية المطاف. شاهدتُ

تعاقب الشّمس والقمر المستمر، ولم أشعر بخوف أو أمل، ولا حقد ولا ريبة. كنتُ شديدة التّفاؤل معظم الوقت، كما لو كنتُ شبه غائبة عن الوعي، سلّمتُ نفسي للمستقبل. ما يزال بإمكاني تذوّق طعم السّم المُرّ في فمي، أمّا رأسي فهو في وهن شديد، أقل صوت يسمع له دويّ، يمنعني عن فهم ما يحدث حولي بوضوح.

حتى الآن - ولحسن الحظ - لم أعانِ من أيِّ ضررٍ بدنيّ جسيم. أُجبرتُ على ملازمة السّرير بضعة أسابيع. الجميع بما فيهم والدي، لم يُحاطوا علماً بما حدث. استمر العالم الخارجي على منواله الطّبيعي، وبعد وقت قصير عدتُ لأعمالي المنزليّة. لم أهمل دوري مع ابني في كل تطوّراته. نظرتُ أحياناً في المرآة ولاحظت أنّ وجهي قد غيّره المرض، وأصبح أكثر إرهاقاً من ذي قبل.

لا أستطيع تذكّر أي تواصل بيني وبين زوجي خلال تلك الأيام الأولى. لا بدّ أنّ هدوئي إزاء الموت قد أقلقه، وجد تبريره صعباً قطعاً. في الواقع، بدا أنّ موقفي قد سحقه. لكن ما الذي شعره به فعلاً؟ أكان تأنيب ضميره؟ أم خوفٌ؟ أم ذلٌّ؟ أم غَيرة؟ أيّا كان شعوره، بالنّسبة له، كان كل شيء مشمولاً في تجربة واحدة مؤلمة، ذات ألم سابغ، تجسّدت أساساً على شكل معاناة جسديّة، جعلني أتأرجح بين نقيضين متطرفين من الإحباط إلى الشغف. لعلّ الطّبيب قد لفت انتباهه إلى خطورة إصابتي بالجنون. لا بدّ أنّ رؤيته للفوضى التي سيحدثها موتي، جعلته يدرك أخيراً أنّي كنتُ مركز منزلنا، أنّي خلقته، وتركت أثراً لا يمكن إزالته. بدا أنّه بدأ التّفكير... لكن بماذا يفكّر؟ هل أدرك ضآلة مساهمته في علاقتنا؟ هل أدرك أنّ أحلامي كلّها قد تشظّت خلال السّنوات الأربع من زواجنا؟ هل كان يعي أنّ لي - كإنسانة ما زالت تنمو - احتياجاتٍ خاصّة؟ وهل ندم على حماقته في تجاهل كل الإشارات الدّالة على حزني؟ لعلّه أصبح أكثر دراية بصفاتي الخيّرة في اللحظة ذاتها التي شعر فيها بالغضب على ما اعتبره جريمتي. كان ما يزال مقتنعاً حرفيّاً بأنّه على صواب، لكنّي بيّنتُ

له على الأقل أنّ بإمكاني أن أكون حازمة، بل وحتّى مأساويّة، وبدا أيضاً - بشكل لا يمكن توضيحه - أنّي قد جذبته إليَّ مرّة أخرى.

لاحظتُ حينذاك أنّه بات يشتهي جسدي أكثر من ذي قبل، وقد أرعبني هذا. لعلّه لم يفهم كرهي الدّفين للجنس بالطريقة التي هتك فيها عرضي في مراهقتي، ولا بدّ أنّه قد زجر نفسه لرغبته في الإفراط فيه وقلّة تعقّله بعد نضجي. لا بدّ أنّه أصبح أكثر وعياً بأنّه لم يتمكن من إثارتي كامرأة أو إيصالي للنشوة بمتعة حيّة.

شعر بالعزلة التّامة في اكتئابه، مقتنعاً أنّ ما من شخص يمكن التّعرف على أعماقه. تعاطفت أمّه بقدر ضئيل، أمّا الطبيب - الصّابر - فشعر بالإهانة؛ انتحب أحياناً واعترف لي بتعاسته.

لقد توقّف عن ضربي. جثا على ركبتيه أمامي، وهو يرجو مسامحته على لؤمه وبخله، ولأنّه قادني إلى ذلك التّصرف المشين. «لا تموتي. أرجوكِ! من أجل ابننا!». تحوّل من رجل معدوم المشاعر إلى رجل ذي مشاعر رقيقة. توسُّله فَطَرَ القلب. مشاهدته وهو يبكي، جعلتني أبكي أيضاً، كطفلة، من باب التّعاطف. كنتُ أعي مواطن إخفاقي، فاعتبرتُه كرفيق في البلوى. مثلي هو؛ دُميةٌ وضحيةُ قَدَرٍ أعمى. أخبرت نفسي دون كثير من التّوكيد، أنّنا بحاجة إلى بعضنا، ويجب أن يعتمد أحدنا على الآخر إذا كنّا سنعيد تشييد حياتنا، حتى لو قمنا بذلك من أجل الطفل فقط.

ثمّ حدث شيء غريب؛ بدأ زوجي يستجوبني من جديد ذات صباح بشأن الحادثة التي سببت تعاسة جمّة لكلينا. بصبر وخلال دقيقة أعدتُ سرد القصّة من جديد بالتّفاصيل ذاتها التي أخبرته إيّاها مرّات عدّة. وأثناء فعل ذلك، أدركتُ أنّه كان يحاول المحافظة على هدوئه والتّفكير فيها. وبعد إجابتي كُلّها، عمّ المكان صمتٌ مطبقٌ، ثمّ أخذ نفساً عميقاً، وأيقنتُ أنّه كان يتمتّع بتحقير مدسوس. بدا واضحاً أنّه يتعمّد إيذائي في كل تحقيق. لم يصدق أي كلمة نطقتُ بها: لم يتمكن من الاستماع لي للنهاية أو التّحكم بغضبه وغيرته المجنونة قَطّ سابقاً... أمّا الآن، فقد

تقلّصت كل الحادثة في عقله إلى لقاء عابر يمكن نسيانه. بإمكاني رؤية أنّه بدأ يشعر بأهميته أكثر من الرّجل الآخر، أنّه كان يستمتع بإهانة الآخر، وهو ممتنٌّ لصدقي معه. جعلته يطمئن إليَّ أكثر، زادت ثقته لأنّي مرتبطة به هو وحده، لأنّي حبيبته، وزوجته.

حلّ حزيران اللاهب، وحوّل الحقول إلى اللون الذهبي. لا بدّ أن البحر كان يتلألأ بمساحات هائلة، كحلم مبهر. ومع ذلك لم أشاهده في ذلك العام، لأنّي لا أغادر المنزل إلا مساءً، حينما يصطحبني زوجي أحياناً في نزهات طويلة على طول سكة الحديد المهجورة. ورغم كل شيء، كان ما يزال يغار مني: بإمكاني التّجول بالمنزل صباحاً، لأنّ خادمتنا موجودة، لكنّه لم يسمح لي بالدّخول لأي غرفة نوافذها تطل على الشّارع. وبعد الغداء، وخشية زيارة أحدٍ للمنزل، يحبسني في غرفة النّوم الدافئة والمبعثرة، والمطلة على حديقتنا الجرداء. وفي الغرفة أجلس مع ابني حتى السّادسة، موعد عودة زوجي إلى المنزل.

نام ابني لساعة وساعتين في قيلولة يومياً. أطرّز حينها عند نافذة نصف مفتوحة، وجدتُ المتعة أحياناً في اللهو مع ضوء الشّمس على يدي الهزيلتيْن وأنا أسحب خيط الكتّان. لم يزعجني سجني إطلاقاً. بل على العكس، استمتعتُ متعة حسيّة تقريباً في إبطال تمرّدي من خلال عبوديّة شرقية. أخبرتُ نفسي أيضاً أنّي كنت ما زلتُ أرتاح، ببساطة أستجمع قواي. شعرتُ بالخضوع والهدوء وبأسف متزايد على سجّاني. حب؟ لقد منّيتُهُ أنّي قد أحبه في النّهاية، وبسهولة، سمح لنفسه بتصديق ذلك. عندما طوّقني بذراعه القويّة، علمتُ أنّه لن يتملّكني جنسيّاً مرّة أخرى نهائياً. أردتُ تعويضه بطرق أخرى، وعلى أي حال، بتُّ متيقنة أن المرور بعذاب الحب عوضاً عن هنائه مقدَّرٌ لي.

رضي زوجي عن لين جانبي. استرجاعه للماضي قد أخذ الآن شكل استجواب بخصوص النّواحي التي شعرتُ فيها بالحرمان. تقبّل مسؤوليته عن مشاعري برحابة صدر، ووجدتُ أنّ إجابته عن أسئلته

مؤلمة. أردتُ أنْ أحميه، لكنّي شعرتُ أحياناً بحاجة لا يمكن مقاومتها للسّلام. رأيتُ أنّ أحاديثنا تتطلّب مجهوداً أكبر منه. ثقتي به كانت ثقة امرأة متعثّرة تحاول العثور على طريقها، لاستعادة استقلالي وأهميّتي الجوهريّة ببطء، ثقة منبعها روح شقّت طريقها - بتردّد - ونالت استقلالها وأهميتها ببطء. ثقة صُنعت بألم، بهشاشة. ذكرياتٌ طواها ضباب الحياة. حياةٌ شعرت أنّي قد خسرتها فعلاً. وأثناء حديثي، فقد وجهي تدريجيّاً تعبيراتِ الخضوع اللطيف وأصبحَ قناعاً جامداً له عينان خاويتان تركّزان على هدفٍ محدّد - لعلّه الماضي، أو لعلّه المستقبل. وكان عليَّ بذل جهد كبير لأسحب نفسي من ذلك الانحطاط المؤقت، والذي لم أفهم منه إلّا الشّيء اليسير. حاولتُ توجيههُ إلى لحظات بهيجةٍ سابقة، انغمس في ظنونه، بعبوس يشبه تجهّم طفل يحاول فهم شيء ذي أهميّة عُظمى والذي أدهشه وجعله يدرك حجم عجزه.

وجدنا شيئاً من السّلوان في ابننا، والذي جعلنا نصدّق وعد السّلام. لم يمنحني السعادة غيره. شعرتُ بالأمان في وجوده. كان على الأقل سعيداً، منحني سعادة حقيقيّة على الأقل. ورغم أنّي لم أخبره بذلك، تذكرتُ على الدّوام في ليالي الاكتئاب المستمر خَلق هذا الطفل في جسدي، ثمّ تخيّلته وحيداً في العالم، وهو يجهل أمّه. ذكّرتُ نفسي باستمرار أنّي لم أفِ بوعد الالتزام معه. أعيش الآن له فقط، وبسببه سأعيش وقتاً أطول لأكون أمّاً مميزة... أمّاً أفضل بكل ما تعنيه الكلمة. قد يكون هذا هو حلمي الوحيد. ومع ذلك شعرتُ بالثّقة والهدوء، كلّما مِلتُ على سريره لأشاهده أثناء نومه. أدركتُ جمال تلك الملامح البديعة، التي توحي بشخصية قويّة. طلبت الصّفح منه، ولم أشعر بالعار لفعل ذلك وأنا أنظر إليه بصمت. لعلّ ثبات حبّي له، وكونه الأسمى في عقلي حتى في أكثر لحظاتي جنوناً، جعلاني أشعر باستحقاقي لمباركة عقله اللاواعي، وإعادة تأكيد وثاقنا البيولوجي. لكنّي آمنتُ بحقيقة شعورنا بذات الأحاسيس، بما أنّ جسده خرج من جسدي، وأنّ من

المقدّر لحياته أنْ تعكس حياتي. يجب أن نعاني سويّة، لنحظى بحياة أفضل.

وأدركتُ لأوّل مرّة تأثير سلامتي على ابني. أصبحت مشاعري نحوه أعمق وأبسط من ذي قبل: لقد فقدت سماتها المَرَضيّة والطّفوليّة. كرّرت اسمه لنفسي، كما لو كان اسمُه رُقْية للحاضر، ورمزاً للمستقبل؛ في حروف اسمه القليلة تكمن كل الآمال والتّغيير.

ولبعض الوقت ظلّ الحال في المنزل مزعجاً وعلى وتيرة واحدة. أختاي، لم تعرفا شيئاً عمّا حدث، فغادرتا في زيارة قصيرة لعمّنا في تورين. سُجنتُ في الطّابق العُلوي بذريعة حمايتي من الجيران الخبيثين أو الفضوليين. ولحسن الطّالع ابتعدَت أمُّه وأخته عنّي. زارني الطّبيب أحياناً دقائق معدودات صباحاً، لكنّنا لم نتحدّث بإسهاب كما فعلنا سابقاً. كان قلقاً على صحّتي. وبين الحين والآخر، أشرتُ - بابتسامة مواربة - إلى عزلي المستمر، فكان يعبس ويتقوّس ظهره. ثمّ وبمجهود واضح، يقلّل من شأن المشكلة، ويحثّني على ألّا أسمح لها بسحقي، وأن أطلب إجازة، أو أنتظر أيّاماً أفضل. لاعَب الطّفل وبدا مرتاحاً، لأنّه ما زال نشيطاً ومعافىً صحيّاً رغم انعدام الهواء النّقي وقلّة الحركة. بدا في كل مرة زارني فيها أكثر شفقةً وعطفاً عليَّ، وكنتُ ممتنة لزياراته. على الأقل هناك من يُحضر معه صدىً منخفضَ الرّنين من ذلك العالم الذي انقطعتُ عنه. جعلني أشعر رغماً عني - ورغماً عن أولئك الأشخاص الذين آذوني بشدّة - بالرّاحة لوجوده حولي.

منه اكتشفتُ أنّ عواقب طيشي لم تنتَهِ بعد. أغلب النّاس - في الواقع - لم يصدّقوا الاتهامات. اعتقد أغلبهم أن المسألة لا تتجاوز ملاطفة بسيطة، انتهت تقريباً قبل أن تبدأ، لكنّ الفريق المعارض هوّل الموضوع. كان عِرضي بين أيديهم، ويجب أن يُصان.

وطبقاً للأعراف فإنّ شرفي هو مسؤولية زوجي. لكنّ الرّجل الآخر بدأ يتصرّف كما لو أنّ شرفه في خطر مباشر أيضاً، وحاول التّشاجر حتى

يبرز مروءته – وبلا شك ليعطي انطباعاً أنّ لديه أسبابَه للدفاع عنّي...

كنتُ على علم بالفساد المحلّي والنّفاق، فلم أنزعج انزعاجاً شديداً من هذه الصورة المضحكة عن الأخلاق بسبب ما كشَفَتْه عن زوجي. لأنّه هو الآخر آمن بضرورة النّزال الجسدي – لا من أجلي بل من أجل كرامته التي جُرحت، لكن العواقب أفزعته.

فعل الطبيب كل ما بوسعه ليجد مخرجاً. وبعد مفاوضات مختلفة أقنع المحامي بمنح مؤيدي والدي وثيقة مفصّلة ومفرحة كُتب فيها أنّي «جديرة بالاحترام». بعد أن حوّلوا سمعتي لشأن عام، قبلها زوجي، والفريقان راضيان أتمّ الرّضى.

لم أرضَ عن الاتّفاق. لكنّ التّضحية فِيَّ علناً قد انتهت، وانتهى معها الهوان، أنهت إهاناتهم وأكاذيبهم. برز كلّ شيء للسطح من جديد: جرّبتُ الذّل وعايشتُ الإهانة، وجُبْنَ الرّوح، والشّهوة. جزءٌ ساخر وجزءٌ مخيف عاد للذّاكرة المرتعبة التي تتوق للسّلام. كان هذه الاتّفاق بين الفريقيْن بمثابة ذروة يوم طويل من الفزع. نهار ساطع على أرضٍ يباب. لم يعد بإمكاني خداعُ نفسي فورَ معرفتي بها. كنت في أسفل دركات العار، مسلوبة الكرامة حرفيّاً. ولم أسمح لنفسي برفاهيّة خلقِ المسوّغات لمن اضطهدني. حُكم عليَّ من الآن فصاعداً بحَمْلِ وِزْري وَحدي. وبدأتُ أرى ابني كضحيّةٍ هو الآخر، مُحاطاً بسجينيْن مُدانيْن. هل سينقذه أحد، ويأخذه بعيداً إلى مكان يتعلّم فيه أنّه إنسانٌ حقيقي وحرّ؟

-11-

وفور انتهاء الاتفاق المبغوض، تنفّس زوجي الصّعداء واختفى هوسه السّابق بعلاقتنا. ما زال يعيق حريّتي من خلال إبقائي في المنزل، وقفل الباب عليَّ في غرفتنا كلّ مساء، وعدّ أوراق الدّفتر، ورفض كل زوّاري عدا أسرتي، والطّبيب، والخادمة. فعل كل هذا وهو يدّعي تمتُّعي بحرّيتي كاملةً، وكنت مغمومةً حرفيّاً، لكنّي ضحكت على براعة ذرائعه. حاذرت من إقلاقه، وبدأت حتى بتوقّع طلباته - رغم أنّ حدوث ذلك في أوقات سابقة كان بدافع إصراري على الاستئثار بشيء من السّلام لطفلي ولنفسي.

وبات من جديد رجلاً بليداً، وغبيّاً، بلا هموم تذكّره بالماضي. في الواقع، كان مصراً على أن يحظى بحياة سهلة، وغير معقّدة لدرجة أنّه كان مستعداً لاعتبار نفسه محظوظاً لما حدث، لأنه جعلني مهزومة وخاضعة لاحتياجاته.

ودونما امتعاض، راقبته وهو يعود لأسلوبه القديم: شعرتُ منذ تلك اللحظة فصاعداً أني لن أتمكن من فعل شيء له أو لي، ولم أعد أتوقّع شيئاً منه.

ومع ذلك بدت عزلتي طويلة. لم يتكلم أحد معي قط. وفقدتُ كل أمل ورجاء. وعندما جاء الخلاص، جاءني على هيئة كتاب.

كان أوّل كتاب أقرأه منذ أشهر. أرسله والدي لي. أضحى لقاؤنا نادراً. أظنّه كان يشعر بالمرارة لأنّي لم أطلعه على موقفي ورفضتُ اللجوء

لمنزله، عندما حثّني على فعل ذلك، عندما كان زوجي يعاملني بسوء. كتابٌ جديدٌ كتبه باحث شابٌّ في علم الاجتماع، والذي كوّن له صيتاً جميلاً في أنحاء أوروبا. فيه توصيف لأسفاره في بلاد حديثة وناشئة، وببلاغة وحيوية حفّز القرّاء المشكّكين والمنفصلين على التّفكير بجدّية في المشكلات المتصاعدة بسبب الاختلافات بين الحضارات المتنوعة. امتلكَ بداهة نادرة وقدرة رائعة على التّوليف، والتي جعلت هذا المنجز صادقاً وملهماً بشكل استثنائي، كما أبهرتني كذلك إنسانيّته التي أشرقت من كل صفحة.

هل كتبتُ قصيدة تحتفل بأحاسيسي أو خطاباً عن التّصوف عند هذه المرحلة، لتأخذ مجريات حياتي منحنى مغايراً، أم أنّي رفضتُ مشاعري، وسقطتُ في اكتئاب لا شفاء منه؟

لم تبدُ مشاعري في ذلك الوقت ثورة: لم أشعر بالإلهام، ولم أنتحب وأنا أقرؤه. حجّته توازي أفكاراً فكرت بها مذ كنتُ طفلة. لكنّ هذا الكتاب تحديداً لم يقذفني في مجهول بدا في منتهى الإبهاج، بل ببراعة وإلحاح كان يقودني إلى الخلف، دون أن أعي ذلك، إلى مناطق في عقلي احتشدت فيها أفكارٌ لم أستكشفها تماماً، ذكّرتني من جديد بثروة فكريّة أهملتها زمناً طويلاً. أمضيت بعدها ساعات السّجن في المطالعة، وعند جلوسي والتّفكير فيما قرأت أثناء لعب ابني، ازداد إعجابي بنفسي ببطء. بدأت أتذكر نقاشات من الماضي، من طفولتي، ثمّ أضفت عليها تأمّلاتي وأفكاري إلى جانب أفكار الكاتب، وشاركت بلا وعي في تشييد عالم مثّقف. وتدريجيّاً صرف انغماسي الجديد في هذا المنجز المكتوب كل أوهامي الحاليّة، وكل اكتئابي، إلى الوراء، وبدأت أصنع من العزلة قيمة، وشعرتُ أنّها حمتني على الأقل من حقائق تافهة ذكّرتني ببؤس الحياة.

عندما تغلّبت طيبة زوجي على غيرته واصطحبني معه للتنزّه في أماكن عامّة، شعرتُ باشمئزاز كبير من الطّريقة التي ينظر فيها الناس إلي. كما خشيت التقاءنا بالرّجل الآخر، فتكون ردّة فعل زوجي هي معاملتي

بالوحشية البدائيّة السّابقة ذاتها. شاهدتُ أحياناً الجسد الذي أعرفه جيّداً من بعيد، وحده أو مع رفاقه، فعدت أدراجي - كما فعل زوجي، والذي شاهده بقلق مثلي. شعرتُ أنّي جبانة. لماذا لم أعتبر وجوده غير مرتبط بي نهائيّاً؟ لماذا لم أكرهه كليّاً. كنتُ أرتعب بمجرد التّفكير فيه، كما لو كان ميْتاً، ويقربني ومن حولي من الموت.

وشعرت بذات الخوف مع أختَيَّ. كانتا نابضتَيْن بالحياة، لكن فكرة رأيهما فِيَّ، أو أن يعيد الناس القصة بعد سنوات فتسمعانها، عذّبتني. أكبرُهما كانت في السّابعة عشرة. تُواعِدُ مهندساً شاباً منذ بضعة أشهر جاء من بلدة مجاورة. كان يميل للمزاجيّة، وهو أحد أولئك الذين ولدوا ليكافحوا في الحياة. كان ذكيّاً، ورأسه محشوٌّ بأفكار حداثيّة. تردّدت أختي من توطيد علاقتها به. نصحتُها بالتّفكير المتمعِّن والطّويل قبل أن تقرّر مواعدتَه. وبعد فترةٍ أدركَت أنّها لا تحبّه وأخبرتْ والدي بذلك، وأضافتْ أنّها تنوي التّأنّي حتّى يكوّن نفسه قبل الزواج. لم يسعد والدي بالنّبأ، لكن لم يعترض، بما أنّ خطّة الزّواج قد تأخّرتْ.

وهكذا راسلا بعضهما، وتنزّها معاً، وبدأا يتعرفان على بعضهما بشكل أفضل. شغفه الأوّلي بها غدا شغفاً حقيقيّاً ورغبة في حمايتها، أمّا إعجابها به فغدا عِرفاناً وإخلاصاً. علمهُما أنّ كلّاً منهما يحترم الآخر جعلهما يثقان ثقةً عمياء بمستقبلهما السّعيد. كانت علاقتهما أشبه بنسمة هواء منعش في ذلك المنزل الكئيب. تأثير الشّاب انتقل للآخرين، وكان له تأثير صحّي عليهم، وأصبحت أنا كذلك أكثر فرحاً عند رؤيته. ساندتُ العاشقَيْن من أعماق قلبي: دفءُ عواطفهما ذكّرني بآمال قديمة استحالَ تحقيقُها.

وعند اقتراب ذلك الصيف من نهايته قرّر زوجي اصطحابنا في عطلة. أراد الاسترخاء والاستمتاع بوقته، وتمنّى أن تعيد لي الرحلة نشاطي وتفيد صحّة ابني. ذهبنا إلى فينيسيا، لكن رغم أنّ جمالها يمكن أنْ يهدِّئ ويطمئن أكثر الزّوار اكتئاباً، إلّا أنّها لم تجذبنا وأمضينا أسبوعاً كئيباً هناك.

وبسبب الطّفل لم نتمكن من استكشاف الكنائس والمتاحف كما شئت. وحتى لو تمكنّا من ذلك، فلن يكون زوجي رفيقاً أنيساً؛ لم يكن يعرف شيئاً عن الفن، ولم يملك تقديراً غريزياً له كذلك، ولهذا كان سعى دائماً لإفساد استمتاعي العفوي. كنتُ ممتنّة للمغادرة. لكن حتى عندما عدنا إلى تايرول، حيث قررنا قضاء بقية الإجازة، لم أتمكن من خلع اكتئابي.

شُيّد فندقنا في موقع مذهل: وادٍ ضيّقٌ مكسوٌّ بأشجار التّنوب والصّنوبر، ومحاطٌ بقمم جبليّة جليديّة، حيث الهواء مشبعٌ برطوبة شلّالاتٍ متساقطة. هذا المنظر الطّبيعي بروائح الرّيف المميّزة، والأصوات النّقيّة التي يرجع صداها في الوادي، استحضرت في ذهني صوراً متدفّقة من طفولتي. هذه الصّور كانت مدفونة في ذاكرتي أمداً طويلاً! لو أنّ لي فقط أنْ أبقى الآن، وحدي مع ابني في هذه الغابات! أربّيه بين أحضان الطّبيعة، وأتأكّد من أنّ ذكرياتٍ جميلةً عن طفولته ستغمرُه في حياته المستقبليّة، ولن تكون ذكرياتُه مؤلمةً كتجربتي! سيكون في حياته شيءٌ من الوحدة، لكنّه سيكون ضيف شرف في عالم مضياف.

كان في منتهى السّعادة وهو يهرول بشجاعة على الدّروب العشبيّة، ويصيح على الأبقار المُعلَّقة على رقابها أجراسٌ فضيّة. أحبَّه كلُّ مَن في الفندق، قبَّلوه كما لو كان زهرة نادرة أرادوا شمّ أريجها. قدّروا ندرته، فهو قد جاءهم من جزءٍ في إيطاليا لن يتمكّن هؤلاء الشّماليُّون المتحفِّظون والسوداويُّون من تحديده على الخريطة قَطّ.

لم يسبق لزوجي الذّهاب إلى الجبال من قبل فأخذتْه بهجةٌ مصحوبةٌ بصيحات تعجّب وتعبيرات ساذجة بما شاهده. وباعتداده المعتاد بنفسه سُرّ كثيراً لحسن تدبيره واقتصاده في مصروفنا. وأرادني أنْ أُعرب له عن امتناني، وشعر بغضب وإحباط كلّما لاحظ حزني... أي نوع من النساء أنا؟ ألا يرضيني شيء؟ ندم فوراً، وحاول إقناعي للتخطيط لما سأفعله عندما نعود للمنزل. هل ستعينني الكتابة على ذاتي؟ لا شكّ أنّ هذا المنظر المهيب سيعينني.

أصخت السّمع له بانزعاج. بدا كغريبٍ، يتحدّث عن الصّحة ويسدي النصيحة دون معرفة شيء عنّي. ولم أعرف كذلك ما أحتاجه في تلك اللحظة. كنت ببساطة أعي انسحابي إلى عزلتي المتزايدة. لعلّ من واجبي مشاركة مشاعري مع زوجي، أنْ أكون كتاباً مفتوحاً معه، لكنّي كنت أعلم أنّ عمق مشاعري لا يمكن الوصول إليه. لم يكن قادراً على مساعدتي في سبر أغوار ما كان يحدث داخلي، رغم أنّه أراد ذلك. كنت أرتعش داخليّاً... كيف لي أنْ أنقل أو أعبّر عن تلك الأسابيع؟ أحياناً، أثناء المشي، ينتابنا انطباعٌ جَلِيٌّ أنّنا قضيْنا ليلةً مليئة بأحلام وخيالات تفصيليّة. وفي اللحظات الهاربة بين النّوم واليقظة عشنا حياة داخليّة عميقة بانفصال. لكن لا يمكننا إعادة تكوين بصيرتَيْنا ولا يمكننا إعادة خلق هواجسنا الليليّة. ولم ندرك إلّا فيما بعد، أننا قد مررنا بتحذير شديد عن مستقبلنا ويجب ألّا تفاجِئنا هذه السّلوكيات الحديثة.

آخر عصر أمضيناه في الجبال ممهور في عين عقلي بطريقة غريبة. أتذكّر الحالة التي أتواصل فيها مع الأماكن التي أزورها: تمنح مشاعري شكلاً للمشهد، وهذا ما أفعله للذكرى – شخصيات المكان ذاته تساهم فقط في الإطار الخارجي لمشاعري في وقت ما. ما يزال بإمكاني رؤية نفسي على الطّريق العريض الذي سنسلكه في اليوم التّالي للرحلة الطّويلة نزولاً إلى سكة القطار حيث يلتقي بنهر بيناكو. ورغم أنّ النّهار كان رماديّاً، ورطباً، إلّا أنّ كلّ صوتٍ يمكن سماعه بوضوح منقطع النّظير. بدا كل شيء أكبر ممّا كان عليه، عظيماً، وجسيماً. وأثناء مشينا بتروٍّ تحت السّماء الرّمادية المهيبة شعرتُ أنّنا مجرّدُ نقاطٍ صغيرة، مصيرها الأفول، وتحميهما الأرض، أمّنا الصّارمة والمحبّة. ولأول مرّة في حياتي أمدّ ذراعي لهذا الأرض كابنة وفيّة. ذاب كلٌّ من الزّمن والفراغ، وحملاني بعيداً في مداهما. كنتُ بشريّةً في حالة عبور، بلا اعتراض، لكنّي أملكُ هدفاً على الأقل. لربما استعبدتْني القوانين، لكنّي أملك عزيمة ثائرة ستكسرها لخلق حياة أخرى... أفضل.

في ذلك اليوم تحديداً كنتُ قد أنهيتُ قراءتي الثّانيّة للكتاب الذي سلب لُبّي لأسابيع، وكان رفيقي الدّائم والحصيف خلال مكوثي بين الجبال. في لحظة التّجلي هذه، انصهر إحساسان غريبان فِيَّ - حفّز أحدهما أفكاراً تطوّرت خلال قراءة الكتاب، والآخر استدعاه المنظر الطبيعي الذي كنت سأغادره. لقد ولّدا حماسة غامضة لا يختبرها إلا المؤمنون المخلِّصون أو أعظم العشاق - أولئك الذين يعيشون حياة أعلى وأسمى من ذواتهم. أنا، وبكل معاناتي، اختفيت. كل ما استطعت رؤيته هو الجمال في مجهود الإنسان لخلق شيء جديد داخل الطبيعة العظمى.

ثملت روحي في التّجربة وحفظتها يقظتي. ورغم أنّ حالة التّجلي قد لا تكون مهولة، إلا أنّ تأثيرها عليَّ كان أشبه بتأثير دفءِ الشّمس على بذورٍ تتبرعم تحت التربة. إنّها تشعر بالدفء والخوف وتريد كل الأشعة العظيمة.

أخبرني الطّبيب عندما وصلنا للمنزل أنّ زوجة الرجل الآخر قد فارقت الحياة، وأنّه قد ترك ابنه في كنف والدَيْها وسافر إلى أمريكا - بحثاً عن مغامرة جديدة. ورغم عدم امتلاكه لخطّة محددة، إلّا أنّه كان مصراً على عدم العودة. كان ذلك آخر ما سمعته عنه. غادر الطّبيب فبكيت بعدها بكاءً مريراً. غدوتُ حرّة أخيراً. ستكون الحياة أسهل حتماً من الآن فصاعداً. سأتمكن من التّنقل بحريّة من جديد، والأهم من ذلك، هذا ما سيفعله ابني كذلك، وسيشعر زوجي بأمان أكبر، وسأتمكن من استعادة شيء من استقلالي. وبما أنّ هذا الرجل لم يعد موجوداً ليذكّرني بالماضي فبإمكاني الاسترخاء، والاطمئنان إلى قوّة هدفي من جديد...

فلماذا بكيت إذن؟ بكيتُ لأنّه ورغم استئصالِ سببِ الجُرح، هناك قطعةٌ لحم سليمة قد تمزّقَتْ أيضاً، ولأنّ إيماني بالحبّ لم يمُت بعد. بكيتُ وأناً أودّع الوهم الذي خدعني لوهلة وعنا أخيراً، بكيتُ لأنّي كنت ما زلت آمل العثور على حبٍّ نابض بالحياة ومنيع. سافر بعيداً، واختفى كعاصفة، هذا الرّجل الذي تبادلتُ معه يوماً وعوداً مستقبليّة بالسّعادة.

لن يعود قط. هل كان يعلم أنّي لن أنساه؟ أنّ لقاءَنا العابر قد غيّرني؟

أعلم أنّه لن يعرف. وأكيدةٌ لو أنّ شخصاً - بعد أعوام - قد ذكر اسمي له، فكلّ ما سيشعر به هو الانزعاج.

فارقني طعم الموت، لكنّ اكتئابي تزايد بشكل سقيم عندما بدأت أتمتع بعزلتي، غربة أيامي الموحشات. هذا التّشبث المحزن أقلق زوجي، ورغم هدوئه ورغبته في حياة هادئة. بدأ يلحُّ عليَّ للدّراسة، للكتابة، كتابة يوميات خطيئتي إذا استدعى الأمر. ملأه تصرفه بالغطرسة، حتى أنّه اقترح الاحتفاء بطيبته شعراً.

أحضر لي ذات يوم رزمة أوراق. احمرَّت وجنتاي، بمجرد رؤيتها، خِزياً. إلى أيِّ مدى سيصل بروده؟ ومع ذلك - بعد أيام - في بعد ظهيرةٍ عندما كان ابني مع أختَيَّ. وجدتُ نفسي مستعدة، وقلمي بيدي، على أوّل ورقة خاليّة. أوه، لو أنّ لي إخبار شخص ما عن معاناتي وتعاستي! حتّى لو ذاتي! لعلّني إذا أخبرتُ ذاتي بطريقة جديدة، فستمتلك حينها القوة لتسليط بعض الضوء على ما حدث، وعلى ما سأكون عليه.

وهكذا كتبتُ. لساعة أو ساعتين... لا أتذكر الوقت الدّقيق. انصبّت الكلمات صبًّاً، ثقيلة ورصينة. حاولت رسم صورة عن حالتي الذّهنية. تمعّنتُ في ألمي. سألت نفسي عمّا إذا كانت المعاناة بهذه الطّريقة ستكون مُثمرة. شعرتُ بتحريض غريب في عقلي، أشبَه بإشارة على التّطوّر. لم أشعر من قبل أنّي أمتلك قوّة عزيمة كهذه، موهبة ألمعية على التّحليل كهذه. ماذا أتوقع من نفسي؟ هل عليَّ الانضمام إلى المساعي الجَمْعيّة لبني آدم، الشيء الوحيد الذي يمنح الحياة كرامتها؟ هل عليَّ استخدام طاقاتي بهذه الطريقة لأنعم بشيء من السّلام الذّهني؟ أم عليَّ الاستسلام لحياة خاوية من السّعادة، وأخسر كل شيء قد يجعل ابني يحبّني ويحترمني؟

توقّفتُ عن الكتابة، هرعتُ إلى الغرفة، وسجدتُ على البقعة ذاتها التي همست عندها لابني بأنّي سأقتل نفسي. ولسبب ما ناديت اسم أمي وبكيت. انتابتني رغبة مفاجئة للصلاة، أن أناجي قوّة عظيمة، ناجتها

أمّي حتماً هي الأخرى طلباً للعون عند قنوطها. كانت أول مرّة أؤمن فيها بوجود المَدد الرّباني، ضممت يديَّ، أنتظرُ إشارة. حمّلتُ رجائي كاملَ قنوط إنسانة أبصرت الدّرب الطّويل الذي يجب أنْ تقطعه، لكنّها تشعر بالضعف الشديد والإنهاك لتسلكه... وبإدراكٍ أجبرتُ نفسي على التّحلّي بالتّواضع. لعلّي كنتُ خائفة، في تلك اللحظة المثالية المتوهّجة، شعرت بيأس جديد، ومختلف وحتّى أكثر قسوة. توسَّلت إلى أمّي المجنونة كي تشفع لي. شعرتُ أن عليَّ نبذ كل غرور. وعند تذكر هزيمتها، حدّثتُ نفسي عن سخافة تمرّد امرأة يعاندها القدر، أبسط أمانيها أن ينعم ابنها بقليل من الأمن. وإذا رأيت الخالق فماذا سأطلب منه؟ أن ينقذ ابني من المعاناة ويرشده للتصرُّف السليم دائماً... ماذا إذا لم يكن صوتي مسموعاً كصوتها؟ ماذا إذا كان من المقدَّر أن تستمر هذه الدّورة المريعة إلى ما لا نهاية؟

وأثناء سجودي، قاطعني زوجي. كان يعود للمنزل أحياناً عصراً ليتأكّد من عدم إساءتي استعمال حرّيتي. قفزت هلعاً، وخجلتُ من إظهار ضعفي العابر له. ثمّ أدركتُ أنّي كنتُ ما أزال امرأة مريضة ومسكينة، وقد مُنحتُ توّاً طريقة لتفجير غضبي.

سألني بقلق عن المشكلة. وبحركة يدويّة، حاولتُ طمأنته، لكنّ الدموع انهمرت من جديد، بغزارة، حرّرتني. كنتُ ممتنة لها... هدأتُ في نهاية المَطاف، وشعرت فجأة بقدرتي على قبول القدر القاسي للمشي بمفردي، للمعاناة بمفردي، وبوجوب إظهار كل ما هو جميل وقوي فِيَّ، ولم يعطب فِيَّ، للعَلَن. بعد ذلك، تورّدت وجنتاي خجلاً من دربِ معاناتي الطويل والجَذْب. أدركت حينها أن إهمالي لنفسي قد أطّرهُ كرهي لذاتي. تذوّقت طعم الحياة من جديد أخيراً، استطيبتُ طعمها كما كنت أفعل في شبابي.

-12-

فترة عصيبة تلت. عشت فيها فقط لقراءاتي، لأفكاري، ولابني، وبأي أمر آخر لم أبالِ. حرّرني الرّوتين من توتري ومن أي حاجة للمكائد، ومنحني إحساساً عميقاً بطمأنينة عميقة.

شعور قوي جعلني ألقي المشكلات العاطفيّة جانباً، وأبقاني بعيدة عن الروايات الرومانسيّة التي استمتعت كثيراً بقراءتها في مراهقتي. الآن، تشغلني الأسئلة الاجتماعية. إنّها تحمل خطراً أقلّ على مخيّلتي. حتى ذلك الحين حملتُ معي مقتطفات لا يمكنها التّعبير عن المبادئ الإنسانية التي لم أشعر بوجود حاجة لتبريرها. حتى في طفولتي، وأنا أستمعُ إلى آراء والدي التّعسفية، تولّد لدي تعاطف خفيٌّ مع الفقراء. ويا لمتعتي وانبهاري من مقدرتي على جمع عدد كبير من العبارات البلاغيّة عن المسألة. ابتسامة والدي كانت متسامحة وهو يستمع إلي. التعليم الذي منحني إياه كان مزاجاً غريباً، غير متجانس بتاتاً. لم أقرأ بتاتاً أي كلاسيكيّات، وبالكاد انصبَّ اهتمامي على الماضي. لقد امتد إلى زمن لا يتجاوز أجدادي، الذين ذُكروا لي كثيراً. أمّا التاريخ الذي تعلّمته في المدرسة فلم أتآلف معه – لم أتخيّل إطلاقاً أنّ النّاس في الماضي يمكن أن يشبهوني – كان الماضي أشبه برسومات كرتونيّة، شبكة من الحكايات الخرافيّة، المعلّقة أمام مخيلتي. مع هذا الإرث الثّقافي كل ما طمحتُ لفعله هو التّدقيق في الواقع الحاضر، والتّعامل مع كل شيء بغرض الاستقراء. هذا يعني أنّي كنت أفكر في النّاس الذين التقيتُهم

تفكيراً مستغرقاً استثنائياً، ودون أن أعي ذلك، كوّنت نوعاً من الارتباط بالإنسانية جمعاء، ارتباطٌ غير تنظيري بتاتاً. لا شيء في تاريخ أسرتي يفسّر عدم التّكافؤ الاجتماعي، ومع ذلك فبعض التّفاصيل عند المرور بها - في الشارع أو في المدرسة - كانت كفيلة بإثارة رغبة متردّدة فيَّ لتكوين تضميناتٍ تخصّني.

أثناء معيشنا في المدينة خلال سِني طفولتي، اكتسبتُ حسّاً بالتّكافل، والذي كان نتيجة حتميّة للحياة المدنيّة. لكن عندما أقذف نفسي في الماضي القريب، أجد أنّ الحياة الرّيفية أصبحت أكثرَ هيمنةً عليَّ بأفكار والدي وفقدتُ فجأة ذلك الحِسّ. بدأتُ أفكّر مثله، ذلك المجتمع كان ينقسم لطبقتَيْن: أقلّيّة، وتتكوّن من المثقّفين الأكثر تفوُّقاً. والأخرى أكبر عدداً، وتتكوّن من جَهَلَة أمّيّين، متبلّدي الشّعور تقريباً. جماعة من الناس وظيفتهم حماية الجماعة الأخرى. لكنّ هذا المنظر لم يدمْ طويلاً - أول موقف أرسى قواعد الفكرة حدث وأنا في الثّالثة عشرة من عمري.

زارنا صاحب المصنع- أرستقراطي ومليونير - الذي أداره والدي لتناول الغداء معنا. تصفّح إحدى المجلات التي اشترك فيها والدي، ثمّ قال إنّها جميلة، لكنّها «باهظة الثمن». استأتُ عندما قارنتهم بهذا الثري الذي امتلك زوجين من الخيول لكنه لم يستطع تحمل كلفة مجلّات كهذه... لا بدّ أنّه شجّعني على الحديث بحريّة، لأنّي عند مرحلة ما، أثناء الحديث عن عملي، أشرت للمصنع بـ«مصنعنا». دعتني أمّي لالتزام الصمت، لكن الكونت قال: آه، دعيها وشأنها. الحوذيّ يقول الشّيء ذاته. إنّه يقول: «خُيولي». ملأتني ملاحظتُه حنقاً، لكنّها هشّمَت رأيي المسلَّم به عن النّظام الاجتماعي.

وفيما بعد، عندما تزوَّجتُ، أصبح تطوُّري الثقافيّ آسناً.

الآن، وأخيراً، بتُّ أستكشف أهمية التّمتع بأفق أوسع. مشكلاتي الشّخصية بدت أقلّ غموضاً، عندما نظرتُ إليها بضوء هذه المواضيع الأكبر. بدأتُ أشعر بأصداء حيوات الأشخاص الآخرين وأحلامهم،

ما عُدتُ أشعر بالوحدة بفضل كتُبي. وعوضاً عنها، شعرتُ أنّي إنسانة يمكنها الإصغاء، والتّعاطف، والمساهمة في حلّ الصّراع الجَمْعِيّ. شعرتُ أنّ كل العذاب البشري سببه التّشكيك والجهل، وأنّ البشر الذين يريدون هزيمة بعضهم، سيعانون أكثر من البقية.

حدّثني والدي في صغري عن يسوع. وضّح لي أنّ المسيح كان أفضل البشر، وأنّه علّمنا الإنسانيّة والحب وقَبل الاستشهاد من أجل معتقداتهم. تذكرتُ هذا، وتعلّقتُ باسم المسّيح كمجسّدٍ للكمال. لا يعني هذا أنّي عبَدْتُه، لكنّي اطمأننتُ إلى وجود أسوةٍ حسنة، وإلى أنّ الإنسان يمكنه – إذا شاء – الارتقاء بنفسه بمستوى الرّبوبيّة، أي أنّ للإنسان أنْ يظل ملهماً إلى الأبد. وجدتُ أنّ الميثولوجيا المسيحيّة طفولية مقارنة به؛ إذا كان المسيح إلهاً، فهو لم يكن شيئاً، وإذا كان بشراً فهو متفوّق – وليس إلهاً معدوماً. الإنسان أعظم وأشدّ وأقوى. يسوع النّاصري، ومحب الأطفال، ليس لئيماً، إنّه هادئ في أحكامه وتنبُّؤاته. لقد جلب النّور لحياتي. كان شخصاً مثاليّاً. شخصٌ إذا ابتعد عن الخير والحقيقة، فسيكون حزيناً للأبد.

وبعد سنوات من الاستكبار على الدّين، تذكرتُ تعاطفه مجدّداً، والتفتُّ إليه مجدّداً كمنبع للإلهام. ولفترة من الزّمن، تأمّلتُ فكرة إمكانية تكويني لفلسفة توحّد علوم جاليليو التي أصّلها دراسة الطبيعة، بنظريات متينة وجديدة نتجت من الحرية والإصرار على الحب والعدالة. ساعدني هذا الطّموح بطريقة ما لتوجيه أفكاري، جعلني أصدّق أنّ شيئاً من التّوافق قد يكون ممكناً.

وفي الوقت ذاته بدأت كثير من الأشياء حولي تأخذ معنى جديداً. وأدركتُ بصدمة كبيرة أنّي لم أسأل نفسي إذا ما كانت مسؤولة عن الفظائع التي أشاهدها من حولي. هل فكرت من قبل بتمعّن في حال مئات العمّال الذين وظّفهم والدي؟ هل فكرت بتمعّن من قبل بآلافٍ من صيّادي الأسماك وأُسَرِهِم الذين عاشوا في أكواخ معاً، على بعد مسافة قليلة من منزلي؟ وما هو رأيي في الطّبقة المتوسّطة (رجال الدّين،

والمعلّمين، والمديرين المحلّيّين) والأرستقراطيّين، أشخاصٌ أعرفُهم ويعيشون قربنا؟ هل شعرتُ يوماً بما هو أكثر من الفضول المُصطنع بشأنهم؟ هل قُمتُ بأي محاولات لتجنّب التكبُّر والرّضى بالوجود بين هاتين الطّبقتين، أم أنّي اعتزلتهما. ومع ذلك لم أرغب قطّ باعتبار نفسي مجرّد مُلاحَظة منفصلة ومحظوظة في الحياة. بدأت أفكر بتزايد في أنّ تجاهلي للحياة المحيطة بي هو خطأ جسيم وأكبر من جهلي بعالَمَيْ الفلسفة والعلوم.

ماذا سأفعل؟ لم يكن بإمكاني مخالطة العُمّال، ولا الرّجوع إلى وسطٍ كارثي بالنّسبة لي. أصبحتْ عادتي في الاختلاء بنفسي طبيعيّة جدّاً ومعتادة أيضاً. كلُّ ما فعلته هو الجلوس في غرفتي والاستماع إلى ضَوضاء مصدرها الشارع السّفلي.

في ذلك الشّتاء، انجرف خطيب أختي في عراك ممّا جعل والدي يعارضه؛ كان يسجّل عمّال المصنع في اتّحاد التجار، وبفضله بدأتْ الاشتراكيّة تصبح قوّة فاعلة في بلدتنا. أمرَ والدي الفتاتَيْن ألّا تستقبلاه في منزلنا مرّة أخرى. أزعج هذا أختي كثيراً. ورغم معارضة زوجي، دعوتُ الشّاب لزيارة منزلنا، وفرحَت أختي فرحاً عارماً عندما زارتْ منزلنا ذات يوم ووجدته! الشيء الوحيد الذي بإمكاني فعله لأخي – في السّادسة عشرة الآن – والفتاتيْن، هو ضمان توفير هذا النّوع من الدّعم لهم؛ كنت بذلتُ جهداً كبيراً لاستعادة قوّتي، فتبقّى لي مقدارٌ ضئيل من طاقتي لأعتني بهم، رغم كونهم من لحمي ودمي.

كلَّمَني الشّاب بتفصيل عن الحراك، والذي بدأ يدعو العمّال، حول العام، للنهوض ومعارضة الطّبقة التي اضطهدتهم – الطّبقة التي انحدر منها. أسرته من الطّبقة العاملة، لكنّه سافر ودرس في الخارج، وعند عودته إلى بلدته قبل عامين لمتابعة بناء سكّة الحديد، شعر بحاجة ماسّة للمحاولة والقيام بما ينفع الفقراء الذين عمل معهم.

وافقته أختي في كل ما قاله بديهيّاً، أفكارٌ عاشت وتنفّست في هذا

الشّاب، ولم تتمكن من التّفريق بينها. تجادلتُ معه، وازددتُ انفعالاً، أردتُ أن أكون صادقة معه، ولكوني عديمة الخبرة في أسلوب نقاشه، تردّدت، ثم فقدت أعصابي. وهكذا حاولتُ بعد مغادرته، العثور على متّسع من الحرّية الثّقافية في الكتابة على المكتب، الإسرار بأفكاري الجديدة لذات المُفكّرة التي دوّنت فيها معاناتي السابقة. هجرتُ حافز الكتابة الذي منحني السّعادة، لأنّها أحرجتني. خشيتُ أنْ أكون ضحيّة مزاعم حمقاء، أنْ أمثّل دوراً كما فعلت في طفولتي أمام المرآة، حين كنتُ أحاكي حركات سيدة راقية. لكنّي استمريت في الكتابة وبطاقة متزايدة.

كنت أفكّر! كم من الوقت كنتُ سأستمر دونها؟ كل ما كنت أنظر له الآن: الأشخاص، والأشياء، والكتب، والمناظر الطبيعية، يدفعني لسلسلة لا نهائية من التّأمّلات. من أفكاري ما أدهشني، ومنها ما كان في غاية السّذاجة وأضحكني، ومنها ما كان ذا جوهر مهم ملأني إعجاباً بها!

بدا أنّي أمتلك لغة داخليّة فصيحة تكفي للتأثير بالملايين. تنوّع أفكاري كان لا نهائياً. هل امتلكت فعلاً هذا الكم الوفير من الأفكار؟ حدّثتُ نفسي أنّي لستُ مميّزة، أنّ الجميع لديهم مخزونٌ ثريٌّ متساوٍ من الأفكار مع الآخرين، ولا يمنع استثمار هذا المخزون إلّا الظّروف. لكن لم أؤمن بها حقيقة. وكيف عساي أنْ أفعل وأنا محاطة بكثير من اللامبالاة والجهل...

كان بإمكان الطّبيب مساعدتي في بحثي من خلال تزويدي بالمعرفة العلمية، لكنّه لم يعد مهتماً حتّى بتطوير ثقافته. لم يعد منهمكاً بمتطلبات وظيفته اليوميّة، وأصبح في منتهى التّشكيك، حيث لم يعد يؤمن بوجود أي شيء يمكنه تغيير ظروف حياة تكوّنت على مدار قرون، ولم يؤمن بإمكانية انتهاء الفقر الموروث. أعارني بعض الكتب: كتب في الأحياء، كتب طبيّة، وكتيّبات في التّاريخ الطّبيعي. ابتسم في وجهي عندما أريته ملخصاتي والملاحظات التي كتبتها، بشفقة، وباستهزاء أيضاً.

ما يزال يثير اهتمامي بطريقة محزنة. ما زلتُ أتساءل من وقت لآخر

إذا كان أو ما زال على علاقة حميميّة بحماتي، لكني وجدتُ مجرَّد التفكير في ذلك مهين. وعلى أي حال، كيف يعيش كأعزب؟ علاقة والدي ملأتني فضولاً عن احتياجات النّاس الجنسيّة، لكن الاستنتاجات التي استنتجتها كانت تثير السّخرية بشكل ما. كان شاباً يحترمني احتراماً بالغاً، ويحترم المُثل العليا، وعاش حياة نموذجيّة حسب المعتقد، لكن كانت لديه هو الآخر حياة سريّة لم يعترف بها علناً.

أيوجد من تجرّأ، وقال الحقيقة، وعاش حياته في نورها؟ شعرت بالأسف على هكذا حياة. الجميع يسعى للحفاظ عليها، حتى لو كانت مظلمة وتافهة، استسلم الجميع لها: زوجي، والطبيب، ووالدي، والاشتراكيون، ورجال الدّين كذلك، وكلٌّ من العذارى والعاهرات متشابهات. استسلموا جميعاً لكذبتهم. إمّا أنْ تكون الثّورة الفرديّة عقيمة أو مدمرة، أمّا التّمرد الجمعي فهو أضعف - بل وحتّى مضحك - إذا شاهد ضخامة ورعب الوحش الذي يحاولون هزيمته.

بدأت أتساءل أيضاً عن احتمال ألّا يكون عدد كبير من الأشرار الاجتماعيين مسؤولين عن المرأة، وفي النهاية، كيف لرجل نزيه وطيّب أن يكون متنمّراً، ويخون المرأة التي يزعم أنّه يحب، ويظلم أبناءه؟ لكن الأم الصّالحة يجب ألّا تكون ضحيّة تضحيتها بذاتها، كانت: يجب أن تكون امرأة، إنْسانة. لكن كيف عساها أن تكون فرداً إذا كان والدها قد سلّماها لرجل غير ناضج، وضعيف، وجاهل، ولا يستطيع معاملتها كشخص يكافئه. رجل يعاملها كقطعة من ممتلكاته، يمنحها الأبناء، ثم يهجرها ليؤدّي دوره الاجتماعي، ويتركها في المنزل كي تُزجي وقتَها - كما كانت تفعل في طفولتها؟

وبعد قراءتي لكتاب عن حركة المرأة في إنجلترا والدول الإسكندنافية، راودتني أفكار عميقة كأفكارهن. شعرت أني منجذبة بشكل لا يمكن مقاومته لتلك النّسوة الغاضبات اللاتي اعترضن باسم جنسهن، غالباً على حساب كبت احتياجاتهن العميقة للحب، والجمال،

والأمومة. وبلا إرادة تقريباً، لاحظتُ وقوف عينَيَّ فترةً أطول كل يوم عند كلمة عِتْق/ تحرير. تذكّرت سماعها في طفولتي، حين قالها والدي بجدّية مرة أو مرّتين. وبعد ذلك الحين سمعت ذكرها بتهكّم على لسان جميع أطياف المجتمع، رجالاً ونساءً. بدأتُ أقارن بين أولئك المتمرّدات الشجاعات، وجماعة كبيرة من النّساء الخاضعات، واللاتي لا يتحكّمن بعقولهن، وشكّلتهن قرونٌ من الدهر وصُروفه، واللاتي أنتمي أنا لهن، وأختاي، وأمي، وكل النّساء اللاتي أعرفهن. امتلأت برهبة دينيّة نوعاً ما. شعرتُ أنّي أقف على مشارف حقيقة تخصّني وحدي: سأكتشف سرّ عذابي الطّويل المرير...

كانت لتلك اللحظات جلالها المهيب. لن أتمكن من وصفها بدقة، لكنّها ما تزال تعيش فِيَّ - انكشاف على قدر الإنسان الأسمى، بعيد، لكنّه مع ذلك في متناول اليد من خلال مجهود أولئك النّساء اللائي قد يكُنَّ الآن غير ناضجات وبلا حول أو قوّة، لكنّهن عزيزات أنفس، ذواتهن تعرفُ كرامةً تلائم وريثات المستقبل على الأرض.

-13-

قرأت ذات يوم تقريراً صحفياً عن حادثة وقعت في مركز الإقليم. دفعتني لكتابة مقال وإرساله لصحيفة في روما. نشروها. في هذا المقال استخدمت لأول مرة كلمة: نسويّة، وعندما شاهدت الأثر الفعّال للكلمة المطبوعة، تراءى لي فجأة أنّ الكلمة قد نالت أهميتها كاملة. أدركتُ أنّي اكتشفت مفهوماً جديداً.

غطّيتُ الآن كثيراً من الأوراق بخربشاتي. جرّبتُ أساليب مختلفة في الكتابة - توصيفات للمناظر الطبيعيّة، أوصافاً مقتضبة للشخصيّات، أفكاري المتعلّقة بالحياة - في مئات الصّفحات حرفيّاً، وحاولت وضعها في إطارها المناسب. بدأت أحب هذه الصّفحات السّحريّة واعتبرتها أفضل من ذاتي، كما لو أنها أخَذت صورتي، وحسّنتها، ثمّ أعادتها إليَّ ثرّية. وبسبب هذه الكتابات اقتنعتُ أخيراً أنّ باستطاعتي العيش بانشغال وفائدة. وعند هذه المرحلة أردت البقاء على قيد الحياة لا لمنفعة ابني فقط، بل ولذاتي، ولكل شخص.

أصبحتُ أرى عزلتي مرة أخرى كنعمة. صاحبتني على الدّوام ذكرى عذابي النّفسي المرير: أُعجبتُ بفكرة أناس - لم يجدوا العزاء في الصّلب العلني والأمل الأخير بالعدالة - رجال ونساء يتشابهون، يجتمعون معاً، وكلّ منهم مع ذلك، وحيدٌ وعاجز. أهذا ما يعنيه أن تكون إنساناً؟ كيف يجرؤ البشر على تعريف الإنسانيّة في اصطلاح نَيِّق؟ أما بالنسبة للمرأة، مستعبدة حتّى الآن، فهي مجهولة تماماً، وكل التّحليل

النّفسي الجريء للروائيين وأساتذة الأخلاق قد أظهرت فقط الأسس المتباينة للتّكوين التّعسفي المؤثر عليهم. لا يمكن للإنسان أن يعرف نفسه معرفة تامّة دون نصفه الآخر؛ معزولاً في حياة بمسراته وعذاباته، هاجراً بغباء الألفة العلنية والعفوية، والتي وحدها ستجعله يقدّر روعة العالم. ضعيفاً أو قوياً، فلن يكون الإنسان مثالياً أبداً. ولأسباب مختلفة يستحق كلٌّ من الجنسين الشفقة.

لم يصرف أي كتاب انتباهي عن قناعاتي الجديدة. في الواقع، ما من شيء أقرؤه الآن قد ترك انطباعاً عميقاً لديَّ. اكتشفتُ أنّ قدرتي النقدية – بعد عجز طويل – قد تعمّقت. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته، شعرتُ بألم تجاه كل ما حرمتني منه دراستي: الشعر، والموسيقى، والفنون البصريّة كنت أجهلها تقريباً. تقتُ لسحرها. تمنّيت لو أنّ لأفكاري أجنحة لتختلط بالصوت والضوء. كنت إذا كتبتُ، أعجزُ عن التّعبير الشّعري عن عالمي الداخلي المُعتم، ممّا يسبّب لي ألماً بالغاً غالباً. بدا أنّ كل ما أفشل في صياغته، يسقط في هوّة سحيقة تظهر لوهلة.

استعنّا في الوقت الحالي بخدمات امرأة عجوز لتقوم بأعمال المنزل التي كنت أقوم بها من قبل دون معونة. امرأة طويلة ومحدودبة الظهر، ذات وجه قبيح، عظامه بارزة. لم أُطِقْها في البداية، لكنّها كسبت قلبي بسرعة بذكائها المميّز وتهذيبها. لم يختلف تاريخ حياتها عن كثير من نساء طبقتها الاجتماعية: أنهكَها إنجاب الأطفال، ثم هجرها زوجها، وفي النّهاية أصبحت تخدم أطفالها. تحدّثت عن نفسها بخوف، وهي تكشف لي عن تحمُّلها للحياة. أُعجبت باهتمامي بها، وأُعجبت منذ البداية بهيئتي الطّفولية، وجديلتي الطّويلة، ووجهي المتورّد الذي يشبه ابني كثيراً. عُزلتي، إضافة إلى المواضيع التي ناقشت زوجي فيها أثناء تناول الطعام (إذا كان مصغياً)، قد ملأتها باحترام متحفّظ – مزيج من الإعجاب، والغرور، وطموحات لا يمكنها تحقيقها لنفسها وأطفالها.

بدأتُ أعاملها كصديقة حكيمة وعاقلة. وعلى أي حال، لم أحظَ

برفقة غيرها. حاولت تعليمها، وبذلت هي جهداً جهيداً في الفهم! وإذا استعصى عليها فهم أمرٍ ما، تخفض كتفيها وتقول: «أوه، لو كنت فقط أصغر بثلاثين عاماً يا سيدتي. من يعلم ما بإمكانك أن تصنعيه مني حينذاك!».

هذه المرأة، إضافة إلى خالتي، وغاسلة الثياب التي كانت تأتي أحياناً، جسّدن لي أقصى درجات الخضوع، لا للفقر فقط، بل وللأنا الذّكوريّة. شعورهن الرّمادية تهتز باستمرار باهتزازات خفيفة، كما لو كنّ يتذكرن باستمرار ماضٍ لاقينَ فيه الويلات. أعينهن المتعبة لم تجرؤ على النّظر في عيني. عندما أشاهدهن أشعر بأنّي أريد معانقتهن: لا من أجلهن فقط، ولا لشفقة عابرة، بل وأيضاً بسبب - دون أن يعرفن - خطط طموحة للمستقبل ألهمنني إيّاها.

وفكرت مليّاً أيضاً في أمّي وهي في مأواها المرعب. كنت متيقنة لو أنّها انشغلت في أنشطة خارج نطاق الأسرة في صغرها، فلن يسحقها البؤس. أصبحتُ في الثّانية والعشرين من عمري، وأؤمن الآن بإمكانية قبول حياة تخلو من الحب. وأكثر من ذلك، إيماني بأنّي لن أقع في الحب من جديد منحني شعوراً بالأمان.

أجهلُ حقّاً ما ينقص حياتي. هل كنت أعي احتمال وجود نهاية مباغتة لحماسي السّاذج؟ هل تمعّنتُ في حياتي اليوميّة وذعرت! لكنّي سافرتُ سفراً بعيداً تجاوز روابط الحياة العاديّة، وكنت في غاية التّيقن من أنّي كنتُ أنجز شيئاً مميزاً حتّى أنّ التباين بين ما كنت أفكر فيه، وما كنت أفعله لم يترك عليَّ أثراً يتجاوز وخز ألم متقطّع.

مع حلول منتصف الصّيف، شغلتني مادّة مكتوبة زمناً يسيراً - دراسة عن الظّروف الاجتماعيّة في المنطقة التي أقطن فيها. أكملتها في بضعة أيّام، ونسجت فيها ملاحظاتي الشّخصيّة وعواطفي المحتدمة الجديدة.

أريتُها للطّبيب، ومن طريقة حديثه، شعرت أنّه قد اقتنع بقدراتي الجديدة أخيراً. كما عرفت غريزيّاً أنّه قد رأى في هذا الانشغال عقبة

جديدة أمام المشاعر التي كَنّها لي... أتراني ابتهجت أم ندمت؟ ما عدتُ أعرف، لكنّي أدركتُ أن حياتي قد اختلفت مذ بدأتُ أعيش؛ أصبحتُ أعزل نفسي أكثر من ذي قبل.

وما أهمية ذلك؟ بات انسحابي من العالم الآن كليّاً. فكل من شبابي، وجمالي، والنكبات التي مررتُ بها جعلتني أحسبُ نفسي منيعة إزاء الرّغبة الجنسيّة. والاتّجاه الذي قادني إليه تطوّري الثّقافي لم يتأثر بتاتاً بالحميمية مع زوجي، والتي استسلمت لها مُجبرة. إضافة لذلك، إذا صادفت خلال مطالعتي أو أحلام يقظتي نساءً راحلات أو معاصرات اخترن العزوبية، حيّيتُ برودهن المذهل، وأنا أشعر بانتمائي إليهن، أختهن.

أرسلت مقالي، وضمّنتُ فيه تصويبات الطّبيب فيه. واستلمتُ في الصّباح ذاته نسخة من المجلة التي نُشر فيها مقالي. اقتنَصَها ابني فوراً. ورغم أنّه لا يعرف القراءة بعد، إلّا أنّي علمتُه أن يميّز اسمي في نهاية مقالاتي، وفي كل مرّة يعثر عليه مطبوعاً، يبتسم إليَّ ابتسامة العارف السّعيد. ابتسامته تلك هي مكافأتي، إشارة منه على موافقته بانشغالاتي اليوميّة. وكأنّه يقول: «أعلم أنّك تعملين من أجلي يا ماما. أعلم أنّك تكبرين شأناً، وتتعلمين، وتعيشين، وتصبحين أقوى وأنشط. وأرى أنّك تعدّين حياة أفضل من أجلي...».

أجبته في ذلك الصباح بابتسامة حكيمة ومنبعها القلب كابتسامته. شعرت أنّي أقف على صعيد مرتفع، ممسكة بيد ابني وأنا أنظر إلى جمال الطبيعة الخلاب اللامتناهي الذي كنت على وشك عبوره، بقوة وثقة بالنفس. لا شيء خلفي، ولا شيء إلى جانبي. شعرتُ بسلام تام، براحة، ونسيت كل الانشغالات الأخرى عندما واجهتُ صورة المستقبل الآسرة هذه.

عاد زوجي من عمل شاق بعد أسابيع، وفي اليوم ذاته استلمت رسالة من روائية مشهورة تخبرني فيها أنها بصدد إصدار صحيفة بالتعاون مع دار نشر جديدة. طلبت منّي العمل معهم، وعرضوا عليَّ راتباً ضئيلاً. كنت آمل أنَّ خبري هذا سيفرحه، وبدل ذلك، أمرني بأن أخرس. كان قد وصله نبأ تفتيش منزل خطيب أختي المهندس، واعتقاله. وعمّ إيطاليا

ردُّ فعلٍ مناهض. أخذ زوجي نسخة من المجلة التي فيها مقالي وكل الرسائل التي وصلتي بتعليقات على المقال، ورماها في النّار، ثم أضاف مجموعة أخرى من الصّحف والمجلات، وبدأ يفتّش الغرفة بحثاً عن أوراق سريّة.

أتذكر أن ذلك اليوم هو أحد أكثر أيام حياتي مرارة، ومع ذلك أكثرها أهميّة؛ أثناء مشاهدة سلوك زوجي المثير للشفقة، أدركتُ أنّي مجبرة على العيش في دنيا تملؤها صراعات هائلة، فشعرت بالوحدة أكثر وأكثر. ولَّدَت أفعاله المتناقضة خوفاً عظيماً فِيَّ، جعلتني أشتاط غضباً.

وفور انقضاء الرعب تمكّنتُ من الكتابة والنشر مجدّداً، وبدأ أشخاص آخرون بمراسلتي، وإرسال أعمالهم. لم أكن منعزلة كما اعتقدت. راسلني بروفيسور إيطالي كان يقيم في سويسرا باستمرار، وأبقاني على تواصل مع امرأة من فينيسيا، والتي أصبحت صديقتي بعد رسائل متبادلة. ورغم عدم لقائي بهؤلاء الأشخاص، إلّا أنّهم عاشوا في مخيّلتي. لم أمتلك أي صورة لهم: كان هناك عالِم من (جنوا) - على سبيل المثال - والذي كرّس حياته لتعليم البحّارة، وبدأت أعجب به، وأحبه دون معرفة المزيد من التّفاصيل عنه. وكان هناك آخرون، شبّان تحديداً قد كتبوا القصائد في المجلات التي أساهم فيها، والذين تصورتُهم بوجوه خجولة بلهاء. لكنّي شعرتُ بمسؤولية أكبر تجاه النّساء: أردتُهن جميعاً أن يكن جميلات... اللّاتي أرسلن لي صورهن كنّ آيةً من الجمال...

هل كنّ شقيقاتي فعلاً؟ من ذا الذي يعلم؟ الإحباطات التي مررت بها سابقاً جعلتني حذرة. وامتلكتُ تدريجيّاً شيئاً من المعرفة عن مكانة المرأة المثقّفة في إيطاليا وموقفها من الأفكار النّسويّة. ودُهشت عندما اكتشفتُ أنّهنَّ تجاهلْنَها على أرض الواقع. ويجب أن يقال إنّهنَّ بهذه الفعلة احتذين ببعض أشهر نساء زمنهن، واللائي، بتناقض كبير، عارضن علناً حركة تحرير المرأة. استنتجتُ أثناء قراءة مجموعة من الإنتاجات الأدبيّة في إيطاليا أنَّ أغلبها كان مجرد عبارات بلاغيّة لا تحوي أي منطق

أو إيمان أو حتّى أفكار، وأنّ أغلب النّساء في معترك السّياسة كنّ في الحقيقة أجنبيات.

أما النّساء الأصغر سنّاً، وبالرّغم من مؤهلاتهن الجامعيّة، فبدا أنّهن يزدرين نوعاً ما الحراك المُطالب بحقوق المساواة. صديقتي الفينيسية، وهي لامعة وذكيّة، تندرج تحت هذا التّصنيف. أمّا النّساء الأكبر سنّاً، فمنحنني أحياناً لمحة عن الصّعوبات والإرهاق الذي يواجهنه في حيواتهن. حذّرنني باستمرار من: الانخراط في الصّراع، والاعتدال في حماسي، ونصحنني أنْ أصبّ تركيزي على أن أصبح فنانة إذا لم أكن قانعة بمنزلي وطفلي. ما من شك في إخلاصهن، لكنّ رسائلهن حيّرتني.

ابني – محلّل نفسي منذ نعومة أظفاره – شاهد تفاعل التّوتر والهدوء على تقاسيم وجهي، وكان يلزم الهدوء إذا أبصر، أو لاحظ مشاعرَ سلبيّة بيني وبين والده يتجهّم... مثّلتُ بالنّسبة له أفضل ما في هذا العالم. كنتُ أحكمَ وألطفَ شخص يعرفه. حتى نوبات غضبي النّادرة التي أخجَلتني ويعود سببها إلى توتّر جسدي الدّائم، لم تغضبه. لا بدّ أنّه قال لنفسه مراراً وتكراراً أنّ ماما على حق، ولذلك كان يطلب الصّفح... ابني المسكين، ابني المسكين المحبوب! أؤمن أنّه عاش السّعادة الحقيقيّة خلال سنوات حياته الأولى، وأنّ الوقت الطويل الذي أمضيناه معاً قد سمح له بتخزين كميّة من الطّاقة التي يتمتع بها عدد قليل من الأطفال. حسبتُ أحياناً أنّنا بين قبضَتَي قوّة غريبة، يمكنها رؤية المستقبل، وكانت تُعِدُّنا بكل الدّفاعات الممكنة له...

مضى عامان من حياتنا... بإمكاني تذكّر أجزاء منها فقط. كيف لي أنْ أصف وقتاً مميّزاً؟ خرجتُ، وأنا أمسك يد ابني، على امتداد الطّريق المهجور المسيّج بالزّعرور البرّي، طيّب الرّائحة في الرّبيع، ومغبر في الشّتاء. في المدى البعيد تلالٌ انتشارها مضاعف، وقرب سفوح التّلال، وجبال الأبنين في الخلف: قرى صغيرة على التّلال، كتيجان من البروج المحصّنة، ومنازل صغيرة بنيّة اللون مجتمعة حول أبراج الجرس

تستحضر القرون الوسطى. يبدو كلٌّ من الطبيعة والبحر ساحرين أحياناً، وباهتيْن أحياناً أخرى. مرّت أيّام كان فيها كل شيء ساكناً، ساكناً بشكل غريب، ومرّت أيامٌ أخرى بدا فيها أنّ كل طرف عشب، وكل قطرة ماء، تؤكد حضورها بهمسات، والهواء كان مليئاً بأصوات في منتهى الاتّقاد، كما لو كانت ستُلامس بشرتي.

معرفتي بهذه الطّبيعة تعود لسنوات سابقة. لم أتوقف عن تفحّص - حتى وأنا طفلة - ما شاهدته من قبل، ولم أحاول من قبل اكتشاف سر التّجانس الذي استدرَّ دموعي، وحفّز أقصى درجات إثارة، يمكنها أن تشعرني بالاسترخاء، أو بالإحباط الشّديد. تآلفتُ معها كليّاً، وسمحتُ لها أن تمتصّني في روعتها الغامرة والغامضة. لقد أصبحت، مع مر السّنوات، مدركة وواعية لحالاتها. منحتني إشارات واضحة وغير ملغزة عن تحوّلات وتطورات دورة حياتها المتواصلة، وأسقطتُ رموزها على معاناتي، وسعادتي، ورغبتي في كل من الحياة والموت. قد يكون هناك وقتٌ متبقٍّ!

وصلت الآن لاستنتاج أن ماضِيَّ قد قرّره العليم، وأنّ إرادتي الضّعيفة، وتجاربي المؤلمة عبارة عن تهيئة ضرورية للمستقبل.

لكن ما هي طبيعة هذا المستقبل؟ لا أملك فكرة جلية عنه. ودون توجّهٍ واضح كان تطوري محتوماً بالفوضى. ماذا أريد أن أصبح؟ ليس صحفيّة: بدأت أدرك عدم جدوى التّفريط بأفكار نصف مختمرة. فنّانة؟ لم أجرؤ حتّى على تأمل الفكرة، أجهدتني فكرة افتقاري للثّقافة، والخيال، وعدم إبصاري للجمال.

كتاب، الكتاب. هل أنا أكيدة من عدم رغبتي في كتابته؟ أشعرُ أحياناً بتوق ملحّ عندما أفكر بكتاب يجب أن أكتبه: كتابٌ معجونٌ بالحب والألم، فيه شغف، ويلهمه منطق حرون، يبكي القلب، وفوق كل هذا متفائل. هكذا كتاب سيُري العالم لأول مرة معنى أن أكون أنثى معاصرة، ويحفّز في أخيها الرجل ندماً على الماضي، ورغبة جامحة في التّغيير...

سيترجم الكتاب ورقيّاً كل الأفكار التي أضنت عقلي وأرهقته في العامين المنصرمين – وسيحمل بين دفّتيْه معاناة حقيقيّة. ألن تكتبه إنسانة؟ ألم تُعانِ أي امرأة غيري ممّا عانيته؟ ألم تتوصل إلى العظة والعبرة ذاتها؟ هل من الممكن أن تصل إحداهن لقلبها، وتصنع منه قطعة أدبية رديفة للحياة؟

-14-

وصل زوجي للمنزل ذات مساء باكراً فجأة. كان في غاية الانزعاج: ارتسمت على وجهه تقسيمة قبيحة، إذ كان سَيِّئ المزاج. تبيّن أنّه قد غادر المكتب غاضباً، ومتوعّداً بعدم العودة إليه.

تذكرتُ فجأة شكل والدي في اليوم الذي ترك فيه وظيفته في ميلان. كان في منتهى الهدوء، ومسروراً بوضوح لازدهار مستقبله والذي - رغم عدم تأكده - سيمنحه شيئاً من الاستقلال.

أشعر الآن بهدوء مماثل، يتاخم الابتهاج. لكن زوجي واجه صعوبة في التّحكم في غيظه. لم ينزعج لأنّه أهان والد زوجته - الرّجل الذي يملك كل شيء في نهاية المطاف. بل كان غاضباً من نفسه، لأنّه قد أفسد فرصته في شَغل مكان أبي.

لا مجال للصّلح؛ فوالدي لا يملك سبباً يدعوه لمسامحة زوجي على غضبه. ومشاعره تجاه أبنائه قد تغيّرت منذ أشهر طوال من اللامبالاة إلى غضب خبيث، وقد منحه سلوك زوجي معه متنفّساً ملائماً لهذا الغضب. يمضي والدي الآن جلّ وقت فراغه مع عشيقته، ومن المحتمل أنّها قد قلبته علينا، أو ربّما يحسبنا جميعاً نخدعه، ولهذا صرف أمواله ببذخ على أسرتها. وأيّاً كان السبب، لم يطاوعني قلبي على إدانة تصرفاته. كنت متيقنة من حقيقة أنّه قد فقد كلّ حبّنا له، ممّا سبب له ألماً فظيعاً، ولا بدّ أنّه يشتاق شوقاً عظيماً للماضي، للحماس الثّقافي، ودفء حبّنا المشترك.

أراه أحياناً عندما أزور حديقة منزله. أخبره شخص ما عن المقالات

التي كتبتُها، وكان يكلّمني عنها ونحن نمشي بين أصص الزّهور. تذكرت طفولتي وكيف وجدتُ دروسه الارتجاليّة محفّزة، تلك التي قالها لي في حديقة منزلنا القديم. إنّه يشاهدني الآن، بحزم، بعينين ضيّقتين، وكأنّه يطلب منّي أنْ أعترف له أنّه ما يزال متفوقاً على غيره. وأنّي سأقلق، وأخاف حتماً... ممّا حدث لزوجي. بدا غامضاً، وملغزاً بالنّسبة لي.

عندما أدركَ زوجي أنّ والدي لن يعيده لمنصبه، مهما اعتذار، تغلب على حزنه. لم يتخيل حدوث هكذا كارثة. ووجدتُني على مُفترق طرق.

لم أقلق ولا مثقال ذرّة بخصوص كسب قوت يومنا. فأي عمل سيشرّفني، فأنا أؤمن منذ طفولتي بأنّ الإرادة سبيل النّجاة. لكنّ زوجي وجد مغادرة المنطقة صعبة. لم يعد شاباً، وهو لا يملك مؤهّلات، أو مالاً حتّى. وبالرّغم من اعتداده الكبير بنفسه، كان شديد الذعر الآن.

ومع ذلك شعرتُ بضرورة الهروب من محيطي. كنت بالفعل قد أنّبتُ نفسي على انصياعي لاستغلال والدي للعمّال - وهو استغلال قد برّره زوجي. سينتهي ذلك على الأقل. وسأستعيد بعضاً من كرامتي. شعرتُ براحة أكبر بخصوص ابني كذلك؛ بإمكاني أخذه لمكان آخر، حيث سينسى بلدته السّقيمة، حيث شاهد على الدّوام كلَّ نقيضٍ لما علّمتُه إيّاه.

أخبرت الطبيب ذات يوم عن سعادتي لفكرة المغادرة. نظر إلي، بصمت، وشعرتُ بندم عندما واجهتْ صمته.

بدا مرهقاً، ومنهكاً. لقد انتشر في البلدة وباء التّيفوس. وكان يتنقل طوال اليوم بين منازلٍ أعيا أصحابَها المرض والفقر. حاول منح المرضى الأمل والسلوان للمحتضرين الذين كانوا يئنّون بحزن، أو كانوا خائفين من الموت. زيارته لي أصبحت نادرة.

مضت أسابيع دون اتّخاذ قرار. لقد أهان زوجي مجرّد التّفكير في بحثه عن عمل في مكان آخر. كل ما امتلكناه هو المعونة الماليّة من بابا. لكن صرف زوجي من العمل قد وضع أيضاً حدّاً لعملي في سجلّات المصنع، ولذلك فقدنا مصدر الدّخل ذاك. بدأت أفكر بوسائل أخرى لكسب المال.

راودتني فكرة ذات صباح. جمع ابني البريد ولمعرفته الجيّدة بما أحبّ وأكره، ناولني طرداً قبل الطّرود الأخرى. كانت مجلة من ميلان، أحببتُها حبّاً جمّاً في الواقع. كان المحرّر رجلاً متمرّساً في الصراع السّياسي، والذي منح كثيراً من الكُتّاب الشّباب بكرم فُرصهم الأولى. اعتاد على إرسال خطابات الإعجاب لي، محاولاً إقناعي بتكوين صيتٍ لي من خلال كتابة شيء أكثر رسوخاً في الأذهان من المقالات القصيرة، وسينشره لي بسرور. قرّرتُ أن أكتب له وأخبره عمّا حدث.

جاء ردُّه في أيّام قلائل. قال إنّ ليس بمقدوره فعل شيء لي في ميلان، لكن في روما ناشرة بدأت نشر صحيفة نسويّة جديدة وقد كتب إليها لتساعدني. وبالتّأكيد، استلمت رسالة بعد فترة قصيرة من كاتبة روائيّة، كانت قد عرضت عليَّ منصباً في التّحرير سابقاً، لكنّه شغر منذ زمن. ومع ذلك عرضت عليَّ العمل كمحرِّرة مساعدة. أردتُ الذّهاب إلى روما لكنّي لا أريد العمل في مكتب. واحتوت رسالتها على الأعداد الأولى من موليير، مجلتها.

ورغم أنّ المجلة بدت جذّابة، إلّا أنّ أسلوبها العبثي جعلني أتراجع في البداية. قرأتُ الفقرات الأولى المنمّقة: «دعوا النّساء يتحدّثن عن أنفسهن على الأقل. إمّا أن يديننا الرّجال، أو يثنوا علينا. من الرّجال من يدّعي أنّه مثقّف جهبذ ومفكرٌ حقيقي، فيكنُّ دون وعي الضغينةَ لنا. ولأنّ النّساء لا يسعين للعمل خارج منازلهن وجهودهن غير مقدّرة، يُعتبرن رجعيّات. ومن الرّجال من يدّعي فهمه للنّساء بحكمِ علاقاته الغرامية العديدة. لقد استغلّوا النّساء، لكنّهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التّعمق في معرفتهن. كل ما يعرفونه هو كيفية استخلاص أقصى درجات المتعة منهن من خلال استغلال الحاجات الجنسيّة للنساء. هذا كل ما في الأمر. في الحقيقة، إنّ المرأة كمفهوم نتاج خيالات الذّكور. وحينما نتأمّل الواقع، نشاهد أنّ النّساء يوجدن [كأجساد] فقط، ومختلفات الهيئة بشكل هائل!».

لم يُكتب اسم صاحبة المقال، لكنّي علمتُ أنّ الرّوائية المشهورة قد كتبتهُ بنفسها. لعلّها ستتمكّن الآن من تسليط الضّوء على نساء جديدات في المشهد العام. ختمت الكاتبة مقالها بجملة: «نحن لا نعدكم بشيء جديد أو مختلف. لا تتوقعوا الكثير منا. إذا أردتم امرأة مثالية فلن تجدوها في مجلتنا بعد الآن بل في الحياة. ما نحاول فعله هو الأخذ بيد هذه المرأة المثاليّة، إخراجها من ممالك الفانتازيا، ومواجهة هذه الأحلام بحقيقة نساء طبيعيّات».

بعد مطالعة المجلة، أجبرتُ على الاعتراف باحتوائها على تمحيص بسيط لكلمة «مثالية». كانت هناك مقالات عن الفن، وتحقيقات مصوّرة مع ممثلات، وصور فوتوغرافية للذّوقات، وهنّ يرتدين فساتين السّهرة، والتقارير الرّياضيّة، وتذكير بالحفلات الخيّريّة، وحسابات خيرية، وعمود طبّي. أمّا المكان الوحيد الذي فيه نقاشات عن النّسوية كان في الأخبار الغربية.

شعرت بتثبيط وأنا أخبرُ زوجي عن العمل. تناول المجلة، فتفحّصها بتمعّن، ثمّ صمت ردحاً من الزّمن، وقال: أحبُّ أسلوبها؛ بدت له معتدلة. لكنّها بدت أيضاً عصريّة جداً، وقد أزعجه ذلك. قد يرهبنا التّواصل مع مجتمع الطبّقة العُليا. وضّحتُ له أنّي سأعمل في المنزل ممّا يعني أنّي سأكون معزولة عن بقية طاقم العمل. تنفّستُ الصّعداء. إذا كنت سأقبل العمل، فعلينا اتخاذ قرار سريع، وعلينا التّفكير بما سنفعله في روما. لم يستغرقه التّفكير في خطّة وقتاً طويلاً: ذهب لأصحاب الحيازات الزّراعيّة المحليين، وأقنع معظمهم بتولّي مسؤولية بيع منتجاتهم في روما والأماكن المحيطة بها. كلّ ما احتاجه هو بضعة آلاف ليرة إيطالية كرأس مال. منتحتهُ إيّاها والدتُه على مَضَض.

وقبيل مغادرتنا بيوم واحد، مرض الطّبيب مرضاً ألزمه الفراش. لم يَقلق أيّما شخص عليه. جميعنا يعرف أنّه منهك، وأملنا أن تفيده هذه

الرّاحة الإجبارية. حزنتُ فقط لأنّ هذا يعني أنّه لن يتمكّن من نصحي حينما أحتاجه. وبغضّ النّظر عن أختَيْ، هو الشّخص الوحيد الذي سأشتاق إليه بعد مغادرتنا.

فارق الحياة بعد أسبوع.

لقد أصيب بالتهاب السّحايا المزمن فجأة، وكان على ذلك الحال عليلاً بلا مقاومة، كما لو أنّه كان يجمع بذور الموت المحيطة به. وفي تلك الليلة تدهورت قدرته الذّهنية. جسدُه، بالرّغم من ذلك، تشبّث بالحياة أيّاماً أُخَر... لم يصدّق أحدٌ ما كان يحدث.

دام عذاب موته نهاراً كاملاً وليلة واحدة. فور إدراكنا لاستحالة شفائه من مرضه، استدعينا والدته – امرأة تبلغ السّبعين عاماً. جاءته فوراً. وجدتُ أنّها خليط غريب؛ فشعرها الرّمادي قد منحها هيمنة، لكنّ ابتسامتها ابتسامة طفلة. كانت قد فقدت ابناً آخر، والذي مات وهو يؤدّي واجبه العسكري عن عُمرٍ يناهز العشرين عاماً. أمّا زوجها فكان يتعافى من سكتة دماغيّة، ونتيجة لذلك تولّت مسؤولية إدارة الموارد الماليّة للأسرة المشتّتة. إنّها امرأة آمنت حرفيّاً بالتّضحية بالذّات بشجاعة، وكانت أكيدة من أنّها ستُجزى خير الجزاء على تفانيها بعد موتها. لم تقبل أي نصيحة، ولم تقبل أي نقد من أي شخص لا ينتمي لأسرتها. تأثّرتُ تأثّراً شديداً بسلوكها خلال الليلة الأخيرة من حياة صديقي العزيز؛ بيدٍ مسحَت العرق عن جبينه، وباليدِ الأخرى دسّت صورة قدّيس بين شفتيْه. شفتان مزمومتان بالكاد تمكنا من إدخال قطرات الدّواء بينهما. حركات جسدها، الهادئة والوقورة، كادت أن تقنعني بقرب حدوث معجزة.

لكن عند وصول الرّاهب ليمنحه بلسمه المقدّس، بدأت معركة الموت. أردتُ البقاء من باب الاحترام لأمّه المسكينة، لكنّي غادرتُ بعد دقائق معدودات. لم أهضم خضوع صديقي لطقس كان قد كذّبه باستمرار، عندما كان على قيد الحياة. وجدتُ أنّ زوجي، والأطباء،

وعدداً من الأصدقاء في الغرفة المجاور. تمكّنّا من خلال الجدران من سماع أصوات جوقة النساء الخافتة وهي تصاحب ترنّم الرّاهب ذا الوتيرة الواحدة. شعرتُ بالغضب، فطلبت من زوجي اصطحابي للمنزل، وعلى أي حال، ما عاد صديقي الذي كننت له الكثير في ذلك المنزل. وعند الشّروق جاؤوا ليبلغوني نبأ موته. نهض زوجي من مرقده على عجل وغادر المنزل. أردتُ البكاء، لكنّي لم أستطع. شعرتُ بقبح وعظمة غموض الموت. لم أشعر بأي فقد إلّا بعد مرور ساعة. وعندما أدركت موته، بدأت آسف على نفسي وعلى الآخرين الذين لن يسمعوا صوته اللطيف الحازم مرة أخرى. بكيتُ بكاءً مريراً.

كان قريباً مني لستّة أعوام – منذ يوم زفافي. شعر كلٌّ منّا بالوحدة، والانقطاع عن بقيّة المجتمع. شعرتُ أحياناً أنّه يحاول التّقرب منّي. أيُعقل أنّي أحببتُه؟ لماذا لم نتقارب إذا كنّا قد فهمنا بعضنا جيداً؟ لماذا لم يرتمِ أحدنا في حضن الآخر؟ أيعودُ سبب هذا إلى عدم تكلّمنا بكلمات جوهريّة تقرّبنا من بعضنا كفاية؟ أم أتراه القدر؟

رحل، ولم أكن بجانبه. تركته وحيداً، أكثَرَ انعزالاً من قبل. من ذا الذي يعلم أين سيذهب؟ إلى الصّفاء – كما تمنيت – إلى الحريّة، إلى التّحرر من الحب والكراهية.

الأيام الأخيرة التي أمضيتُها في البلدة كانت مسجّاة بالغشاوة. يمكنني تذكُّر تفاصيل قليلة مميّزة...

يمكنني تذكّر ابني وهو ينتحب عندما أخبرته أنّ علينا توديع غرفته التي ولد فيها. ما يزال بإمكاني الشّعور بغصّة في حنجرتي عندما هممتُ بتوديع والدي، وكلّي أمل في أن يعاملني بلطف، لكنّه انتقدني انتقاداً لاذعاً، سرعان ما انقطع استرساله عندما أدار ظهره لي... أتذكر كذلك مشهداً مؤلماً: حماتي التي غضبَت على أختَيْ حينما جاءتا يوم مغادرتي لتودّعاني في منزلها، وخالتي وهي تبكي وتنوح عندما ودّعناها...

زرت أمي زيارةً أخيرة. حاولت ولم أنجح لأذكّرها فِيَّ. عذّبتني عيناها اللتان لا تبصراني، وصوتها القاسي الفَكِه!

يبدو البحر، والرّيف، وشوارع بلدتنا في أفضل أحوالها في سبتمبر دائماً، في غاية اللطف والنّعاس... مضى أحد عشر عاماً منذ رأيتُها أول مرّة. الأعوام الأحد عشر تلك آلمتني وأنا أغادر اليوم، إلى مصير مجهول. شخصيّتي قد شكّلتها الدّموع؛ دموعُ التّمرد، دموعُ الخضوع، ودموع العرفان... ودونما توقف لنظرة أخرى تركتُها ورائي. سرّاً، خشيتُ أنْ ألمح بين الظّلال ابتسامة متندّرة، أنْ أسمع بعد وقت قصير من هروبي همسات تحذّرني من تهنئتي لنفسي.

-15-

السّحب - تتخلّلها أشعة الشّمس - تغيّرت باستمرار وهي تطفو في السّماء العظيمة. بدا أنّها تجرُّ مكوّنات الطّبيعة وراءها وهي تتحرَّك: الميادين بنوافيرها، والمنازل الحجريّة متاخمةٌ للكنائس ذات القباب، والنّهر، وأشجار الصّنوبر على سفوح التّلال، والرّيف المهجور من ورائها، والجبال القصيّة. كان كلّ شيءٌ نديّاً في ضوء الشمس المُبهر، كلّ شيء يتغير باستمرار ومع ذلك أزليّ.

شاهدتُ هذه السّماء من قبل، في طفولتي خلال إجازة. حلّقتُ في المشهد آنذاك كما يحدثُ الآن. قد أكون الإنسانة ذاتها، وأبدأ شبابي من جديد. أردتُ امتلاك روما. حسبتُ أنّي إذا أردتُ روما بما يكفي، فسوف تمنحني كل ما أطلبه. يوماً ما، سينبض نبضها مع نبضي، سأمتلك كل ما توفره، بنظرة طويلة... أستمد متعتي في الوقت الحالي من مشهد الغروب المشتعل على النّهر وجبل ماريو، حيث أقمت. بعد يوم طويل ومرهق في مكتبي المنزلي، اصطحبتُ ابني للشرفة لنشاهده.

يصعب عليَّ وصف شعوري في الشّهور الأولى في روما، كما يصعب عليَّ وصف سني طفولتي الأولى. كانت في غاية التّمزّق: لا أتذكّر سوى تعاقب الانطباعات، صور لامعة؛ صدى أصوات من عالم قدم لي حافزاً لا نهائي... كل ما يمكنني قوله هو أنّ المدينة دفعتني للانتشاء ومنحتني السّلام.

قرّرتُ تأجيل اسكتشاف الصّروح التّاريخيّة لوقت لاحق، جميلة

وعظيمة كما كانت دوماً. وبدلاً من ذلك غصَّت بسعادة في الضّواحي الجديدة. وجدت فيها نشاطاً متسارعاً تذكرته من مدينة طفولتي. لكنّي قابلتُ أيضاً في كل زاوية صوراً أسطوريّة عتيقة، والتي أسكتتني وقادتني للتّأمل، ألهتني عن إخفاقات متواصلة في الحياة اليوميّة. ووجدتُ أيضاً – على الأقل عندما توقعتها – بعض التّذكارات التي تُعنون حدثاً أعرفه من تاريخ حديث وثقافة. شعرت أحياناً أن الأشخاص الذين صنعوا التاريخ والثقافة ما زالوا يعيشون هناك، وأنّ بإمكاني محادثتهم. يكون هذا الشّعور غامراً أحياناً، ممّا يجعلني أنتحب إذا كنت وحيدة، أو برفقة ابني، حتّى إذا كنتُ في تمام الاسترخاء. لقد انحسر المستقبل القصي، وأمسى الحاضر أكثر إشكالاً من ذي قبل، وبدا أنّي على وشك فقدان اتّصالي بذاتي.

أصبحتُ أعي لسبب مبهم وجود شيء آخر في المدينة. شيء من المهم لي أن أعرفه. يغلّف نُصبَه الرّخاميّة من الماضي المجيد إلى العصر الحديث. الفقر منتشر، وأشخاص يعيشون محشورين في سكن واحد، ورغم أنّ المدينة حاولت تجاهلهم، إلا أنّ مفاتيح المستقبل كانت بأيديها.

كيف اكتشفت أمر هؤلاء الأشخاص بسرعة؟ لعل ذلك من خلالكِ، يا أمّي الجديدة، يا من احتويتني واحتويتي الجميع بلطفك. التقيتكِ أول مرّة في منزلكِ في جيانكولو، ذي الجدران المكسوّة بلوحات لأصدقاء راحلين ومعاصرين، أشخاص معروفون وآخرون مغمورون. عندما شاهدتُ هيئتكِ المنحنية الممتلئة أوّل مرّة تذكرتُ أمي، وأنتِ بدوركِ، ناديتني ابنتي فوراً. أخذتِ ابني في حجركِ وتأملتِنا طويلاً، باستفهام، كما لو كنتِ تحاولين معرفة سبب تعلّق ابني بي. ما الذي استنتجتِه؟ لم أكّلمك عن المسألة، لكنّي شعرتُ أنّكِ فهمتِها. وعندما تكلّمتِ، كلمتِني عن عملك على مرّ السنوات وإنجازاتِك التي حققتِها بسبب عزيمتكِ القويّة وإصراركِ على تحقيق العدالة. شعرتُ بتقاربنا.

هيمن عملي الرّوتيني اليومي على أغلب أيّام عملي. ذهبتُ مرتين أو ثلاث مرات لمكاتب مجلّة موليير في بياتزا دي سبانيا، لكنّي عملتُ غالباً

- كما اتفقنا - من المنزل. وكنتُ أكتبُ المراجعات عن الكتب أحياناً، لكنّ عملي الرئيس اقتضى تلخيص وترجمة مقالات الصّحف الأجنبيّة.

المحررة، ورغم أنّها امتلأت سروراً، إلّا أنّ شبابي قد فاجأها. لم تتمكن من فهم كيف لامرأة تشبه «مريم العذراء اليافعة» الكتابة بإحكام جدّي. إنّها امرأة جذّابة في الأربعينيات من عمرها. لقد قسّمت وقتها بين كتابة الرّوايات، والاعتناء بأسرتها، وتنظيم صالونها الأدبي. كوّنت اسمها قبل خمسة عشر عاماً، وفي الوقت الرّاهن هي في مرحلة حاسمة من تاريخها المهني. لقد بزغ نجم عدد من الكاتبات الجديدات، وخشِيَتْ أنْ تُنسى. ولعلّها لهذا السّبب قبلَت عملي في المجلة؛ لعلّها أملت أن يبقيها هذا الفعل في المشهد الأدبي. خلّدت ملاحظات وأوصاف رواياتها صفحات حقيقيّة وصادقة، لكنّها لم تجد أنّ عملها واضح الهدف، ولذلك، كانت تكتب كثيراً. وفي الآونة الأخيرة توصّلَتْ لأفكار جديدة، لكنّها لم تدعمها بأدلّة، ولم تمانع إذا تحولت المجلة إلى تنظير تجاري سافر. وبعد وقت قصير أدركَتْ أنّها مجرّد اسم سُخّر لخدمة المجلة، وأنّ النّاشر هو من يدير العمل الحقيقي، إنّه رجل قصير، ممتلئ، ومُحمر الوجه. كان يمثّل بالنّسبة لي آصرة كاملة من الاهتمامات التي تهددها حركة النسويات الجديدة. برجوازي تافه، مظهره رثّ وبدلاته بالية. يمكن العثور عليه دائماً إلى جانب مكتب المحرّرة. وجدته الممثل الحقيقي للمتراهنين الذين اقتاتوا على التّرهات النّسائية والحماقة. هو من وضع بذكاء صوت الاهتمام التّجاري المتمثّل بصور عارضات متأنقات، إلى جانب بيان تحرير المرأة، مصحوباً بنصيحة تدعو إلى عدم التّطرف من الجيل السّابق.

مصدر نموذج المجلة غالباً - كما أعتقد - من فرنسا، كأغلب صرعات القبعات الحديثة. مزيج من ذوق المحرّرة الجيّد، ودهاء النّاشر، ممّا منحها شيئاً من التّجانس رغم اختلاف مضمونها كلّيا. وجدَت المجلّة طريقها لمنازل كثيرة. أيّما امرأة مثقفة وجادّة ستهتم بها لفترة قصيرة، لكنّها جلبت

المتعة لأي امرأة بحثت عن مقالات تُعنى بما يمنح حياتها معنى أكبر. حتّى أنّ المجلة تمكنت من نقل شعور غريب ومزعج بوجود عالم معاصر يبنى في مكان ما.

جزءٌ بسيطٌ من مضمونها وافق البيان الأصلي للنّسوية، والذي كُرّست له في لحظة حماس. شعرتُ بالإهانة غالباً ممّا أفعله هناك، وانكببتُ على العمل - والذي وجدته في غاية الصّعوبة، بسبب انعدام خبرتي آنذاك. خشيت مواجهة سخرية زوجي، لم يسامحني حتّى الآن على إجباره على الانتقال لروما. بدأ العمل في مشروعه بتردد، لأنه اعتاد على العمل الرّوتيني في منصب مساعد فترة طويلة. شعر بالانزعاج مع الحريّة والمسؤوليّة. لم يتمكّن من إيجاد روتين يومي، شاهدني بغيظ. بإمكاني أنْ أقول إنّه كان ينتظر أدنى إشارة على اعتمادي على نفسي، أي شيء يبرّر له إعادة تأكيده على سلطته.

لكن كان لوظيفتي إيجابيّاتها. تمكّنتُ من جلب دوريّات أجنبيّة من المكتب للمنزل. ومن ثمّ، حتّى أكثر أهمية منها، بدأتُ لأوّل مرّة تكوين صداقات ولقاء نساء مختلفات كثيرات، على سبيل المثال: طبيبة كتبت العمود الطّبي (والذي أدرَج فيه النّاشر إعلانات لصالونات ومستحضرات التّجميل). وامرأة نرويجيّة، طويلة وشقراء رسَمت شخصيات الحكايات الخياليّة المصوّرة للأطفال. وشابّة سمح لها أهلها باستخدام اسمها الأرستقراطي، ممّا منحها «التّميز» لتكتب العمود الاجتماعي. قابلتُهم في صالون المحرِّرة الذي سمح لي زوجي بارتياده، عندما وافقتُ على عدم تكوين صداقات حميمة. وفي الواقع، جلستُ غالباً بهدوء في زاوية لأتأمّل مجموعة من الأشخاص الاستثنائيين، وأنا أفكر بوجود صورة لحياة حقيقية أكثر دقّة من التي قد أقرأ عنها في أي كتاب.

وبعد وقت قصير من عملي زرتُ الرّسامين الذين يرسمون للمجلّة. اصطحبني النّاشر في جولة، ابتسامة متهكّمة على شفتيْه الصغيرتيْن. كان أحد العمّال يعدّ الصّفحة التي كتبتُها للطّباعة. طلب منّي إضافة بضع

كلمات من أجل الشّكل الخارجي. ووسط ضجّة الأجهزة الضّخمة، شاهدتُ قبل جفاف الحبر على الصفحة، كلماتي مصفوفةً. امتلأت عيناي بالدّموع وخفقَ قلبي بقوّة...

الأيام التي أمضيتُها بفخر وثقة وأنا أعمل إلى جانب موظّفي والدي أتتْ أُكُلَها أخيراً. أمّا انزوائي الطّويل مع طفلي في غرفة النوم الخانقة، حيث شيّدت كثيراً من الخيالات المؤلمة، بدتْ حلماً بعيداً.

أحببتُ ذلك الخريف الرّوماني. مشيتُ في المدينة، أتذوق غموض وسحر كل ما شاهدته، ومنحته قيمة رمزيّة في عقلي. صادفتُ أحياناً غرباء حدقوا فِيَّ بهيبة لوهلة، كما لو كانوا أشباحاً. تخيّلتُ أنّهم علماء، ربما، أو غرباء اكتشفوا أنّ الشّمس الإيطاليّة يمكنها إنارة حقائق داخليّة: أو ربما كانوا أسطوريين مثاليين، يصنعون حياة مثاليّة للمستقبل. أدركتُ حجم رومانسيتي الكبير، لكن ذلك لم يشعرني بالحرج بتاتاً. وجدتُ السّلوان في رحاب روما. وبطريقة ما، ولأنّها منصهرة بالماضي، ساعدتني على تصديق أنّ أي شيء قد يتحقّق في المستقبل، حتّى السّعادة لكل البشر.

أتذكر ذات ظهيرة في تشرين الثّاني: كنت جالسة إلى مكتبي الصّغير، وواضعة عيني بيدي. قابلني رجل شاحب جالساً. عيناه بنّيتان كبيرتان متأجّجتان، في وجهٍ هزيل. تقاسيم وجهه في غاية الجمال، بمزيج من الطّمأنينة والعذاب، عيناه وجبينه سلام مهيمن. تمدّد ابني على السّجادة، توقف هذا الرجل بين الفينة والأخرى عن الحّديث، ومال للأمام، ومرّر يده البيضاء الرّقيقة بين تموجات شعر ابني. شعرتُ بوجود زوجي قرب كتفي. كان يتصفح كتاباً بشرود، ويحاول إيجاد شيء يفعله.

الرّجل الذي يكلمني عرَّفَتْني عليه المرأة التي اعتبرتُها أمّي الجديدة. كنتُ قد قرأتُ كتبه التي كتبها باسم مستعار، وناقشتُ أفكاره مع آخرين مرات كثيرة. ووفقاً للشّائعات، كان موظفاً مدنيّاً وقد استقال من منصبه حتى يتمكن من التّعبير عن آرائه بشفافيّة أكبر. قال النّاس إنّه يعيش في فقر شديد، ويكتب كتاباً جديداً يجمع فيه فلسفته أخيراً. جذبتني صراحته

تماماً، وابتسامتُه الودودة عندما التقينا أول مرّة. لقد منحتني الشّجاعة لدعوته للمنزل على الرّغم من تحفّظات زوجي المعتادة.

إنّه يخبرني الآن كثيراً من الأشياء! يتحدّث بلهجة جنوبيّة، مما يمنح دِفئَه وحزمه عذوبة. حدّثني دون توكيد - كما لو كان يتمرّن على قراءة خطاب - عن المرأة، والقانون، وثقل العادات. تكلّم بأفكار تشبه أفكاري، رغم أنّه يعبر عنها بتبسيط أكبر. وعلى عكسي، ازدرى العلومَ ونظريات الإصلاح الاجتماعي الحديثة. وبشيءٍ من السّخرية قال إنّ عليَّ الشّعور بالامتنان، لأنّي تلقّيتُ تعليماً نظامياً. البحث الحديث - كما يقول - إلى جانب كونه مليئاً بالأوهام، اتّجه لمسارٍ خاطئ.

رفَعَ رِجلَه فجأة، كما لو أنّه قد شاهد منظراً أخّاذاً لم يشاهده أحد. لم يتحدّث بعدها عن الأخطاء، ولا الجنون، ولا التّضحية. وبدلاً من ذلك احتضن ابني، وأخبرني عن طفولته المتهوّرة. مدّ لي يده كما لو أنّه سيمهر اتفاقيّةً بختم. ثمّ غادر، وأخذ رؤيتَه وسِرَّه معه...

لم يقل زوجي شيئاً. وبعد لحظة صمت، غادر هو الآخر الغرفة. شعرتُ بهزيمة ساحقة، وعند شعوري بذلك، انصبّ اهتمام ابني على كتابه المصوّر. فكّرتُ بوالدي؛ فقبل عدة سنوات منحني هكذا تغذية ذهنيّة. وأحياناً، وأنا أستمع إليه، كنت أرتعش من الإثارة. كانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها شخصاً آخر له أصالة مشابهة، شخصٌ قد يكون قادراً على ترجمة العالم وتعليمي شيئاً ما. وحتّى ذلك الحين كنتُ قد صدّقت أنّ عهد الرّجال ذوي البصيرة قد ولّى إلى غير رجعة. لعلّي مخطئة.

شعرتُ بالدُّوار لوهلة، ثمّ استعدْتُ هدوئي. شعرت بقدرتي على تصديق أيّ رؤيا. قبيل معاودة عملي الصّحفي المتدني، ذهبت إلى شرفتي وشاهدت قرص الشمس المذهل فوق أشجار السّرو على جبل ماريو. سحابتان وهّاجتان مرَّتا من فوقي، أشبعتا الأفق بلونٍ أحمرَ قانٍ. سيتركّز هذا الغروب في ذاكرتي، ويستحيل إزالته.

-16-

بحلول عيد الميلاد اكتست الأرض بكرزٍ قرمزيّ، وفي ميدان نافونا وضعت الأخشاب. أحَبَّ ابني كلَّ هذا. بعدها، عندما حلّ شهر شباط، التقينا بشباب غرباء، فارعي القامة، وشعورهم شقراء، ونساء يحملن عدداً هائلاً من بتلات الزّهور القاتمة إلى منازلهن على امتداد الشّوارع، وابتعنا نحن أيضاً جذوع أشجار وأخذناها للمنزل معنا. لقد أضافت حياةً ولوناً للصّور التي علّقتُها على الجدران: صورة قدّيسة من كنيسة سيستين، وغويداريلّو يتوسّد وسادته الحجرية بسلام في مشهد درامي، وتصوير لامرأة نائمة أهدتني إياه صديقة نرويجيّة، وصور ليوباردي، وجورج ساند بشعرها المموج، وإمرسون، وإبسن. طمأنني وجودهم في روتيني اليومي، وساعدني على العمل والأمل. وجدت عملي صعباً. راودتني أفكار وصور كثيرة وأنا أعمل في حدائق فيلا بورخيسي أو على طول جانبي نهر تيبر، فشعرت مرات عديدة بصعوبة التّركيز.

الأشياء التي فكرت فيها لها ارتباط بسيط بعملي، والذي مِلتُ لإنجازه بآليّة. لاحظتُ هذه الفجوة، لكنّها لم تقلقني: كنتُ قد قررت أنّ حلمي في أن أصبح كاتبة هو طموحٌ كبير، وبدلاً من ذلك عملت على المواضيع التي تهمّني، وكوّنتُ ملاحظات تتعلّق بمواد إخبارية ذات صلة، وأيّ إحصاءات صادفتني. كان هذا كفيلاً بإرضائي أحياناً. وعلى أي حال، عندما شاهدت تكاثر كتب متوسطة الجودة في المكتب كتبتْها نساءٌ أخريات، واجهتُ صعوبة في كبح جماح غضبي. وجدتُها مجرّد

محاكاة ساخرة لأسلوب الأدب الذكوري، والأدهى أنّ كاتباته هنّ نساء أكثر زيفاً وغباءً من دمى المجتمع واللاتي نشرنا في مجلتنا صور شقَقِهن ذات «التّصميم العصري». ألم يعرفن أنّ العالم الأدبي مكتظٌّ أصلاً؟ متى ستدرك هؤلاء «المثقّفات» أنهنّ يستحقِقْنَ مكاناً فيه فقط من خلال إنجاز كتب تعبّر تعبيراً قويّاً عنهن؟

وبتردُّدٍ قلتُ الكثيرَ لمحرِّرَتنا، التي كنت أهاب عادةً إخبارَها عمّا أفكّر فيه كثيراً. ابتسمتْ، وضيّقت عينيها ضعيفتَي البصر، ثمّ تنهّدت. بدا أنّ سحابةً تظلّل وجهَها. شعرتُ بالعار. كنت عديمة الأهمية مقارنةً بها. هل اعتقدتْ أنّ «بيروجينو» – كما كانت تناديني – قد تجرّأتْ الآن كثيراً لدرجة انتقاد عملها، أيضاً؟

ومع ذلك علمتُ أنّها لم ترضَ رضىً تاماً عن الرّوايات التي كتبَتها. كما علمتُ أيضاً أنّها لم ترضَ عن نفسها أو حياتها الشّخصية. زوجها، محامٍ لامع، كان حاذقاً، إنّه رجل مميز. اعتقد الجميع أنّه زوجٌ وأبٌ مثاليٌ، لكنّي لم أجده الشّريك الأمثل لها. لم يعترض طريق طموحاتها إطلاقاً، وكانا يحترمان بعضهما، لكن رغم اعتقاد الجميع أنّهما سعيدان مع بعضهما، اشتبهتُ أنّهما ظلّا معاً من أجل بناتهما.

لم ألتقِ قَطّ بابنتها الكبرى، وشعرتُ أنّها تدرك واقع الحال بين والديها. رغم أنّها في الثّامنة عشرة فقط. كانت شابّة ذات إصرار، جمالها يخفي عزمَها، ممّا جعل حياتها تتناغم مع مبادئها. وجدتُ فيها مُمثّلةً عن المستقبل. منحتني أملاً في أنّ تأملاتي سوف تنتقل للجيل التّالي، وتصبح جزءاً من المستقبل. لم أشعر بهذا من قبل. لكن لو كان هذا سيحدث، لو كنت سأنقل معرفتي التي اكتسبتُها حديثاً، فسوف أسيّر عواطفي العاصفة باتّجاه شيء غير الصّراع الدّاخلي. فهل سأتمكن من فعل ذلك؟

شعرتُ أنّ هذا السّؤال يلحُّ عليَّ تحديداً إذا زرتُ أمّي «الجديدة» في منزلها في جيانيكولو. بدا أنّها هي الأخرى تسألني إيّاهُ أيضاً. جلستُ عند

قدمَيها وأصغيتُ إلى قصّة حياتها العجيبة. إذا كانت ابنة المحرّرة تقف على أعتاب حياة المستقبل حين تكون النّساء أكثر وعياً وأكثرَ احتراماً لذواتهن منّي، فإنّ هذه المرأة الأكبر سنّاً - والتي ينير وجهُها همّةً رغم اشتعال رأسها شيباً - قد جسّدت الرّابط بعبقريّة الأنثى، والموجودة دوماً، غير أنّ نساءً معدودات مميّزات توصّلن لها، بما أنّ النّساء يحتجْنَ دائماً لقوّة جبّارة للتغلُّب على عوائق القانون والعُرف.

في شبابها كان انتماؤها جمهورياً. غدت لاحقاً ناشطة في حركات الإصلاح الاجتماعي - ومزاجيّاً منجذبةً للفعل المباشر أكبر من الجدال. وقبل ثلاثين عاماً، غادرت لومباردي وجاءت إلى روما، وعاشت بانفتاح مع نحّاتٍ شهير حتّى وفاته. وخلال حياتها في روما عملت بجهد فائق لتحسين ظروف المعوزين - وكانت النتائج باهرة. حتّى أنّها شنّت حملات ضارية لإدخال تحسيناتٍ جزئيّة، كإصلاحات في تكوين المؤسّسات الخيريّة الخاصّة، وتقديم خطط المساعدة العامّة. طرقت أبواب الأثرياء باستمرار، حتّى لو كان المال الذي ستستخلصه منهم قليلاً. تباين كلّ ما سبق تبايناً شديداً مع إيمانها بالعبء الكبير لمؤسّسات الطّبقة العليا سيحتاج في نهاية المطاف لإسقاطه بالقوّة. تساءلتُ عمّا إذا نقَلت فلسفتها العنيدة للعُمّال الشّباب الذين درّستهم في كليّة الشَّعْب التي أسّستْها. أذهلتْني لأنها جمعت بين الرّفض التّنظيري لنظام عَفَّى عليه الزّمن وعاشتْ في ظلّه بكرم سَمَحَ لها بالعمل على مستوى عمليّ لإصلاح الأحوال المعاصرة. لقد أدركَتْ، أكثر من أي شخص، الجمالَ المريع للزّمن الذي نعيشه: محاولات إصلاحية اجتماعية متفرّقة، توقٌ طموح لاكتشافات علميّة ثوريّة، وبحثٌ عن مُثل معاصرة حديثة تفوق البشر.

عند ذهابي لمنزلها قابلتُ فئةً من البشر لم ألتقِ بها من قبل - كما حدث في صالون محرّرة المجلة. إلّا أنهم كانوا أكثر تنوّعاً هنا. حبيبها قد كوّن صداقات في عالم الفن، فأقامت بين أشخاص عاديين. كانت محاطة بالشّعراء، والقوّادين، والعاهرات، والمحظيّات، ورجال الدّولة،

والرّحّالة. اعتقدتُ أحياناً أنّ العالم أجمع محتشد في غرف منزلها. ومن بعض زائريها سمعت عن أشخاص لم أسمع عنهم من قبل، والذين عاشوا في مجتمعات بعيدة، وأفكارهم عن الحياة وتنظيم الكون غير مفهومة بتاتاً لنا. امتلأتُ رعباً. هل تقتصر حضارتنا على مجموعة صغيرة من النّاس على هذا الكوكب؟ أليست روما مركز الإلهام، مهد ثقافات كل الأمم المتقدمة؟ لماذا لم يخطر في بال المسافرين الذين زاروها، ولهم آمال مختلفة، أنّ من روما بإمكانهم استخلاص رسالة روحانيّة قد توحّدهم معاً في مهمّة مشتركة في نهاية المطاف؟

تأرجحتُ في تلك الفترة الزّمنيّة بين التّفاؤل المفرط والإحباط الشّديد. أخذتني صديقتي الجديدة إلى مقاطعة سان لورينزو ذات يوم. جعل المكان دمي بارداً. أردتُ ببساطة أن أدمّره، كلّه. هل شعرتُ بهذا من قبل؟ الشّمس السّاطعة في الخارج تحرق الشّارع. وفي تلال تيبورتين البعيدة صعدتُ كملاذ آمن. لكن لم تنفذ أشعّة الشّمس للبيت الذي دخلناه. سلالم معتمة منقّطة بالنّدى أمامنا. عند كل طابق شاهدنا أروقةً إضاءتُها سيّئة، وسيداتٍ نصفَ كاسيات اجتمعن ليشاهدننا، قمصانهن القذرة بالكاد تغطي أثداءهن. حدّقن فينا، بعداء، أخفنني لأنّهن اختبَرنَ أعماقَ رعبٍ لا أعرف عنه شيئاً. بأصوات مبحوحة أخبرننا عن المرض، والولادات، إغلاق الأبواب في وجوههن، والحوادث. لم يطلبن شيئاً، وقَبِلْنَ كلّ شيء. نزلت فتاة صغيرة من السلّم، ما تزال متورّدة الوجنتيْن، وما تزال ابتسامتها بريئة، ثمّ اختفت. روائح بغيضة انبعثت من الأبواب المفتوحة. المبنى بأكمله يردّد صدى أصوات مجلجلة، تصرخ، وتتذمّر...

لمحت فجأة خلف الشوارع من جديد ذلك الرّيف المسالم في الأفق البعيد. وودِدْتُ كثيراً الهروب لمروجه وجداوله. أردتُ نسيان حقيقة أنّ هناك بشراً - بشرٌ مثلي، ومثل ابني، كالمرأة النّزيهة التي أخذتني إلى هنا - يعيشون في أطمار، وفي غرف لا يوجد فيها تهوية، يقاسون البرد، ويجهلون أسباب تقوقعهم في هكذا عشوائيّات.

واجبي يكمن هنا. كنت متيقنة من وجوب الارتماء في أحضان الحياة الشّاقة ومواجهة هذا الواقع الوحشي. أردتُ إخراج كل شخص من هناك، ليستمتع بالضّوء، والأشياء الجميلة، سواء أكانت بسيطة أو مترفة، من ضروريات الحياة أو مجرد كماليات. أردتُ أن أعرّف أولئك الذين أعجبوا بقصور روما بهذا المكان، الذين يتمهّلون عند نوافيرها، ويجتمعون في المسارح مساءً، ويحتشدون لمشاهدة أميرٍ يمشي قربهم، أو ليشاهدوا كشف تمثال تافه. وإذا – بعد مشاهدة التّمثال – تمكّنوا من تجاهل هكذا بؤس، فسوف أسعَد بإعطاء الإشارة لتحطيمها جميعاً!

شخصٌ واحدٌ قد تبرّأ منها جميعاً. لقد أذهلني كثيراً، ممّا جعلني أنسى أي فكرة مصيبة أو خاطئة. إنّه الرّجل الذي زارني، الرّجل الذي ألهمني أسرار الحياة العظيمة – «النّبي»، كما أسمتْه محرّرتُنا. الوحيد الذي وافق زوجي على زيارته لنا في المنزل، الاستثناء الوحيد لشرطه. لعلّه وافق بسبب ما يُعرف عن «النّبي» بأنّ العزوبيّة تثلج صدره. لكنّ زيارته في الواقع كانت نادرة، وإذا فعل، تكونُ زيارته قصيرة. رغم إقامتنا في المنطقة ذاتها، والتقائنا في الشارع أحياناً، ومشينا إلى جانب بعضنا شيئاً من الوقت. أمسك ابني بيدي بعفوية دائماً. من الصّعب تفسير الشّيء المشترك بيننا وبين هذا الرّجل الغامض المتنسّك. بدا أن لديه حاجة لا يعيها للحديث أحياناً، وإطلاع شخص آخر على عالمه الوحيد. تمكّنتُ من الاستماع إليه. لم أفهم ما قاله تماماً، وعلى أي حال، كنت مقتنعة أنّ عمله سيعود بالنّفع على البشريّة.

خشيتُ في لقائنا الأول من احتمال أن يكون صوفيّاً أو ببساطة نزقاً: لطالما خشيتُ البحث الرّوحاني، وأعزوا هذا الخوف للجُّبن الثّقافي. لكن مع انحسار القلق، اكتشفتُ ما فاجأني، أنّي كنت مستعدةً لقبول أنّ مكاشفتَه تقدّم شيئاً لي، أنّ بإمكاني تصديقه لأسبابٍ مجهولة.

تحدّث عن لغز الوجود، والطّريقة التي ينظر بها البشر للغيبيّات

لتفسير أصولهم وأقدارهم. كنت في غاية الافتتان، فبدأت أشعر بالخجل من استهانتي بالقرار المتعلّق بأزمتي الدينيّة خلال فترة اكتئابي الحادّ. كان عليَّ الاعتراف أنّ مقدرتي على المعاناة الرّوحية أقل بكثير من مقدرته. قد تكونُ معاناته عقيمة، لكنّه يمتلك على الأقل سُؤدُدَ شخصٍ يرغب في تخطّي حدودِه.

وهكذا، جعلني أشعر بالتّواضع. شعرتُ أنّي أمّه وابنته. جذبني إليه زهدُه في الحياة، ومراقبتُه لذاته - حتّى عندما عارض هذا رغبته في الوثوق فِيَّ. أحببتُ أيضاً مشاهدة جسده الواهن، المملوء فخراً. لم يخطر في بالي التّفكير إذا عرف بمشاعري هذه. لم أحاول التّعبير عن مشاعري الدّافئة علناً بتاتاً، وحتّى زوجي لم يشعر بحاجته لإبداء الرّأي في علاقتنا.

في كلّ أحاديثنا لم يُشِرْ ولا مرّة إلى أسلوب حياته. أرجعتُ السّبب إلى أنّه أراد النّاس أن يتجاهلوا فقرَه، ومسلَكَه الرّواقي في تجاهل الذّات. تقبّل كلَّ ما اعترضَ طريقَه - ابتسامة طفل، وإخلاص امرأة، ودفء الشّمس - بعرفان، لكن كما لو أنّ جزءاً غيرَ مهمّ من ذاته هو الذي تقبّلهم، جزءٌ ليس له تأثير حقيقي على أفكاره أو مقاصده. فكّرت: لا بدّ أنه عانى معاناة شديدة، جلدُ الذّات وهذا الحذر باتا ملاذَين. تساءلت عمّا إذا توصّل إلى نتيجة: أنّ كل الأشياء التي تجعلنا تعساء في حياتنا (السّلب المادي والمعنوي، وشُحّ الغذاء وانعدام المواساة بين البشر، والصداقة، والعناية) هي في جوهرها صغائر. لَعَلَّه قد لاحظ أنّ لا أحد غير البشر الذين يتعلّمون العيش دون هذه الأشياء كلّها، ويمكنهم العيش وحيدين، وينعشون أنفسهم في عزلة، سيصبحون أشدّاء أقوياء...

لم أستطعْ تحديدَ إذا أراد الآخرين أن يكونوا مثله. كان من الصعب تصديق أنّه يودّ ذلك، لكن إذا لم يرغب في ذلك، فلماذا يوصيني بالصّبر دائماً؟

تعرّفت عليه عن طريق العجوز، وعلمت أنّها تفضّلُه كثيراً، ولذلك سألتُها عنه ذات يوم. هل اصطحبَتْهُ لرؤيتِه الفقرَ المُدقع الذي أرتْني إيّاه؟

أجل، لقد فعلَتْ ذلك، وقد شاهدَ أماكن مشابهة في أماكن أُخرى – في لندن وأمريكا.

«لكن كما تشاهدين يا عزيزتي، إنّه يخبرنا القليل عن ذاته، وأي محاولة لتغيير اجتماعي ليس لها محلٌّ في نظريته الجديدة، هي محاولة طفوليّة وعَبَث. إنه في بحثٍ عن الحقيقة المطلقة، ولا شيء أكثر تضييعاً للوقت، وحتى أكثرَ خطراً، منها. توصّل إلى: معارضة أنّ كل شيء سيتغيّر، وأنّ كل شخص سيموت، وأنّ البراهين القديمة على الخلود لا تنفع الآن، ولذلك هو يحاول استنتاج براهين جديدة سيتقبلها الإنسان المعاصر. لكنّ النّساء آمَنّ بخلودِ الأرواح لقرون دون أنْ تُرشِدَهُنّ [هذه الأرواح] لطُرقٍ لتحسين ظروفهن الاجتماعية».

ثمّ أضافت بحزن: «أجد العزاء ككثيرٍ من الأشخاص في فكرة أنّي سأجتمع بمن فارقتُهم وأحبّهم بعد موتي. تمنّيتُ سنينَ طويلةً أنْ أموتَ قبلَ مَن يعشقني. لكن هذا لم يحدث... ومع ذلك، وبما أنّي وحيدة وعجوز الآن، أنا ممتنّة لذكرياتنا السّعيدة. إنّها تساعدني على الاستمرار... وهي كذلك تذكرني بأنّي نلتُ نصيبي من الحياة. أهمّ درس يمكن أنْ تتعلّميه يا عزيزتي هو: كيف نعيش حيواتنا ونحن نحاول إسعاد الجميع، وتوفير احتياجاتهم. ونحن لا نحقّق ذلك بالنّظر إلى القبر».

جلستُ وفكّرت فيه، وأنا أتذكّر كم اعتبرته منقطعاً تماماً عن العالم، مستغرقاً في أفكاره، وليس لديه أتباع مع ذلك. من الشّعراء الشبّان من تضرّعوا في أبياتهم لمستقبل فيه سعادة غامضة، وجدوا الوقت للتسكُّع في مكاتب التّحرير الكبيرة، لكنّهم لم يذهبوا لسؤال «النبي» عن جوهر رسالته.

تنهّدت صديقتي: «هو بالفعل فريد من نوعه. مشاهدته أحياناً تملؤني سروراً جميلاً، لكنّي أشعر بالخجل من ذاتي كذلك لأني أشفق عليه أساساً... هل وقعت تحت تأثير سحره؟ حسناً، النّساء لا يقاومن الجاذبيّة المجهولة تماماً... أعترف أنّي مثال على ذلك. أجل، أنا نصف مصدّقة لهذا «الغموض»، كما يطلق عليه، وأنا دائماً – كما يقولون: أبقي

النّافذة مفتوحة له، لكنْ يستحيل بقائي عند النافذة طوال اليوم في حال وجود أمور كثيرة يجب أن أنجزها في المنزل!».

ابتسمتْ ابتسامةَ تهكّم. كنت أعرف أنّ ابتسامتها تخفي شغفاً حقيقيّاً وأنّها كانت تخبرني، بأرقّ السّبل، أنّها تفهم مشاعري جيّداً. تمنيتُ لو أنّ بإمكاني مصارحتها، لكني شعرتُ أنّ عذابي يزداد تدريجيّاً. على أي حال، ما الذي تقوله؟ إنّ الحياة رديف الحب. وإذا كان الحب أهم شيء في الحياة فهذا يعني أنّي لم أعش يوماً...

مع نهاية شباط انتشر وباء الإنفلونزا، وقد أصاب ابني. لم تكن أعراضه شديده في البداية، غير أنّه أصبح في حال حرج فجأة. لم يمرض من قبل، فجزعتُ جزعاً مهولاً. أتذكر تفاصيل تلك الليلة بدقّة. لقد ازدادت فيها أعراض المرض كثيراً، وبدأ يهلوس، ومرّ بتشنّجات عصبيّة مسخت وجهه تماماً، بالكاد تعرفت عليه. كان تغييراً مرعباً؛ فقبل وقت قصير كان ذاك الطفلَ الباسم ذا السّنوات الخمس. خشينا أنّ يكون مريضاً بالسّحايا. تقافزت الكلمة في عقلي حتى قضت على أي فكرة أخرى، كما مرضت أنا أيضاً بضعة أيّام، ولم أرتدِ إلّا فستاناً أثناء انتظار الطّبيبة. جعلتني نسمات الليل أرتعش، وكنت أذهب لابني باستمرار، والذي كان يدفعني بعيداً عنه أحياناً، وهو ينظر إليَّ بخواء. لم يتعرّف عليَّ بتاتاً. ارتميتُ على الأريكة بيأس، ثم ذهبتُ إليه من جديد على أمل أن يتعرّف عليَّ. ولساعة، وربما ساعتين، سيطرت عليَّ فكرة أنّه قد يموت. بدأت أنتحب عندما شاهدت تشنُّجاته أول مرّة، لكنّ دموعي جفّت وأنا أحاول اتّخاذ قرار فيما إذا كنتُ سأقتل نفسي بعد موته مباشرة، أم أنّ الجميع سيراقبونني وسيكون عليَّ اللجوء لحيلة. فلن يبقى لي شيء أعيش من أجله إذا مات ابني. ألم يكن هو دافعي الوحيد للعيش في تلك الليلة المشؤومة قبل زمن بعيد...

مرت النّكبة بسلام، لكنّه ظلَّ مستلقيّاً على فراشه أربعين ساعة، دون أن يوحي بحياة أو إرادة. شفتاه مزمومتان بتصلّب، وعندما فتح عينيه، بدا

أنّهما تتوسَّلان إلينا لنوضّح له ما حدث له، أفصحتا عن انزعاج شديد، ولم تفهما أجوبتنا. ورغم أنّي لم أعد أتصوّر وجهه الممسوخ، إلا أنّ بإمكاني الشّعور بالألم الذي شعرت به تلك الفترة. عانيتُ من الحمى، واحتشدت في ذاكرتي صورٌ مريعة، تداخلت إحداها في الأخرى، ومنعتْني من فهم ما يحدث فهماً دقيقاً. لكنّي أتذكّر تلك اللحظة الهانئة، حينما جاءني أخيراً، بابتسامة مرسومة على شفتيه، وتنير وجهه بصوته الخافت ابتسامةٌ جديدة عليَّ كليّاً، لكنّها في الوقت ذاته تلك الابتسامة التي أَنِسْتُ لها دوماً. لقد أجاب الطبيبة عندما سألتْه عن اسمه... جسّدت ابتسامتُه الحياة بأكملها لي في تلك اللحظة.

انحسرت بعدها أعراض المرض. كان مريضاً في غاية الانصياع، توَّاقاً لفعل أي شيء قد يسهم في تماثله للشفاء. وعندما خفّ مرضه، وانزاح الضّيق عن كاهله، سألني: «ماما، ما الذي حلّ بي في تلك الليلة؟ صار لون كل شيء أحمر، ولم أشاهدكِ حولي...». مدّ يده ليلمس وجهي. وامتلأت الغرفة فجأة بألوان بهيجة تجاوزَت الشرفة، واكتظّت سماء آذار بغيوم ذهبيّة، ثمّ حلَّ الظّلام، وبدأتْ ساعات الليل الطّويلة. بقيت وحيدة، لأشاهدها حتّى الشّروق.

أبقيت نظري خلال سهري مثبّتاً علىٰ وجهه المرهق وهو على الوسادة. لكنّي استشعرتُ أحياناً وجود زوجي المزعج. عندما كان ابنُنا في ذروة مرضِه، لاحظتُ حزنَه العميق، لكنّي كنتُ منغمسةً في مشاعريّة مأساويّة منعتْني من التّعاطف معه. كنّا كغريبَيْن جمعتهُما مصادفةٌ تعيسة. جلسنا متعاندَين على طرفي السّرير، لم نقم بأي حركة، ولا حركةٍ واحدة، تجاهَ بعضنا...

فور تخطّي ابني الحبيب لمرحلة الخطر، وتيقّني من بقائه على قيد الحياة، تمكّنت من الحفاظ على سلوك أهدَأ نحوَه. في الواقع، شعرتُ أنّي شبه منعزلة كما كنتُ، عندما خِلْتُهُ سيموت. كنت ما أزال متيقنة من أنّه يمثّلُ أفضَلَ ما فِيَّ: متماسكٌ، وبريءٌ، وصالح. إنّه يحتاج إلى

الرّاحة بعد انتصاره على الموت في الوقت الرّاهن، لكنّه سيشبُّ قويّ العود. كانت هناك أنا أخرى منّي أيضاً... أنا متيقّظة: عواصف الذاكرة، والقلق، وأناي. تجربةٌ مريرةٌ قد أوهنَتْها، وبعثتْ فيها عدم الاطمئنان. ماذا سيحصل لها؟ عاشتْ بتوتّرٍ أكثر من ذي قبل، وتحدِّق بلا أمل في الظّلام المحيق بها، تخاف علانية - ربما لأوّل مرّة - على نفسها وعلى حياتها المستقبلية.

سألتُ نفسي لماذا تمنّيتُ الموت فور أنْ أدركتُ أنّ ابني في خطر. ألا أملك حياةً تخصّني؟ ألا أملك التزامات تجاه ذاتي، التزامات بذات أهمية تربيته، وممتعة كمدّ يد العون له؟

مضت ثلاثة أعوام تقريباً مذ حاولت الانتحار. استغرق تماثلي للشفاء وقتاً طويلاً وبطيئاً، لكن خلال ذلك الوقت حاولت إقناع نفسي وأخرياتٍ - من خلال الكتب والأسوة الحسنة -أنّ في الحياة أهدافاً أكثر أهميّة من السّعادة الفرديّة. حاولتُ تقبُّلَ التّضحيات التي يجدر بي تنفيذُها، وكان من الممكن إنجازُها بسهولة فور إدراكي للرّوابط التي تربطني بباقي المجتمع. راقت لي تلك الفكرة: إنّها تجمع بين إنكار الذّات، ومتعة تمجيد كل التّأملات والأفعال. إذا تمكّنتُ من إهداء نفسي القوة، لكَبْحِ احتياجاتي العاطفيّة والجنسيّة للحيلولة دون السّقوط في أوهام المعتقدات الدّينية.

أنا مجبرةٌ الآن على تقبُّل أنَّ فكرتي العظيمة بحدّ ذاتها وهم، خداع بسيط للذّات. قد أعظ عن ضرورة العيش، لكن مبادئي قد تقوّضتْ، كما لو أنّ صوتَ بكاء ابني المريض الحزين قد أغواني. بمواجهة هذه الحقيقة التي يمكن إنكارها، تفتّتْ كلُّ خيالاتي عن كمال الذّات. أيّاً كان ما أريد التّفكير به، شيء واحد عاش فِيَّ: رابط الزّوجيّة. كان شديد الثّبات، ومُلْزِماً كما عهدتُه قبل ثلاثة أعوام.

-17-

استغرق تماثل ابني للشفاء أسابيع طويلة. في بداية أبريل، مع ظهور أوراق الأشجار الجديدة، اصطحبتُه إلى بلدة (نيمي) بضعة أيام، وهناك استعاد صحّته وقوّته. هذه الفرصة لأكون وحدي معه قرب البحيرة الزرقاء، منحتْني متعةً إضافيّة. وجدتُ أنّ عينيه قد أصبحتا أعمق وأكثر حكمة بعد مرضه، وأنّ ابتسامته أكثر إشراقاً وعذوبة. كان ينمو وبدأ يتذكّر الأشياء. جعلتني النّكبة أدرك إدراكاً تامّاً إخلاصي له. لكنّها جعلتني أشكُّ أيضاً فيما إذا كان هذا كافياً لشَدِّ أزري مستقبلاً.

تابعتُ عملي بعد عودتي لروما: كان زملائي لُطفاء واهتمّوا بي خلال مرض ابني، وتقبّل كلٌّ من النّاشر والمحرّرة غيابي الطّويل. حتّى في الطّقس السيِّئ أحببتُ مشي المسافة القصيرة بين منزلي والمكتب. وعندما وصلت، تدفّق النّشاط فِيَّ بعد هبوب الرّياح، شعرتُ أنّي كأيِّ امرأة عاملة عاديّة. وفور وصولي لمكتبي جلستُ لتقطيع صفحات من المجلات والكتب التي وصلتْ ذلك اليوم، وبدأت جولتي اليوميّة في عالم الكتب. عثرتُ دوماً على مناطق لم تستكشف، تغييرات في مشاهد مألوفة، ومشاهد مفاجئة وغير متوقّعة. خلال تصفّحي لاحظتُ أيَّ المقالات يلزمني قراءتها بتمعُّن، وأيّها يحتاج دراسةً مكثّفة، وأيّها أحتاجُ فقط لقراءته قراءة سطحيّة. شعرتُ يوميّاً برغبة عارمة، لأخذ كل كنوزي معي لأستفرد فيها. لكن النّاشر كان يقاطعني دوماً، ويطّلع على المجلّات بنفسه ليبيّن أيَّ المقالات أثارتْ اهتمامَه – مقالات مملّة غالباً فيها نميمة

أدبيّة. والويل لي إذا تجاهلتُ صراع الرّوائيّين الكاثوليكيّين الذين كانوا يحاربون تدنّي الأجور، أو آخر نداءات الفاتيكان، أو استقبالات الملكة الأم للمثقفين.

اندلعت جدالاتٌ بسيطة بين طاقم العمل ونحن ندفع بمسؤولية هذه المواضع على بعضنا بعضاً. إذا كانت المحرّرة في مزاج جيّد فستتحمَّل هذا الضجر بنفسها، وبقدرتها على الوصف ستُنجز أعمالها في وقت قصير. وقفت إلى صفّ الناشر دوماً. «كل ما تحتاجينه هو بعض الأسلوب، ستتمكّنين بعدها من كتابة أيّ شيء يا بيروجينو»، كانت تقول باستمرار. «بإمكانكِ الاحتفاء بالنّعامة التي تعطي قبّعاتنا الرّيش، أو بالقديس أنطوني الذي يحمي زواجاتنا – لكن فقط إذا امتلكتِ أسلوباً». إنّها تسوّي كل نزاعاتنا بهكذا تعليقات.

لا يستطيع أي شخص إنكار أنّها تملك «أسلوباً». جلبت المحرّرة الفنيّة النرويجيّة مجموعةَ رسومات كرتونيّة للمحرِّرة، وهي تتموضع بأسلوب أنيق في أحد الأيّام. وجدتها رائعة، ثمّ ذهبت إلى مرسمها ذات يوم في باريولي ودفعت مجموعة أوراق أخرى بين يدي. النّظرة الغريبة التي رمقتْني بها – نصف بريئة، ونصف حكيمة – بدت شماليّة تماماً بالنّسبة لي، وعندما نظرت للأسفل ذُهِلْتُ عندما وجدْتُ نفسي هناك، على الورق، مرسومةً بأطوارٍ مزاجيّة مختلفة، بعضها يزيدني جمالاً، وبعضها صادم، وفي منتهى الإهانة.

كان كما لو أنّي – وأنا أقف شاردة الذهن أمام المرآة – قد بيّنت لنفسي لأول مرّة قدراتي التي لم أتوقّعْها. جعلتْني رسوماتُها أفكّر لأوّل مرّة في هزيمتي، ثمرةُ الخيبة المريرة تلك. صفة لم أمتلكها، وأظنّني لن أفعل – بما أنّ آمالي كلّها معقودة على المستقبل، ممّا يجعلني لا أطيق أيّ مخاطرة في الوهم. تعلّقتْ بشغفٍ بابني، وزارتْنا مراراً حتى بعد تماثله للشفاء. لا بدّ أنّها فهمت طبيعة علاقتنا.

ولتكسب ثقتي بها أخبرتْني قصّة حياتها. أجبرها والداها على الزواج

من متديِّنٍ محلّي وهي في السّادسة عشرة. «مملٌّ جدّاً يا عزيزتي، مملٌّ جدّاً». بدأت أفهم معنى تعبيرات التّعجب التقليدي الجسديّة، والتي استخدمتْها كثيراً دونَ داعٍ. راقبتُ شفتَيها المتحرّكتين وهي تتكلّم، وابتسامتَها الدائمة، والتي عبّرت عن كلّ إحساس بدءاً من السّرور وانتهاءً بالكدر، ولاحظتُ هدوءَ عينَيها بتباين، وهي تصف سنواتٍ خمس سُجنت فيها في منزل سجّانٍ مؤمنٍ متديِّن. ومنذ ذلك الحين، تعلّمتُ تقدير المشاعر العميقة، والأسلوب المباشر للأدب الشّمالي، والفضل يعود لها في ذلك.

«لقد أحبّني، كما تعرفين. كلانا خدم الرّب، ترافقنا في خدمته. الرّب في كلّ مكان، وموجودٌ في كل الأزمنة، أيّاً كان ما نفعله، في كل زاوية من زوايا المنزل. أوه، كان مملّاً للغاية، مملّاً للغاية!».

أخبرتني ذات يوم صراحةً أنّها أرادتْ «أنْ تبتعدَ عن الرّب». اشتعل جدالٌ بينهما؛ فهو يفضّل الرّب، لكنّها أخبرتْه أنْ يختار بينهما...

قالت لي: «ربُّكم الإيطالي يبعث على الرّاحة أكثر. يمكنكم خدمته دون أن ترهقوا أنفسكم، لأنّكم لا تعرفون إذا كان يدرك وجودنا. تدعونه عندما تحتاجونه، وبعد ذلك تودعونه، ثمّ تنصرفون لمشاغلكم».

جاءت إلى إيطاليا لوحدها. دولةٌ تمنّت زيارتها منذ طفولتها. عملت في البداية كمعلّمة، ثمّ كرسّامة في مجلّات الصَّرعات. ودفعها نجاحُها الباهر مؤخّراً للتّركيز على الرّسم كليّاً.

أخبرتني بشجاعة: «زارتني سيدة معيّنة أحياناً... السيّدة هنغر. وكما تعرفين، هي في منتهى القبح!».

لقد أدخلت موجةً من السّعادة لمنزلنا في كل مرّة تزورنا فيها. ضحكتُ معها كما لم أضحك مذْ كنتُ طفلة. رمّمت حياتي لي. حتّى زوجي تخلّى عن تجهُّمه المعتاد وهو يصغي إليها. عارض في البداية سلوكها السّافر، والانفتاح الذي تعيشه - كفنّانة كانت تدرك أنّها ذات جاذبيّة وسحرها الأخّاذ - لكنّ لا بدّ أنّه جوهرها الأنثوي المرح جعله يلقي سلاحه،

وقد فعلت ذلك بتميّزٍ وأناقةِ فساتينها الطويلة، والانسيابية. لم يعترض على توثيق صداقتنا. بل وكان مستعدّاً للذهاب معنا إلى المسرح إذا لم يكن لديه عمل. حتّى أنّه غامر بالمزاح أحياناً، وهي، كاحترام لخفّة دمّه، كانت تجيبه بسخرية، لتستدعي حماساً لا يمكن ضبطه. التقطَت ذات يوم قلمها ورسمت رسماً كاريكاتورياً بشعاً له. وعندما أرتْه إيّاه قهقهت قهقهةً مجلجلةً أهانتْه. أنّبَني بضعة أيامٍ بعدَ الحادثة، حتّى زارتْنا لاحقاً وامتصَّتْ غضبَهُ.

جهّزتْ معرضاً يتضمّن رسومات بالقلم لحفلٍ أقامتْه المحرِّرة احتفالاً بعام المجلة الأوّل، وتركّزَ المعرضُ على دراسة حال ابني في فترة تماثله للشّفاء. لقد حضر الحفل معنا أيضاً، وأعجب به الحضور. ارتديتُ فستاناً خاطتْه صديقتي – سترة بيضاء أبرزت شبهي الكبير بنساءٍ في لوحات العصور الوسطى. أشرفتْ المحرِّرة على الحفل، وتنقّلت بين الضّيوف. كانت فرصتي الأولى لرؤية النّساء الفاتنات اللاتي وصفهن كاتب عمود صحفي بالمثيرات للإعجاب في مقابلات زمنيّة منتظمة، وحفلات الحدائق، ونزهات اصطياد الثّعالب. وجدتهن أشبه بنباتات منزليّة نِلن عنايةً فائقة: بعضهن رقيقات، وبعضهن قويّات، وبعضهن عليلات الصّحة بوضوح. حضرتْ الحفل كاتبتان: شاعرة، تدعو في أبيات قصائدها للانحلال الجنسي – والذي سيجدُه أيّ شخصٍ يتمتّع بالذّائقة الأدبية مقيتاً – وروائيّة كاثوليكيّة، والتي كانت تخصّصت في تحليل الزّنا العاطفي، والذي ينتهي عادة بالتوبة وتأكيد فسخ الزواج. زوجاهما – كلاهما أميران شابّان رومانيّان – معارضان سياسيَّان: أحدُهُما كانَ متطرِّفاً، أمّا الآخر فمؤيِّداً للبابا. لاحظتُ أنّ النّساء يتبادَلْن ابتساماتٍ مهذَّبة حينهما يمطرهُما زوجاهُما بإطراءاتٍ فاترة.

ارتدتْ صديقتي النّرويجيّة فستاناً أصفرَ جريئاً: بدا رأسها فيه كطرف ذرّة. كانت طويلة القامة لدرجة أنّها كانت أطولَ الحضور، وإذا مالتْ لتكلّم نساء المجتمع، بدتْ كامرأةٍ من فصيلة أخرى تقابلُ مجموعةً من

الدُّمى الهشَّة. وفي الحفل ممثلةٌ كبيرة في السّن كذلك، تقاربُ السّبعين عاماً، لكنّها ما تزال ذات حضورٍ موقَّر. شاهدتُها وهي تكلّم صديقتي، عندما جاء بروفيسور - زوج مراسلة الشّؤون التعليميّة - لينضم إليَّ [في المشاهدة]. سألني بتحذلق: «هل نحن في مملكة موليير أم فومينا؟» لم أفهم لهجته اللاتينية. كل ما استطعت فعله هو الإشارة إلى السّيدتين، وإجابته قائلة: «أينما كنّا، فعلى الأقل هما سيّدتان حقيقيّتان».

كنت قد قابلت الممثلة من قبل، في المنزل الواقع في جيانكولو. كانت صديقة المرأة التي أُعجبت بها لخمسين عاماً تقريباً، ونقاشاتهما كانت مليئة بإحالات مرجعيّة لبطلات صراع التّحرير الوطني. وفي شبابها، كانت الممثلة، مثل غوستافو مودينا، جمهوريّةً شديدة الحماس. عاشت حتّى شاهدت الممثلات الأخريات وهنّ يتربعن على عرش الشّاشة، ويشيِّدْنَ نجاحاتِهن على إجاباتهن المنفعلة، وتقبُّلِ المشاهدين لهُن، بدل تشييدها على الرّغبة الصّادقة في نَقْلِ المشاعر العميقة. وبحسب رؤيتها: يعتبر المسرح رسالةً مقدسة.

جعلت كل اللائي احتشدن حولها تافهات. أدركت أنّ النّساء المعتزلات حقيقيات وصادقات مع أنفسهن. قال لي البروفيسور المتأنق، وهو يتلاعب بالكلمات: «امرأة، سيّدة، عشيقة»، عندها تعجبتُ: ألا يمكن للمرأة أن تكون عشيقة نفسها؟ ليست كذلك الآن حتماً.

وبعد برهة أقبلت عليَّ صديقتي النّرويجيّة، وهي تصطحب معها شاباً طويل القامة يبدو كباحث علمي. كان طبيباً نفسيّاً، خلال تقديمه إلي، أدركتُ أنّي قد سمعت عن إنجازاته من قبل. كان في غاية اللطف معي، وأعتقد أنّ ذلك يعود لصداقتها معه. تبادلا ملاحظات عاديّة فقط، لكن لديَّ حدسٌ قويٌ بوجود فهمٍ مشتركٍ حميم بينهما.

نظرتُ إلى زوجي. كان منعزلاً في إحدى الزّوايا، وهو يشعر بأنّه لا ينتمي إلى المكان إطلاقاً. المرّة الوحيدة التي رأيته مبتهجاً فيها ذاك المساء، كانت عندما تجاهلتْ صديقتي الرّسامة الجميع وتوجّهت إليه

لتكلّمه. ولاعتقادي بضرورة شغله بشيء ما، أخذتُ ابننا إليه، لكنه هسهس قائلاً: «تريدين التّخلص منه فقط لتكوني تحت الأضواء!».

امتلأتُ ألماً وامتعاضاً، ثمّ أخبرتُ مضيفتي أنّي أشعر بالتّوعُّك، وغادرت. لا في طريقنا للمنزل، ولا عندما وصلنا إليه كلّمته. لم أعد أفسّر ردَّ فعله الغيّور بسذاجة. كلماته تعبّر عن غضبه عليَّ أو إهانتِه الشديدة لي. كان يستجيب كما لو أنّه في تحدٍّ، في كل مرّة يشاهد فيها توكيد اعتمادي على نفسي. لم أتوقّف عن التّفكير فيما إذا كان في هذا الموقف ساخراً... لم أجرؤ! مجرّد التّفكير في أنّ الآخرين قد شاهدوه يدفعني للارتباك، لأنّ في داخلي أستطيع سماع شخص يتّهمني بالرّياء وعدم الشّجاعة...

وجدت عزاءً بسيطاً من استيائي البسيط في عملي المشتّت والمُتعب. وبدلاً من إنجازه، بدأتُ أحاول فهم سبب عدم وجود منظمة مركزية يمكن أنْ تكون معبراً للطّموحات الأنثوية والأنشطة النسوية في إيطاليا. لم تكن المساهمة السّياسيّة منتشرة بين النساء. الكنيسة فقط، والتي تطلّبت دائماً تضحية النساء بأنفسهن، أصبحت تشجّع الآن على توحيد أفعالهن - طالما أنّ هذا كان تحت مراقبتها المحترزة. بدا أنَّ لا أحدَ يدرك أنّ هذا شكلٌ جديد من التّحكم الديني، وقد يكون خطراً. في الواقع، أصابتْ صديقتي المتطرِّفة القديمة في رأيها عندما قالتْ: «أرسل المفكرون التّنويريون في البرلمان بناتهم لمدارس الأديرة في ساعة غفلة، كما يرسل أتباعُهم في الأرياف زوجاتهم للاعتراف».

«النّسويّة!»، صاحت بتعجب، «منظمات للنّساء العاملات، تشريعات وقائية، عِتق قانوني، طلاق، التّصويت في الانتخابات المحلّية والبرلمان... كل هذا سيكون حتماً إنجازاً هائلاً، لكنّه سيقشط السّطح فقط: يجب أن نغيّر وعي الرّجال، ونخلقَ الوعي في النّساء!»، ثمّ اصطحبتني لرؤية أحد مشروعاتها الجديدة، مشروعٌ وليدُ جهدٍ متوتر،

والذي بدا شديد الغرابة مقارنة بجسدها الممتلئ الكسول. «فِعل! هذه هي أفضل دعاية!».

أحد الأماكن التي اصطحبتْني إليها كان مركز الدعارة، ملحق بمستشفى للأمراض التناسلية، حيث عملت كمفتشة. كانت غرفة بسيطة، وبيضاء، تتلقّى فيها المريضات تعليماً إعدادياً بسيطاً، وكانوا يمنحونَهُنّ كتباً، ويلقون محاضرات متخصّصة لتشجيعهن على تصديق ذلك، وعلى الرّغم من موقفهن المريع، فإن بإمكانهن الآن التّغيّر وبدء حيواتهنّ مرّة أخرى. لا يمكنني الآن وصف النّساء اللاتي قابلتهن. عليَّ مقابلهن من جديد وتعلم المزيد منهن، أكثر ممّا فعلت في ذلك اليوم. حدث هذا منذ وقت طويل، لكنّي وعدتهن آنذاك بالعودة، وسأفعل ذلك ذات يوم. كل ما أستطيع قوله هو أنّي عندما عدت للمنزل بعد زيارتي، أمسكتُ ابني الجالس بقربي برعب، وتساءلتُ كيف أحميه بأفضل طريقة منهن، حتّى يكون لائقاً صحيّاً وحرّاً ليهب نفسه للمرأة التي يُحبّ عندما يعزم على الزّواج.

هناك وحش غير طبيعي والذي يقف على عتبَتَي مرحلتين في حياة كلّ امرأة – بين البكارة والأمومة. هذه هي العاهرة. إنّها تكرّس حياتها لرغبات الرّجال الحيوانيّة الأنانيّة، وصناعتُها وجهٌ مهمّ من أوجه معركة الجنس. عندما تُفقَد امرأةٌ بتولٌ في أحلام بريئة، فإنها تقابل زوجها أولاً، وتجده غالباً يفتقر الشّعور الجنسي والعاطفي. وعندما تكتسب شيئاً من الخبرة، فإنها تكتشف المحاولة الهمجيّة التي سبقت الحب الزوجي. ستظل تلك المرأة الأولى تتطفّل بينهما – تنتقم، وحتّى من ذكرى شغفهما الذي فقد بريقه.

سألت نفسي عمّن سيمنح ابني معرفته الأولى بخصوص سرّ الحب المقدّس. هل سأتمكن من توضيح كيف يجب أن يعامل المرأة؟

العالم الذي نعيش فيه مليء بالسّخرية والجبن! عندما ذهبتُ لنقاش يتعلّق بالدّعارة في البرلمان، سمعت وقع «مبطل» خلال خمس دقائق،

من خلال وزير أكّد على أنّ التّشريعات الإيطاليّة بخصوص هذا الموضوع هي الأفضل في العالم. وفي هذا الوقت، في المقاعد المشغولة المتناثرة، كان الرّجال النبلاء يتعاملون مع مراسلاتهم، أو يتكلّمون مع بعضهم. اشتكى عضو في الحزب الإكليركي بشكل جنائزي، بخصوص الحاجة لهذا «الصّمام الآمن للزّواج»، وقاطعه عضوٌ من المعارضة، والذي أعلن بمجادلة انفعاليّة ناجحة أنّ الزّواج عبوديّة بدائية تتطلب تضحية الإنسان. أبقوا المنظار مقرّباً على النساء، ثم انتقلوا لمناقشة الميزانيّة...

لم أصدّق أنّ الرّجال المثقفين يولون أهميّة بسيطة للنّواحي الاجتماعية للعلاقات الجنسية. وازدادت الغرابة لأنّهم بدوا كرجال لا يملكون أدنى اهتمام بالنّساء، بل على العكس، كانت النّساء شغلهم الشّاغل. وفي أشعارهم ورواياتهم، واصل الرّجال تكوين ثنائيّات داخليّة ومثلّثات، بتعقيدات عاطفيّة لا نهاية لها، وتحفُّظات شهوانيّة. على أي حال، ليس من بينهم من هو قادر على تكوين شخصيّة نسائيّة أصيلة.

وأثناء تتبعي لقطار أفكاري هذا، عثرتُ على مقال كتبه شاعر شاب يحتفي فيه بصورة المرأة في الشّعر الإيطالي. استفزّني، فكتبت له رسالة مفتوحة أردّ فيها عليه، والتي أدّتْ غرضَها، وتمّ تداولها بكثرة في الصّحف، وأسعدَت النّاشر، لأنّه زاد من شُهرة موليير. ناقشتُ فيها أنّ أغلب الشّعراء الإيطاليين حتّى وقتنا الحاضر قد مجّدوا المرأة «المثالية» في قصائدهم: بياتريس ولاورا نموذجاً[1]. النّساء اللواتي أثنى عليهن الشّعراء كنّ جميعاً صعبات المنال: لم يذكروا النّساء اللائي عشن معهم، وأنجبن البنين لهم! لقد ألّهوا نموذجاً واحداً من النّساء في قصائدهم، بينما حيواتهم الواقعيّة التي لم يذكروها في قصائدهم، تبيّن أنّهم حتّى لو تزوّجوا من المثاليّات، فسيحولوهنّ إلى خادمات. ما السّبب؟ ألا يريد الشّعراء أن تكون حيواتهم نموذجاً للآخرين في الصّراحة والنّزاهة، والتّجانس والكرامة؟

---

1 - بياتريس عنوان قصيدة لدانتي، ولاورا عنوان قصيدة لبترارك - المترجمة.

كانت هناك معارضة أخرى - إيطاليّة حتماً - شدّدْتُ عليها [في المقال]: يكنُّ الرّجال شعوراً غامضاً تقريباً لأمهاتهم، لكنّهم يعاملون زوجاتهم بلا احترام.

عارض أشخاص مقالي، وادّعوا أنّي كنت أتلاعب بالمتناقضات فقط، لكن بإمكاني معرفة أنّي لامستُ الجرح من الرسائل التي استلمتُها من الشّباب.

ذات مساء، وبعد كل هذا، ذهبتُ للمسرح. وعند خروجي، صادفتُ الممثلة القديرة. كنتُ أبكي. لم أبكِ في مسرحية من قبل، أو في الواقع، لم أستجب لأيّ عمل فنّي آخر. شاهدتُ على خشبة المسرح دميةً مسكينة خُلقت من لحم ودم واجهت تناقضات مع ذاتها. كانت لزوجها مجرّد أداةٍ لهو، زينة. فقرّرتْ هَجْرَه وَهَجْرَ أطفالِها، لتكون إنسانة. كتبَ المسرحيّةَ مسرحيٌّ نرويجّي قبل عشرين عاماً، لكن الجمهور صاح بازدراء في المشهد الأخير. ما من شخص، ولا شخص واحد، امتلك الشّجاعة لمواجهة رسالة المسرحيّة البسيطة والواضحة!

«لو كنتُ أصغر بعشرين عاماً»، تذمّرتْ الممثّلة قائلة، وصوتها يجلجل بشجى: «كنت لأجعلهم يواجهونها!».

ازددت يقيناً بعد هذه الحادثة في أنَّ حماية النّساء تعود للنّساء وحدهن. النّساء فقط من يفهمن أحوالهنّ النّفسيّة، ولذلك لا يمكن لسواهنّ إعلانها على الملأ. قد يمقتُ الرّجال على وجه الخصوص تركيبتَنا في الحبّ، وعاطفة الأمومة، والحنان، ولكن - على أي حال - الكرامة الإنسانيّة طرفٌ في ذلك أيضاً.

حلّ الصّيف. شهران من الحرارة المرتفعة. ابتعد الجميع عن روما: صديقاتي، و«النّبي»، والمحرّرة التي ذهبتْ للجبال على أملِ أن تجد في الهواء الطّلق حبكةً جديدة لرواية. زادت أعباء عملي في المكتب. أوجدتُ بعض الوقت للتنزّه في فيلا بورخيسي يوميّاً، حتّى يتمكن ابني من قضاء ساعة مع أصدقاءِ جُدُد. جلستُ على كُرسِيَّ وقرأت، وإذا

توقفت، وجدتُ متعةً حقيقيّة في مشاهدة التّماثل الحقيقي بين أشجار الصّنوبر الباسقة.

أجهل كيف أمضى زوجي تلك الأيام. لا أملك في الواقع أيَّ ذكرى مميّزة عنه بتاتاً: مجرَّد انطباع بغيض عن صوته الأجشّ وهو يقتنص كلَّ فرصة للتذمّر وإهانتي، وذكرى قديمة عن جبينه الذي تجعّد الآن في تقطيبٍ دائم، وعظامُ وجنتيه البارزة، وتجهُّم فكَّيه. أمضينا الليالي معاً - فعلنا ذلك غالباً - لكنّي لا أتذكر أيّاً منها. في الواقع، أوشكتُ على تصديق أنّه لن يضايقني بعد الآن، ومع ذلك لن يتركني وشأني، مهما كنت منهكة أو مريضة.

ومرضْتُ. أصبحتُ أكثر وعياً منذ ميلاد ابني بأعراضٍ قد تدلُّ على إصابتي بمرض عضوي خطير. خشيتُ أحياناً أن يكون سببها تناسليّاً مجهولاً... وفي أحد الأيّام كلّمت طبيبة العمود الطّبي، وذكرتُ على عجالة أنّ هناك كثيراً من النّساء اللائي لا ينتبهن إلى أنّ المرض البطيء، والخفيّ فيهن قد انتقل إليهن من أزواجهن. ذعِرْتُ ذعراً شديداً فلم أسألها عَمّا أعنيه. حتّى عندما كنت طريحة الفراش لأسبوع بسبب الألم الشّديد، لم أطلب استشارتها. ومع ذلك فعندما تعافيْتُ - في نهاية الصيف - شعرتُ بوهنٍ شديد، في كلّ مفصل من مفاصل جسدي وكأنّي جثّة.

علاوةً على ذلك، بدأتُ أستلم رسائل حزينة من شقيقتَيْ. أبي الآن شديد الغضب، لأنّ العمّال قد أسّسوا منظّمة قويّة بمقدورها اتخاذ إجراءات تهدّده. لا بدّ أنّ انزعاجه قد تزايد عندما أدرك أنّ جميع من في المنزل يعارضونه. بدأ أخي بارتياد الاجتماعات الاشتراكية المحلّية، وكان متحمساً كأختَيْ بخصوص الخطيب، المهندس. لا بدّ أنّ ذلك الشّاب يمتلك قوّة الإقناع! تأثيره عميقٌ وفعّال على أخي وأختَيَّ، لدرجة أنّ خوفَهم من والدي قد تلاشى تقريباً.

تأجَّلَ زفافُ أختِي لعامَين. تذكّرتُ الفرحَ والفخرَ اللَّذَين شاهدتُهما

في عينَيْها الغامضتَيْن عندما سألتُها عن إيمانها بسعادتها المستقبليّة. أكانت سعيدة؟ كنت أكيدة من ذلك... حتّى لو أبكاها تزايد العداوة بين خطيبها ووالدها. ستبلغ الحادية والعشرين في الشتاء، وكانت مصرّة على مغادرة منزل أبيها إلى منزل زوجها في أقرب وقتٍ ممكن. لكنّها قلقتْ على أختِنا، والتي ستتّكِل على دعم أخينا العاطفي لتعويض كل ما فقدَته.

فيما بعد، وبسرعة، غدا الحال لا يطاق في المصنع. تحدَّى والدي العُمّال، وأوضح لهم أنّه يفضّل الاستغناء عن المصنع الذي أفنى فيه كثيراً من جهده لسنوات طوال، على قبول أي تدخّل في قرارات الإدارة مِمَّن هم أقلّ شأناً منه.

ونفّذ وعدَه. وضع حدّاً لاتفاقه مع المالك مع بداية الشّتاء، ومنح المالك مهلةَ شهرٍ لوالدي ليعثر على مديرٍ تنفيذيّ جديد. كتبَت أختي لي الأخبار بقلقٍ شديد، خافتْ أنْ يجبرها والدي على ترك البلدة قبل زواجها.

قلت لزوجي، بابتسامة مريرة: «سيعرضون عليك العودة للمصنع الآن... فهل ستقبل؟».

فكّر برهةً، ثم قال بضجر: «لا»، فنسينا الموضوع.

وفي صباح اليوم التّالي، استلمْنا برقيّةً أرسلتْها حماتي، تزفّ فيها لزوجي خبر أنَّ مالك المصنع، وخلال المفاوضات مع العمال، قد اقترح اسم زوجي كمدير تنفيذي جديد.

ما يزال بإمكاني تذكّر ضحكتي عندما سمعت محتوى المظروف الأصفر. غادِري، عودي إلى هناك، وشاهدي زوجك في مكان والدك... أولَيس هذا من سخرية القدر؟!

لم ينبسْ زوجي ببنت شفة. كان شديد الكتمان. شاهدتُه، وأعتقد من وجهِهِ أنّه يتطلّع لحُظوة جديدة، كما لو أنّ حقيقة اعتباره مرشّحاً لوظيفة جديدة قد أقنعتْه بقيمته غير المتوقعة في الوقت الحالي.

تذكّرتُ أنّه أجابني في الليلة الماضية بـ«لا»، وشعرتُ بانزعاج شديد فجأة. راقبته بقلق، بشكّ، وهو يحاول تجنّب عينَي، وهو يحاول إظهار لا مبالاته، ممّا زادني توتّراً.

وفي مساء ذلك اليوم، استلمنا رسالةً من حماتي، تسرد فيها تفاصيل الخبر الذي أوردته في البرقية، وتدّعي فيها أنّ عودتنا «للمنزل» حتميّة. ومن الأمور التي كتَبَتْها: «هل تتذكّر؟ لقد تنبّأتُ لك بحدوث هذا في عيد الفصح الماضي...». هذا يعني أنّهُ كان يترقّب الحدث طوال الوقت!

وبعد يومين، عُرض عليه المنصب. شروط التوظيف كانت جيدة: راتب ثابت. وبعد فترة قصيرة سيتحسّن حالُنا، وعلى المدى البعيد سنكون ثريَّين. هل شعرتُ بالفخر لأنّ الرّجل الذي لا أشعر إلّا بالشفقة عليه قد أصبح فجأةً في غاية الأهمية بالنّسبة للجميع؟ لا بدّ أنّي فرحت، لأنّه ما يزال بإمكاني نَسْبُ حُسْن طالَعِه هذا لي ولوالِدِي - فوالِدِي هو الذي رشَّحَ اسم زوجي، وقدّم له راتباً ثابتاً مقداره آلاف الليرات الإيطالية. لكن لماذا فعل أبي هذا؟ لعلّ كل ما أراده هو تكوين رابط مشترك مع خليفته، كي لا ينقطع كليّاً عن عملٍ قد أسَّسه من الصّفر.

وكأنّي مدينة ثائرة تهزّها أذرعٌ قويّة. تُقْتُ للحياة والحريّة، وأغلقتُ عينَي وأذنَيَّ عن جدالات الآخرين، وعن حاجاتهم ومتطلّباتهم، وركّزْتُ على صورةٍ واحدة، كانت هذه: الطريق المؤدي للمستقبل مسدود. سيعيدونني لصحراء، وسأصطحب ابني معي، رغم رغبتي بحمايته من البيئة الشنيعة التي وُلِد فيها... وحينما نكون هناك، سنقف نحن الاثنين، ربما لسنوات، بيدَيْن متشابكتينْ، وفاهَيْن يلزمان الصّمت، لنواجه مجتمعاً يملؤه عمّال فقراء يكرهوننا...

-18-

مرّ زوجي بضيقٍ شديد فورَ توقيعِه على عقد العمل. تساءلتُ عمّا إذا تسرّع في الموافقة ليشغل المنصب قبل غيره، أو لتوجّسه من تمرّدي المحتمل. لم يرغب مشاهدة تفاجؤ أصدقائنا، أو خيبة أملهم، أو حزني ونحن نستعدّ للمغادرة، ولذلك ببادرة كرَم أخبرني، أنّه على الرّغم من كونه سيغادر فوراً، فإنّ بإمكاني أنا، والطّفل، والخادمة، البقاء بضعة أسابيع حتّى يُخلي والدي المنزل (وهو من بنود العقد) والذي سينتقل إلى ميلان. بعدها سيعود زوجي إلى روما، ليأخذنا معه.

لكن فور إطلاعنا على هذا القرار، التزم الصّمت وازداد انزعاجُه. ظلّ طوال اليوم، جالساً إلى مكتبه، وهو يعمل على أحد مخططاته التفصيليّة. وخلال الأيام التالية، خرج وحده ليتجوّل في المدينة كما لو أنّه قد وقع فجأة في غرامها، واكتشف الحياة المشوّقة التي كان على وشك مغادرتها. جاءت صديقتنا النّرويجيّة لمقابلتنا فور عودتها من إجازتها. تكلّمنا بأحاديث عابرة، والتي أعادتنا للسّؤال ذاته: «ما هو سبب عودتك؟». كانت في غاية التّجهُّم، وأخبرتْني كم ستكون وحيدةً وكم يحزنها التفكير في مغادرتي. حدّق زوجي فِيَّ ببساطة، وكأنّه منوَّمٌ مغناطيسيّاً.

في الليلة التي عزم فيها على السّفر، استيقظتُ لأشاهده وهو يتقلّب في نومه، لكن لم أتبيّن ما قاله، أنرْتُ المصباح. رفض كل محاولاتي لمساعدته، رغم أنّه محموم، وأخفى رأسه بين البطانيّات بيأس شديد.

أطفأتُ النّور عندما هدأ، وخلدتُ للنّوم. وبعد عدة دقائق هذى من جديد. فيما بعد، كما لو أنّه في حلم، سمعتُهُ ينادي اسم صديقتي النّرويجيّة...

يا له من رجل مسكين! كان يعاني من لواعج الحب - ذلك العدوّ الجبّار الذي لم يعترف به. منذ متى وهو على هذا الحال؟ لعلّه أدرك الحقيقة منذ وقت قريب، منذ اتّخاذه لقرار العودة، ولعلّه لم يتمكن بعد من تقبّل شعوره، واعتبره كضعفٍ أو مرض.

وكأنّه عقابٌ مريعٌ.

لعلّ صديقتي خمّنت الحقيقة أولاً. لقد أسرّت لي، بعد وقت قصير من عودتها - ولا شكّ أنّها أرادتني أن أنقل ما قالته لزوجي - أنّها كانت تحبّ الطّبيب النّفسي الشّاب الذي عرّفتْني عليه في حفل مجلّة موليير. كانت هناك مشكلات؛ لم يتقبّل والداه العلاقة بعد، وشعر حبيبُها أنّ من الأنانيّة بناؤه لسعادته على حساب تعاسة والديه.

لم أتمكن من مشاهدة زوجي. لاحظ هذا، وانزعج انزعاجاً شديداً. أراد الحفاظ على مكانة المُسيْطر. لكنّه جرح كبريائي؛ عشتُ مع هذا الرّجل عشرة أعوام، ولم أتمكن من إقناعه بأن يحبّني حقيقةً. لقد ألقى نفسه الآن في غياهب ضحكةِ تهكُّم لامرأة غريبة عنه! وبهوسٍ فضوليّ أردتُ أن أعرف كيف أحبّها، لأكتشفَ إذا كان قد وقع من جديد تحت رحمة حاجته الجنسيّة أم أن هذه المرأة تملك مؤهّلات أخرى لا أمتلكها... ومرّة أخرى، أُجبِرْتُ على التّفكير فيما إذا سيحبّني شخصٌ ما بصدق.

وعندما سافر، تحرّرَتْ صديقتي. أمضينا أنا وهي أوقات سعيدة. اصطحبنا ابني في نزهات، وزرنا متاحف المدينة، وتجوّلنا في الأرياف، انهمكنا في بعضنا تماماً، وبمنتهى الفرح أحياناً. أخذتْ معها دفتر الرّسم في كل مكان ذهبنا إليه، وملأتْه برسوماتٍ عن كلّ ما شاهدته: أمّهات، ومربّيات، وأطفال. أمضينا السّاعات في مرسمها في باريولي. عرفته فوراً: شديد النّظافة، وجدرانه مرتفعة بيضاء، وأثاثه البسيط مصنوع

من الخشب الأبيض، بستائر خفيفة تؤطر النّافذتيْن الكبيرتيْن المطلّتيْن على وادي (تيبر) الممتد باتّجاه سوراتّي. غرفتُها صغيرة ومعتمة خلف المرسم، ومؤثّثة بسرير وكرسي فقط. في العليّة، في الرّواق المقابل، أقامت أرملة مع أطفالها الأربعة: قامت بالمهام المنزليّة، وأعدت وجبة الغداء لصديقتي، أما الأخيرة فكانت تطهو وجبة العشاء.

لم أنتوِ القيام بذلك، لكنّي شرعتُ بصبّ قلبي بين يديها، وحاولت التّعبير بكلمات مُنتقاة عن المُثل العُليا التي بدت لي الشّيء الوحيد الذي يستحق الحياة. أغدو شديدة الحزن كلّما تكلّمت عن المستقبل. كانت تمسك يدي، وتحاول شحذ همّتي بشجاعة.

مستقبلها لم يكن مطمئناً أيضاً. أرادت أن تهبَ نفسها للرجل الذي تحب كليّاً، بغض النظر عن العُرف الاجتماعي، وأن تذهب معه لمكان ما يكونان في منتهى السعادة فيه. لكنّها أُجبرت على تقبّل استحالة تحقّق ذلك، ولهذا ما زالت تعيش وحيدة، ولا تملك أدنى فكرة كم سيطول هذا الحال.

استلمتُ رسالة طفوليّة من زوجي. أخبرَني أنّه يشعر بيأسٍ تامٍّ هناك، وأنّه قصد المكان الخاطئ لنا. إنّه يتوق للعودة... استجمعت قواي وتعاطفي معه، وأجبته: «إذا أردنا أنْ نعيش حيَاة هانئة، فيجب أن نواجه حقيقة علاقتنا». أردتُه أن يعترف لي بأنّه يحب امرأة أخرى، ويجب أنْ يسلك كلٌّ منّا سبيله. أخبرتُه أنّ الزّواج عبودية له أيضاً.

كنت أرتعش وأنا أكتب هذه الكلمات: مستقبلي كلّه يعتمد على إجابته.

وأجابني مباشرة، بصفاقةٍ اعتدتُ عليها مع مرور السّنوات. لقد أنكر كل شيء، ولامني على كل الصّعوبات. قرأتُ رسالته بتؤدة، وأنا أفكر في أنّني بدأت أواجه الواقع على الأقل. كنتُ ما أزال متيقّنة بوجود شيءٍ ما يمكن أن يُفعل، حتى لو لم أعرف بعد ماهيّته. ترنّم صوتٌ في داخلي: «أنتِ حرّة، أنتِ حرّة».

واتّضح أيضاً أنّ دوري في المنزل الجديد سيكون هو إعدادُه لنعيش فيه. رغم أنّه كان قد توسّل إليَّ سابقاً أنْ أتعلّم العيش لنفسي. هو الآن يريدني كوسيلة لإشباعه جنسيّاً، وقد وجد العزاء في المعاشرة. أدركت أنّي إذا واصلت العيش معه لهذا السّبب وحده، فسوف أحتقر نفسي... وجدته سبباً غير مقبول.

شغلتني هذه الأفكار يوماً أو يومَيْن. لم يتبقَّ لي شيءٌ الآن تقريباً لِفعله في المجلّة. فالنّاشر قد بدأ البحث عمّن يشغل منصبي. بدا آسفاً على مغادرتي. قال لي: «يصعبُ العثور على قارئٍ محايد ليقيّم الكتب النّسوية». كانت المحرّرة مهذّبة، لكنّ أفكاراً أخرى شغلتْها. قالت إنّي سأواصل العمل معهم من منزلي الجديد، ثم سألتني بدهشة إذا فكّرتُ من قبل في كتابة رواية.

ثمّ، مرضت صديقتي النّرويجيّة فجأةً بالتهاب رئويّ. عُدْتُها يوميّاً، وكذلك فعلَ حبيبُها. أذهلتْني ثقتُهما ببعضهما عندما شاهدتُه هناك.

قرّرَ أنّ الغرفة الصّغيرة المعتمة كانت فاسدة الهواء. ورغم أنّ فكرة التّغيير قد أزعجتها، إلا أنّه أقنعها بأن تسمح له بنقلها إلى المرسم.

انشغالي الأكبر - بالرّغم من ذلك - كان فيمَا سيحدث إذا عاد زوجي. قرّرت أنْ أطلب منه الانفصال بشكل ودّي. وإذا واصلتُ العمل واستلام معونة والدي الشّهرية، فسأتمكّن من إعالة نفسي. بإمكان طفلي البقاء معي في الأيام المدرسيّة، وقضاء الإجازات مع والده.

منّيتُ نفسي في أنّه سيوافق على طلبي. شعرتُ أنّه على مشارف إحدى أزماته النّفسية، حينما كنّا قادرين على تقبّل قرارات، تعارض كلَّ ما آمَنّا به سابقاً. كنت متيقنة من تغيُّر أفكاره.

لم أشأ فعل أي شيء يلحق الضّرر بفكرتي. كل ما احتجت إليه هو أن يمدَّني شخصٌ ما بالمشورة. أمّي العجوز المتطرِّفة كانت ما تزال في إجازة في لومباردي. وفي هذه اللحظة الحاسمة ليس لدي أيُّ صديقة أبثُّ لها حزني. وبإلحاح، وبإصرار، شقّ شخص واحدٌ سبيله إلى

عقلي: «النّبي». ألمْ يدّعِ أنّ لديه بصيرة يعرف عن طريقها الحقيقة؟ هل سينصحني؟

مضت أسابيع مذ شاهدته آخر مرّة فيها. كتبتُ إليه، وأخبرتُه أنّ لدي مشكلةً حقيقيّة أحتاج لمناقشتها معه، ودعوتُه لزيارتي.

كنت أهيِّئ ابني للنّوم عندما وصل في مساء اليوم التّالي. تكلّم مع ابني، الذي استمع إليه باطمئنان قبل نومه. بدأتُ أكلّمه بعواطف جيّاشة. أصغى بلا انفعال، ومال إلى الأمام ليشجعني من آنٍ لآخر. لعله خمّن ما أريد الحديث عنه.

هدأتُ تدريجيّاً. كانت أسئلته محدّدة وفي صلب الموضوع. ممّا ساعدني على تفكيك القصّة التي يحرجني تذكُّرها كثيراً، ووجّهت أفكاري نحوها. لم أحكِ له الكثير عن الماضي، وأخبرتُه بدلاً من ذلك عن والدي وزواجي. قلتُ له إنّي أعي عدم سعادتي في زواجي منذ فترة، واعتقدتُ أنّ من واجبي البقاء مع زوجي لأنّي كنت أظنُّه يحبني وبإمكاني مساعدته. وفي الآونة الأخيرة، اكتشفتُ أنّه يحبّ امرأةً أخرى، ممّا جعلني أتمنّى الخلاص منه. لم أفصحْ له من قِبل عن رغبتي في الاستقلال بطريقة تتّفق كثيراً مع أفكاري الخبيئة. كلّ كلمة نطقتها جعلت أفكاري أوضح. كنتُ مذهولةً وسعيدة لأنّي وجدتُ نفسي قادرةً على التّعبير عن أفكاري بصراحة أخيراً.

شاهدني برزانة، ثمّ شرع يتكلّم. قال إنّ من العبث إصدارَ الأحكام على قراري أو التّأثير عليَّ للعدول عنه. ومع ذلك فهو يتساءل عمّا إذا كنتُ مستعدة لعواقب خطّتي. متاعبُنا النّفسيّة – أضاف قائلاً – تصنعها عَنجهيّتُنا غالباً. كان أكيداً من أنّ كل شيء في هذه الحياة – حتّى هذه المشكلات – غير مهمّة بتاتاً. وسأدركُ ذات يوم، كم أنّ المطلوب منّا لنعيش بشكل صحيح هو القليل. وبالرغم من ذلك، فهو مسرور لأنّي وضعتُ اعتباراً عالياً للنّزاهة والمنطق الإنساني.

وقف وبدأ يتكلّم متجوّلاً في الغرفة، ويتحسّس الكتب والصّور

الفوتوغرافية. وقفت أنا كذلك، مائلة على المائدة في منتصف الغرفة. اقتربَ منّي – لم يكن أطول منّي. حدّقَ فِيَّ بهدوء وكلّمَني مجدّداً. واجه في حياته همّاً عظيماً. وفوق هذا، هو مؤمنٌ شديدٌ بالقوانين والتّطوُّر، كان يقيِّم سلوكَ البشر حسب نُظم غير مرنة وظالمة، وكان يدينهم سريعاً... ثمَّ مرّ بخطبٍ جَلَل. لقد توفّيَ والداه بفارقٍ زمني بسيط بينهما. أدرك بذلك عدم أهميّة الحياة البشريّة. وأراد لأوّل مرّةٍ معرفةَ ما الذي تخفيه الحياة بين جنباتها. وفي السّنوات التّالية، اعتزلَ جميعَ أنواع التّواصل مع الآخرين، وشعرَ بنورٍ تدريجيّ، أجل، نورٌ بدأ ينير فيه. شعر أنّ هذا سيمنحه القوّة ليوضّح للآخرين لغز وجودنا، وفنائنا. وسينقل لبقية البشريّة هذه الرّسالة، وسنعيش حينها جميعاً سلاماً عظيماً، وسنتعرّف على الاستخدام الأمثل لقدراتنا خلال الفترة الزمنيّة الممنوحة لنا على الأرض. في تلك اللحظة لم يتمكّن من توضيح المزيد لي... ولكن في المستقبل – أيّا كان قراري النّهائي، البقاء في روما أو مغادرتها – فيجب أن أثق بوعده.

وبين الفينة والأخرى، وأنا أسمع ما يقوله، يمكنني سماع صوت القطار في الشارع. كصرير رياح ليلاً على شاطئ بَحرٍ عاصف، بينما بدا أنّ وجوده يغلّفني داخليّاً بفتور وتخدير لأفكاري، فأبعدني عن هدفي، ومنح الحياة شكلاً جديداً. شعرت بضياع تام وسط صور بيضاء ثلجيّة.

جلست إلى مكتبي بعد مغادرته. وكأنّ المصباح قد أنار المدينة بأكملها. شعرت ببهجة لم أشعر بها من قبل. لم أهتم لسببها، ولم أكن مهتمّة حقيقة بسرّ هذا الرّجل. كل ما أدركته هو أنّي – أنا التي كرهتُ الحب لأني اعتقدتُ أنّه يعني التّضحية بالذّات فقط، قد تمرّدتُ على حياتي لأنّها أنهكتني – قد سمحت لنفسي أخيراً باختبار متعة الحديث مع شخص آخر عن شعور سيتفهّمه.

واحتفلتُ بهذه السّعادة الخفيّة ثلاثة أيّام تباعاً سرّاً. زارني «النّبي» كلّ مساء. وطلب منّي تنقيحَ مخطوط كتابه الجديد الذي سينشر قريباً.

بعض صفحاته كانت غيرة مقروءة بسبب الحذف والإضافة، وطلبتُ منه توضيحها لي. وهو ما فعله بتأكيد قاطع لا شك فيه. كان الكتاب إشكالياً. كان عليَّ الموافقة على موضوع جداله، لأنّه عبّر عن أفكار مؤلفه، ومع ذلك فهو لم يكشف بإسهاب عن النّظرية التي كوّنها. كما أقلقني أسلوبُه أيضاً – كان في غاية التّعقيد، وذا سرِد غير منطقي. وأزعجتْني بعضُ العبارات التي أملاها عليَّ ونحن نعمل بسبب التباسها. بدأت أتذكّر انطباعي الأول عنه كمبعوث من مجهولٍ قد لا يعيه. ومع ذلك لم أتوصّل الآن لأي استنتاجات أكيدة بخصوص أفكاره. وفي الواقع، كنت أقلّ قدرة من ذي قبل على التفكير الواضح بشأنه، وما زلت أحجب عنه أفكاري المتعلّقة بكتابه.

راقبتُه رغم ذلك. كان شاحباً وهزيلاً، كشبحٍ له لحية سوداء وقصيرة، وشاربٍ يخفي شفتيه المصفرّتين، واللتين تتمدَّدان في ابتسامة مبهمة نادراً. خلال مراقبة إيماءاته الجسديّة، بدأتُ أفكّر فيه كطفل رقيق وعزيز، والذي يعرف مسبقاً ما ستحرمه الحياة منه... فارتجفت. ما زلتُ معجبة به، ضعيفٌ ومثيرٌ للشّفقة، لكنّه امتلك قوّة لا يمكنني التّعرف عليها. وجدتُه يمثّل صراع الإنسان المهيب مع الآلهة. ثمّ خطرت في بالي كلمة الجنون، وتُركتُ بين صراعات هائلة.

ومع ذلك كان واثقاً من أنّي آمنت به فعلاً. تلتمع عيناه التماعاً مميّزاً إذا ما انتبه إلى تركيزي الشّديد فيما يقوله. من الواضح أنّه لم يقابل من قبل هكذا أمانة من أي شخص في ريعان شبابه...

والوحيدة التي كلّمتُها عنه هي صديقتي النّرويجيّة، والتي كانت لا تزال طريحة الفراش. بدأت أمضي ساعات طوال في تطبيبها. تدهورت صحتها أكثر – أثّر المرض على قلبها. أحد أساتذة حبيبها والذي أصبح طبيبها، حذّرني من حالها الحرج. ورغم أنّه بذل قصارى جهده لينقذ حياتها، إلّا أنّه يعتقد أنّها لن تنجو. ابتسم حبيبها بحنان شديد لها، لكنّي أبصرتُ حزنَه عندما نظر إليّ. لم تعرف شيئاً عن استفحال مرضها.

والزّائران الوحيدان اللذان رغبَتْ في رؤيتهما هما أنا والأرملة المقيمة في الشّقة المقابلة. خطّطت صديقتي لفترة نقاهتها. «هذا يبعث على السّأم الشّديد»، ثمّ كرّرت: «سأمٌ شديدٌ!».

فجأة، وصل مرضها للمرحلة الأخيرة. عانت من آلام أشدّ، وخافت فجأة من موتها. تشنّجت بقوّة، وأمسكت بيدي طلباً للعون بشكل متقطّع. لازمتُها يومَين، وأضناني الإعياء. بدتْ على شفير الموت أحياناً. فكتبتُ على عجالة لزوجي رسالةً وأخبرتُه أنّي سأبقى أيّاماً أخرى في روما.

وفي اليوم الذي لم يخفق فيه قلبها بقوّة، واعتقدنا أنّها قد تخطّت مرحلة الخطر، ذهب حبيبها لمنزله طلباً للرّاحة. لم أشعر بالتّعب، فقرّرت البقاء. ابتسمتْ صديقتي عندما أخبرتُها أنّها يجب أن تعوّضني عن ابتعادي عن غرفتي، حيث نام ابني قرير العين. شعرَت بشيء من الأمل يتدفّق في أوصالها.

تركتُ العليلة مع غروب الشّمس في رعاية الأرملة، وتوجّهتُ للمنزل. كنتُ أسلك طريقاً مختصراً على الشّوارع البيضاء المهجورة عندما اصطدمتُ بزوجي وهو مطأطئ الرأس. أذهلتْهُ رؤيتي، وشعر بالخزي، لكنّي لم أقلْ شيئاً له. لم أشعر إلّا بالشّفقة عليه والاحتقار.

أخبرتُه أنّها أفضل حالاً بكثير، فشرع يعتذر عن قدومه المفاجئ، وسرعان ما قاطعتُه. كلّ ما شعرتُ به هو أنّ وجوده هو إهانة لصديقتي التي تعاني.

ولم نتكلّم حتّى عندما عدنا للمنزل. ارتحتُ فترةً قصيرة، ثمّ عدتُ إلى شقّتها ذات الغرفة الواحدة. وصل زوجي في ذلك المساء وسألني عمّا إذا كان بإمكانه زيارتُها. أدركتُ وأنا أشاهدهُما أنّ صديقتي – التي جذبته يوماً ما بقوةٍ لها، وكاد أنْ يرفض وظيفةً أرادها كثيراً – قد فقدت الآن جاذبيّتها الجنسيّة بالنّسبة له. يا لها من مسكينة. لقد أفَلَ جمالها.

أخبرتهُ أنّي تصرفت كقديسة معها: «عودي إلى منزلكِ الآن، اذهبي. أنا بعافية. سأستريح الآن. ستزوريني غداً، أليس كذلك؟».

كان عليَّ تنفيذ طلبها، صمتٌ ثقيلٌ فصلني عن زوجي. وبعد العشاء، عندما نام الطفل في سريره، تكلّمنا. كان حذراً حين كنت عاطفيّة. حاول تبرير الأمور التي ذكرها في الرّسالة. شعرت بوجوب عدم تفويت هذه الفرصة لفضح أكاذيبه. لربّما كذبت في رد فعلي في الأيام القليلة الماضية، لكنّي أكلّمه الآن كما لم أفعل من قبل قَطّ. عاملته على أنه ابني الذي نضج وصار رجلاً. لم يبرّر فعله بأيّ كلمة، وفي النّهاية بدا أنّه يعترف من خلال صمته بصحّة كلامي - حتّى عندما أخبرتُه بوجوب تحرير ذاتيْنا من علاقة تضطهدنا.

سألني بارتياب: «أهذا رأيكِ الحقيقيّ؟ ألا تعتقدين أنّنا سنتحسَّن في المستقبل». ذُهلْتُ. منحَتْني إجابتُه أملاً باحتمال اقتناعه.

رنّ جرس الباب في تلك اللحظة. كان «النبي». لم أقابله منذ بضعة أيام. ورغم حقيقة إخبار زوجي عن زياراته، وتوضيحي أنّي كنت أنجز له عملاً، إلّا أنّه عندما شاهد الزّيارة المتأخرة ليلاً، تصرّف بغضبٍ لم أشاهده من قبل. بذل جهداً بسيطاً ليكظم غيظه. حضر حوارنا حتى قرّر صديقي المغادرة أخيراً، ضاغطاً على يدي ليمنحني الشّجاعة.

لقد خسرتُ المعركة. بدأ زوجي تحقيقاً متحكّماً وحشيّاً. تركتُه يواصل استجوابَه، على أمل - كما في أوقات أخرى - أنه يخمُد غضبُه ذاتيّاً. لكنّ هذا السّلوك الخاضع زاد الحال سوءاً. نبرة صوته وهو يقذفني بالاتهامات، ويكيل لصديقي إهاناتٍ لا تحصى، بدا أنّها تزيدُ سُخطه. وفي آخر فورة غضب أمسكني وأجبرني على الرّكوع، وضربني كحيوان وأنا أدافعُ عن نفسي بيأس. استيقظَ ابنُنا وناداني، مرتعباً. تمكّنت من جرّ نفسي بعيداً عن زوجي، وهرعتُ لسريره. مرّر يديه على جسدي السّاخن، ووجهي المخضّب بالدّموع، وهمس بصوت مرتجف: «ماما، لا أريد، لا أريد الذّهاب مع بابا. ابقي معي هنا. تعالي في سريري. لا تبكي...».

لم لا...؟ لم لا أطيع هذا الصّوت الشّجي؟ مضى دهرٌ مذ رضيتُ فيه بكلّ ذلٍّ وتصغير دون غمغمة، مذ كان بإمكاني تجاهل الذين منحوني

نوعاً آخر من الحرية... ابني إلى جانبي، وأراد البقاءَ معي. كانَ مقتنعاً بطيبتي ونقائي، وعندما شاهد معاملتي الظّالمة ثار هو الآخر. جعلتُ زوجي ينام على الأريكة في غرفة الطعام، وأخذتُ ابني للسّرير معي. هجر النّوم جفنَيَّ، وسهرتُ حتّى مطلع الفجر.

في صباح اليوم التّالي، سألتْني المربّية عمّا حدث. أجهل كمْ سَمِعَتْ. بدأتْ تعاينُ حزني الشّديد، ثم أمسكت بيدي وقبّلت الكدَمات الحمراء على ساعدي. هل مرّتْ بتجربةٍ كهذه حيثُ عوقبت بهذه الطريقة؟ لاحظتُ في عينَيها مراراً تعبيراً جباناً لحيوان عُومِلَ بلا رحمة.

خُضنا جدالاً آخر على الغداء. لا أتذكّر تفاصيله، لكنّي أتذكّر قبضَ ابني على يدي، بينما يحاول زوجي جرَّه وإبعادَه عنّي، أمره بالذّهاب إليه وتركي وحيدةً مع جنوني... ضحكَ عليَّ ببساطة فورَ أنْ طلبتُ الانفصال عنه. بإمكاني البقاء وكسبُ قوت يومي بكل يُسر إذا أردْتُ ذلك، لكنّ ابنه سيذهب معه أينما ذهب.

دُهش ابننا. آه، يا طفلي... سأموت إذا أخذوك منّي. أنتَ من لحمي، وأنتَ حياتي، وأملي في المستقبل. حتّى في هذا الوقت، أجد الرّاحة إذا احتضنتك...

بتُّ أدركُ حاجتي الماسّة للمحاولة مرّة أخرى، لكنّي استجمعتُ قواي ورفضتُها. لم أكن مستعدة للموت. يجب أنْ أعيش، لكن لأعيش أُجبرْتُ على الاستسلام لشراسته.

أدرك زوجي مرة أخرى أنه المنتصر. أصبح أهدأ، وأقلّ شرّاً. لعلّه اعتقد أنّ الأمر قد انتهى خلال الليل، وقرّر الاستمرار بنهجه، ولعلّ الاضطراب العاطفي الذي ألمّ به في الشّهور الأخيرة قد تبخّر أخيراً، ولعلّه نصّب نفسه في المرتبة الأولى الآن، وسيطلب راحته الماديّة فقط، أو لعلّه حَسِبَ أنّ تهديدي بحرماني من ابني يكفي لأرفعَ رايةَ الخضوع. وبهدوءٍ أكبرَ الآن، حاول الضّحك على ما حدث، كما لو أنّ ما حدث مجرّد ضعف خاطف. طلب منّي مسامحته. وعلى أي حال، اتّفقنا أنّي سأبقى لبضعة أيام إضافية في روما حتى تتعافى صديقتي.

-19-

بعد ثلاثة أيام من مغادرة زوجي للمرّة الثّانية، التقيت بـ«النّبي» أثناء تنزّهي مع ابني. كان مقبلاً باتّجاهنا بين الجموع، وهو غارق في أفكاره تماماً. وعندما شاهدَنا، أشرق محيّاه بابتسامة مفاجئة. ذهلتُ لسروره من مشاهدتنا.

أمسكَ بيد ابني وسأله بمزيج من الجديّة والحنان المحبّبين لقلوب الأطفال كثيراً، واللّذَيْن يقدِّمهما عددٌ قليلٌ من الرّاشدين. تذكرتُ فجأة ما حدث بعد لقائنا الأخير وشعرت بغضبٍ عارم أوشك أنْ يمنعني من الحديث. لكنّه سألني مباشرة كيف سارت الأمور. أخبرته أنّ غيرة زوجي مرضيّة مما يعني أنه لن يتمكن من زيارتي في المنزل. لقد ظن ذلك أيضاً، لكنّ تأكيدي لظنّه جعله يشتاط غضباً، ثم أخبرتُه أنّي لا أفضّل حرمان ابني منّي، ولذلك سأتخلّى عن خطّتي في هجر زوجي، وسأعود لوجودي البائس، والزائف، والقديم. نظر إليَّ بتعاطف، لكنّه لم يقلْ شيئاً. رغم أنّي لم أعترف لنفسي بذلك آنذاك، إلّا أنّه قد خيّب ظنّي. حتّى لو كان يحتقرني، فبإمكانه أن يقول لي كلمة تعاطف أو إيماءة يدعمُني فيها.

في ذلك المساء، وبعد العشاء، وأنا جالسة إلى مكتبي، وابني يلعب في مكانه المفضّل قرب المدفأة، وجدتُ نفسي فجأةً أنتحب نحيباً عنيفاً ورأسي بين يدي، والدّموع تنهمر على وجهي وجسدي. التفتَ ابني نحوي، مصعوقاً. حتّى أنا أخافني انهياري. لم أنتحب هكذا من قبل وهو معي، ثمّ جاءني وقبضَ على ركبتي. لمسَ وجهي، ورجاني بكلّ ودٍّ

يعرفُه أنْ أتوقّف عن البكاء – لكنّ ذلك لم يجدِ نفعاً. وفي محاولة أخيرة، التقطَ قلمي الذي على المكتبة ودسّه بين أصابعي قائلاً: «ماما، ماما، لا تبكي. اكتبي يا ماما. اكتبي... سأكون بخير. لا تبكي...».

ابتلّت عيناه بالدّموع، وهو يشاهدني باهتمام شديد. كانتا مملوءتيْن بحزنٍ شديد. أحبَّني حبّاً جمّاً، لدرجة أنّه كان مستعدّاً ليشاطرني ألمي. وأنا، أُمّه، التي خطّطتُ كثيراً لسعادته، وإنجازاته المستقبليّة، لا يمكنني إلّا قُبولُ ما قدّمه لي بامتنان.

أَكتُب؟ ابني، ورغم صغر سنّه، أدركَ أنّ عليَّ إغراقَ نفسي في عملي وفي أحلامي كما لمْ أفعلْ من قبل. سلامتي كانت شُغلَه الشّاغل. وبشكلٍ ما، كان يملكُ إحساساً بتعقيدِ ما أحتاجه، رغم أنّه لم يفهمْه. حبُّه لم يكنْ غيْرةً ولا تملُّكاً. أخيراً هناك على الأقل، شخصٌ واحد لم يصرّ على أنّه يجب أن يهيمن على حياتي هيمنةً تامّة.

لكن أيمكنني قبول القلم الذي ناولني إياه؟ ما عساي أنْ أكتب؟ لقد ألقتْ الكآبة بظلالها على أحلامي. أمنياتي تبدو الآن متنافرة، مستحيلة، نموذجيّة، مليئة بمتناقضات تثيرُ التّهكُّم.

انتقلتْ أفكاري إلى صديقي «النّبي». لم يتمكّن من مساعدتي. ماذا كنتُ أعني له؟ بدا أنّه يعامل الجميع، بمن فيهم أنا، كعابر سبيل قد التقى بطفل/ طفلة يبكي، لأنّ مكروهاً هيّناً قد أفزعه. مال إلى الطّفل دقيقة، ثمّ تابع مسيره. لم يمحُ سببَ الحزن ببساطة. أم محاه؟ قد يعتقد الطفل ذلك، وكنتُ مستعدّة لهذا الاعتقاد.

بدأتُ أفكّرُ فيما إذا كانت حياتُه، بعيدةً كلَّ البعد عن التّطهُّر وكمال الذّات، وكانت باردةً وفظّة... فأيُّ معنىً أستخلصُه من ذلك؟ إنّه يؤمن بأنّه سيكشف سرّه لبقيّة العالم... وأثناء إعداده لرسالته، كانت حياتي تنهار، وصديقتي تقاسي الآلام، وقد أنتحِر! ألا يوجد ما هو ذميم في عزلته؟

استلقيتُ على السّرير، لكن لم أتمكّن من النوم. وخلال تحديقي في العتمة، أصبحتْ أفكاري أكثر وضوحاً. وسألتُ نفسي لأوّل مرّة مذ

تنازلت عن فكرة الانفصال: ما الذي كنت أتوقعه؟ احتشدت الإجابات، كلٌّ منها عارضَ الآخر، وأفزعتني. أمقتُ نفسي لأنّي ضعيفة... كنت جبانة... لا فائدة من معاناتي؛ لم تجلب الرّاحة لي ولم تُعنِّي أو تُعِن ابني... تُقْتُ للسّعادة كما تاقَ هو لها... بدأتُ أتخيّل عذابَه عندما يكتشفُ أنّه هو ثمنُ إذلال أمّه.

راودَني سؤالٌ آخر: ماذا لو طلبَ منكِ [النّبي] التّخلي عن ابنك واتّباعَه، والاعتناء به، ومنح حياته الانسجام؟

هو! هل أصبح جزءاً منّي؟ هل أصبح أكثر من مجرّد مُرشد، وأسوة حسنة يحتذى بها، ومصدراً للسّلوان؟

ثم راودني سؤالٌ فتّاك آخر: هل تحبّينه؟ هل ستتخلّين عن كل شيء من أجله؟

تذكّرتُه على الهيئة التي شاهدتُه فيها ذلك اليوم، مسروراً أيّما سرور لمقابلتي في غفلة مدينة مزحومة. ألم تعشقه سيدة من قبل؟ ألا يعرف أنّ ذراعَي امرأةٍ تفهمُه ستمنحانه الطّمأنينة، والأمنَ من ظلام المجهول الذي أفزعه؟

كان يناديني بأختي... وليس بمقدور الأخت فعل شيء. لا بدّ أنّ هناك امرأةً أخرى [في حياته]، لكنّها لم تبيِّنْ له كيف يكون سعيداً... ولهذا يعِظُنا عن الزّهد، ويحاول إقناعَنا جميعاً بانعدام السّعادة في الدّنيا...

وببطءٍ، جاءني الجواب. أجلْ، كنتُ سأتّبعه، لو طلب ذلك منّي قبل أيام قليلة، حين كنت أؤمن به. لعلّ بإمكاني العيش دون ابني من أجله. أدركتُ أنّ هذا التّغيير الذي فِيَّ حديثٌ جدّاً؛ فقبل شهور قليلة – عندما خشيت موت ابني – لم أشعر بوجود من يستحقّ أنْ أعيش من أجله.

وعلى أيّ حال، شعوري نحوه ليس حبّاً. لا يمكن أن يكون حبّاً، لأنّي لا أريد شيئاً منه لذاتي. في الواقع، شعرت أنّه سيضعف في تقييمي، إذا قام بأيّ تضحياتٍ من أجلي. ولو قبّلَني، فلنْ يمنحَني أيَّ متعة.

لكن لو أراد أنْ أركعَ بإعجابٍ لغموضه الملهم... أن أخدمه بكل جهدي، قدرتي الكتابيّة، وحياتي... فنَعَمْ، سوف أفعل ذلك... وفي فعل ذلك فلن أحرم ابني من أي شيء.

وبلمح البصر، في غضون الأسبوع، أصبح حال صديقتي النرويجية أكثر سوءاً. لم يقل حبيبها شيئاً لي: نظر إليَّ بكل بساطة كما لو كان يرجو تعزيته، وقد فهمتُه - صديقتي العزيزة كانت هالكةً لا محالة... وقد تموت في أيّ يوم، وفي أيّ لحظة. فلماذا النّضال المستمر، والأدوية، والعلاجات التي لم نتمَنَّ أنْ تسكّن ألمها فقط بل وأنْ تشفيها؟ الجواب هو: حتّى لو أخبرَنا الطّب أنّ الموت مؤكد، فطالما أنّ قلبَ المريض يخفقُ نابضاً بالحياة، فيستحيل تصديق موتِه. نحنُ نؤمن بالمعجزات دائماً، بانقلابِ الأحوال، ونواصلُ الأمل إلى آخر الدَّرب.

جلسنا على جانبَي سريرها لساعات. نأمل: الشّاب المتألّم، عيناه تحدّقان بتمعُّن عبر نظّارته الطّبيّة. وأنا، أكثرُ بؤساً حتّى من المريضة التي تتفوّق لديها إرادةُ الرّغبة في العيش على وجهها الشّاحب المنهك.

بالنسبة لها، اندمجنا أنا وهو في حضورٍ واحدٍ واقٍ ومخلص. وفي أسوأ اللحظات احتشد الألم في عينيها، واحتقن وجهها بالدّم بينما أمسكت يداها بأصابعنا كتائبة [من ذنبها]. أما في لحظات الاسترخاء، فحاولت إجبارنا لنخبرها إذا كانت ستموت لتُهيِّئ نفسَها. لكنّها لسببٍ ما لم تفعل، لم تصدق أنّها ستموت. واصلت التّخطيط، وتحدّثت عن أرض قصيّة، بثلجها الأبيض - مضى وقت طويل مذ شاهدت الشّمس فيه! سنذهب معا إلى (فيورد)! سنذهب عمّا قريب، عند حلول الصيف! عندما وقف الشّاب بعد استماعه إلى قلبها الذي ينبض بقوّة في صدرها الأبيض الهزيل، شاهدت خوفه، شاهدته وهو يحاول التّحكم بأعصابه ليخفي ذعره.

هل ماتت بعد ذلك بوقت طويل...؟ لا أعرف. بدت معاناتها طويلة، لكنّها قصيرة حتماً.

ذات صباح، حينما كنت معها، أحضرت المربّية بطاقة بريدية من زوجي. كانت موجهة لابننا، ويكيل فيها الاتّهامات والقذف لي. كانت رسائله الأخيرة لي باردة وتهكميّة، وتجرح «النّبي». لم يعد مهتماً بصديقتنا المحتضرة.

لاحظت صديقتي تغيّر لوني. «أهي من زوجك؟». سألتني وهي تجمع شعرها للخلف كما في الأيّام الخوالي، وتمتمت قائلة: «لا تعودي إلى هناك، مهما كان الثّمن...». قبّلتُها بحنان، لكنّي لم أجبها. «لكن ماذا إذا أخذ منك ابنكِ؟»، همست، وهي تحدّق فِيَّ كما لو أنّها تنقُل لي شيئاً من إصرارها.

أخبرني الطّبيب أنّ أيَّ يوم إضافي أقف فيه على رِجْلَيَّ يتطلّبُ عودتي لمنزلي والرّاحة بضع ساعات، ثم التّنزه ربما تحت الشمس مع طفلي قليلاً.

عدتُ للمنزل وضممتُ ابني وقتاً طويلاً. لم أسترح. لم أتمكن من ذلك. اصطحبتُه معي لنستقل القطار المؤدي إلى دير القدّيس بيتر. فكّرتُ بالذّهاب إلى جيانكولو لزيارة صديقتي المتطرفة القديمة. الميدان المقابل للكاتدرائيّة شبه مهجور، وصفوف تماثيلها المبهرجة بدت أنّها تتألّق بنورِ وصمتِ النّهار. مشينا على قدمينا إلى بورغو سانتو سبيريتو، ومشينا إلى جانب حائط المشفى، وعلى الجانب الآخر من الشارع أطفال ونساء قطعوا لعبهم وثرثراتهم ليتابعوا مرورنا، ويطلبوا منّا صدقة. كانت ملاءاتهم معلّقة على الجدران للتّهوية، ممّا نشر في الهواء رائحة عطب. تتبَّعْنا نوافذَ المشفى المخطَّطة ونحن نصعد إلى كنيسة القديس أونوفريو، مروراً بمزيد من الملاءات المنشورة في الشّمس، وبمزيد من الأطفال الذين يرتعون. مجموعة من فتيات الكنيسة، تصحبهن راهبات، يمشين قبالتنا في الشّارع. وعند قمّة جيانكولو توقّفنا لالتقاط أنفاسنا. وتمثال غاريبالدي الأسطوري، يعاكس السّماء، ويتأمّل بهدوء القبّة التي عن شماله.

شمسٌ متوهجةٌ، سقطت أشعتها على البيوت المُتلاصقة، والبُروج، والأشجار المنتشرة أمامي، كثافتها لا تصدّق. وفي الخلف جبال أرجوانيّة ثابتة مقابل السّماء، وعلى قممها لطخات بيضاء لقُرى كاستيلّي المبعثرة المذهلة. وبين الجبال وروما امتدّ ريف لا حدود له.

روما! لعلّ شخصاً يجد إلهاماً جديداً يوميّاً وهو على تلك قمة، وهو يتأمل عدد البنايات الهائل: كلّ منها من عهد مختلف، ولكلّ منها عظمته، وأهميّته. ولعلّ شخصاً هناك يكوّن رؤيته المتعلّقة بمستقبل روما: خالية من الدّنس والعنف، حيث يعيش البشر بوئام، دون مزيدٍ من الجهل والعداء، دون مزيدٍ من الجفاء...

ثرثر ابني، وهو سعيدٌ بالاستحواذ عليَّ، أشار لطيورٍ على الأشجار، ومدّ يديه نحو الأفق في محاكاةٍ لإحدى إيماءات جسدي التي رآها مرّاتٍ عدّة. «انظري يا ماما، انظري، أليست سحابةً جميلة؟ هناك، فوق أشجار الصّنوبر! وانظري هناك، هناك، ما هذا المكان؟».

كانت المتمرّدة العجوز في منزلها، لكن كان لديها زوّار: محرّرة موليير مع ابنتها الكبرى وخطيبها، عالمُ آثار شاب. يتمتّع الشّابّان بالسّعادة والاعتداد بالنّفس. أخبرتْني والدتُها أنّها ستتمكن من مساعدة زوجها عندما يكتب بحثه، ولن تفعل ذلك بدافع الحب فقط بل لشغفها بالموضوع: يمتلك الشّاب ذائقة شعريّة حقيقيّة، جعلت الأضرحة القديمة وأجزاء الفخار التي عمل عليها تنبض بالحياة.

كانا يُصغيان، ويتبادلان الابتسام. لم أشاهد من قبل شخصاً يهدي نفسه للآخر مثلهما؛ إنّهما مستعدان للاندماج في بعضهما. ولوهلة شعرتُ أنّي جزءٌ من غرامهما، فهدأ روعي، ثمّ تذكرتُ الطّبيب الشّاب عندما مال على حبيبته المحتضرة. توتّرتُ فجأةً وأردتُ الرّجوع إليهما.

انتظرتني امرأةٌ عند باب منزلي: «قبل ساعتين يا سيدتي...».

لقد فارقت الحياة، بينما كان حبيبُها يناولها جرعة من الدّواء، مال رأسها للأمام وسقطت على صدره، وبفمٍ نصف مفتوح، قالت له: «شكراً».

«شكراً!». ألمْ تدركْ هذه المحتضرة التأثيرَ العميق لهذه الكلمة؟ لم أندم على المغادرة، لأنّها ماتتْ بين ذراعَي من تهوى.

وعندما وصلت لشقّتها كانت على السّرير، لكنّ الجسد لم يعدْ جسدَها. جاء بعض الجيران والزّملاء لمدّ يد العون: كان تدفق الزوّار مستمراً. لم أتمكّن من البقاء في الغرفة معهم، فلجأتُ لغرفتها الخلفية. انضمَّ إليَّ حبيبُها بعد وقت قصير، فنسيت حزني ومدَدْتُ له يدي. بإمكانه التّعبير عن حزنه بحريّة، لأنّه يعرف حزني: كنّا الشّخصين الوحيديْن اللذين أحبّاها بصدق. سهرنا معاً ليومين، نتأمّلها، ونتكلّم عنها، وعمّا كانت تعنيه لنا. بات وجهها المُحبّب الآن كالعاج تحت شعرها الذهبي الباهت. وبمرور الساعات تحوّل إلى قناع صلب... انتهت حياتها، انتهت... فكّرتُ فيه، ذلك الرّجل الذي ادعى فهمه لغموض الموت. لو كان يفهمه، فلماذا لم يأتِ ليكشفه لي؟ لماذا - قبل كل شيء - حينما علم أنّ صديقتي ستفارق الحياة، لم يزرْها ليمنحها خلاصة معرفته؟ سيكون ذلك اختباراً واقعيّاً!

عندما نشهد نهاية حياة شخص ما، سنعرف أنّ علينا التّخلي عن كل أمل في تحدّي المجهول... سندرك أنّ أبناء آدم ليسوا أهلاً للمهمّة، وأنّ قدرنا هو العيش على الأرض دون أن نتمكّن من تفسير سبب خلقنا حتّى لأنفسنا! أجل، إذا كنّا سنتوقف في الحياة انتظاراً للموت، فسنحصل على إدراك أعمق بقيمتنا الشّخصية: سنفهم أنّ إصرارنا في التفوق على جهلنا، سيمنحنا بعضَ الكرامة، وإذا قرّرنا خلق حياة جديدة هنا على الأرض، فنحن نتصرف ببطولة... لعلّنا إذا تفكّرنا في الموت، سنسمع نداءً ملتبساً، وقد يكون مصدرُه شخصٌ من المستقبل، ليشجّعنا على الاستمرار. كلّ ما هو محتجب عنّا الآن، هو جليّ لهم. لعلّ مصدر هذا النّداء شخصٌ يعيش في زمن جديد، عصر روحه متحرّرة.

الساعات التي أمضيناها قرب جثمان محبوبتنا لم تحوّلنا إلى نبيّيْن، ولم تستنزف قوّتنا أو تسلبْنا من شعور ضرورة استمرار حياتنا. لم تمكّنّا

تلك السّويعات من تولّي مسؤولياتنا فقط، بل وجعلتنا نتشرّب شيئاً من صفاتها، وطاقتها، ومبادئها، وحبها، مما قوّانا وأثرانا. بعد سهرنا، شعرنا بالأُلفة مع الميّتة، أُلفة وثّقت رباطنا بالأحياء. فكرة أنّي بذلتُ قصارى جهدي لتسكين معاناتها البدنيّة، منحتْني شعوراً بالطّمأنينة. لقد أنهت على الأقل حياتها القصيرة المضطربة، وهي محاطّةٌ بالحب. ماتت وهي واثقةٌ من أنّنا فهمناها، وأنّها ستعيش في ذكرياتنا.

أذهلَني التفكير بهذه الطريقة، لو أنّ محاولة انتحاري قد نجحت فسأكون أقلّ حظاً منها بكثير... من ذا الذي سيحبّني حبّاً حقيقيّاً قبل أنْ أغمض عينَيَّ عن حياة مهدورة وعقيمة؟ في لحظاتي الأخيرة لن يكون إلى جانبي إلّا ابني، غير مدرِكٍ... وحيداً... وحيداً.

قلت الكثير للعجوز في صباح الجنازة، التي جاءت لتقديم احترامها لجثمان الفقيدة، المزيّن الآن بالأكاليل. كنّا قرب النافذة، وقفنا بعيداً عن عدد كبير من المشيِّعين وبصفاء حدّقنا في هيئة جسدها، مكسوّاً بالكفن الأبيض، والجدران مغطاة بلوحات زاهيّة الألوان كانت قد رسمتْها بموهبة لم تنفد، قرب النّافذة المطلّة على الرّيف المتاخم لسوريتّي. على الأقل هي تنام بهدوء...

بإمكاني سماع صوت المرأة العجوز، ناعماً ولكن ملحّاً، وهي تسألني بتكرار: «ما سبب مغادرتكِ؟ لا بدّ أنك تعرفين الآن أنّ الخضوع ليس فضيلة».

تمتمتُ باسم ابني، ثمّ صمتَتْ، لكنّها ضغطتْ على جبيني بخفّة عدّة مرّات.

«لا تذهبي إلى هناك!».

وهذا ما قالتْه صديقتي العزيزة قبل أنْ تفارقَ الحياة أيضاً.

ومن بين جمع النّاس الغفير في الجنازة الذين يضعون الأزهار، لمحتُ «النّبي». بعد أيام قليلة، عندما مررتُ قرب منزله، تملّكتْني رغبةٌ

مفاجئة لمشاهدة المكان الذي يعيش حياته المعتزلة فيه، ولأنّني سأغادر قريباً، فيجب أنْ أودّعَه.

أسرعتُ الخطى إلى المنزل القديم الرّطب وصعدت السّلالم المعتمة.

وازدادت الظّلمة، كلّما صعدتُ دوراً إضافيّاً. كان قد أشعل شمعة. شاهدت: سريراً في الزّاوية، بمستوى على الأرض - سريرٌ متواضع في الواقع - وموقداً خزفيّاً حيث كان يشوي تفّاحتَيْن عليه، وعند النّافذة كانت هناك طاولة مغطاة بـالأوراق، كما شاهدتُ كتباً مبعثرة على الكراسي، ونظرة حادة من امرأة صورتها على الجدار - والدتُه، ربّما. مدّ ذراعه بتحيّر باتّجاهي وطلب منّي الجلوس. بدا نحيلاً.

واجهتُ صعوبة في تذكّر ما تكلّمنا عنه. اعتَذر لأنّ غرفته باردة جدّاً، وسألني عن ابني ورحلتي القادمة... كنتُ أشاهد شفتيْه: لم ترتجفا ولا مرّة. أشرتُ لدرج مكتبه. أكان كتابه هناك؟ أومأ برأسِهِ بشكل مبهم. ولسبب ما، ولا أعرف كيف، لا بدّ أنه كان يدرك أنّي لم أصدّقه... تكلّمت، وأنا على وشك البكاء - لكن لا بدّ أنّ عينيْ قد نقلتا له شعوري بالمرارة والهزيمة. بقينا صامتيْن. ثمّ حصل شيء استثنائي. وجهه - الذي ترتسم عليه أمارات شخص يعيشُ دائماً لوحده، بأفكاره - قد تغيّر جذريّاً واكفهَرّ. ولبضع ثوان، شاهدته يوثّق أعمق الأحزان البشرية، المعاناة الشديدة والصّادقة لشخص يدرك أنه سيُهجَر. وبسرعة استعاد سكينته المكابرة... علامةَ تفوّقه العصي.

وفي اليومين التاليين، كانت الصّناديق مبعثرة في شقّتي. بدت لي كتوابيت كثيرة مليئة بالأحلام والآمال والأثاث والكتب. كتبَ زوجي رسالةً ادّعَى فيها أنّه يحتاجني إلى جانبه، منكراً مشاعره للفقيدة. لعلّه أدرك أخيراً أنّها كانت تحبّ الطّبيب النفسي فقط، وسمح لغيرته بخنقِ البقيّة الباقية من حبّه لها. ولوهلة حاولت استغلال حريّتي، غير أنّي لم أنجح إلّا في تضييق وثاقِ أصفادي أكثر.

الفصل الثّالث

-20-

وبشكل مفاجئ، ولأوّل مرّة في حياتي شعرتُ بالاستقلال العاطفي التّام. وخلال حياتي في روما كانت لدي دائماً وساوِس - جزءٌ منها بسبب خوفي منه - لمحاولة تأكيد استقلالي من خلال إنكار الرّجل الذي يربطني به القانون. شعرت حينها بالهدوء والانفصال. وعند وصولي للمنزل، كانت هناك بوادر على مراعاة زوجي لاحتياجاتي: مجلات وكتب جديدة وضعت من أجلي على المكتب. ابتسم لي ابتسامة عذبة. اعتبرتُها تحذيراً من أنّه يحاول أن يجعلني أحبه مرّة أخرى. بدا مرغماً، متظاهراً، بخليط من المشاعر الغريبة. من ناحية، خجل لأنّ شغفه الخفي بصديقتي صار مشاعاً، ممّا منحني الفرصة لأخبره أنّي لا أحبّه. ومن ناحية أخرى، أراد استعادة الماضي المنسي، وتمنى تحقيقه من خلال إقناعي بعلاقة جنسيّة جديدة معه. ومع ذلك، افتقر إلى المثابرة الضّرورية، ليمنحني وقتاً لأستجيب لهكذا وسيلة. كان خجولاً، في غاية الضّعف. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى اكتشفتُ أنّ مقاصده الطّيبة كانت أكثر إجهاداً لي من جورِه وتعسُّفِه المنزليّ القديم.

كنت جزئياً محمية من رغباته الجديدة بسبب متطلبات وظيفته التي أنهكته. وبتصميم أردته أن يدرك أنّ لا شأن لي بهذه الفترة من حياته. علمتُ منذ البداية أنّه سيكون مديراً متعسّفاً أكثر من والدي، وانطباعاتي الأولى عندما وصلت للمنزل أكدت هذا. إضافة لذلك، بما أنّ العمال يعرفون أصول زوجي، لم يمتلكهم الخوف الغريزي ذاته من شخص

ينتمي لإقليم آخر. لقد كرهوا زوجي كرهاً شديداً أكثر من كرههم لوالدي. وفي الواقع، عندما التقيت الشّبان في اتحاد العمال، أدركت أنهم وجدوا زوجي هَزُؤاً. وقد منحهم هذا سلاحاً فتّاكاً بما أنّه من الصّعب طاعةُ أولئك الذين يتحوّلون إلى مادّة للسخرية.

أزعجتْني فكرة أنّي معرّضة للعنف كذلك. لكن ما الذي بوسعي فعله؟ لعلّ عليَّ الانخراط في صراعهم... من خلال تأسيس مدرسة أثقف فيها النّساء - اللائي ساهم جهلهن بارتفاع معدل الوفيات في القرية - أو أعلمهنّ القراءة والكتابة... لكنّي ولسوء الحظ، لم أمتلك شجاعة تعريض زوجي لهكذا مؤامرة، ولم أمتلك أي ثقة في أنّي سأعثر في المنطقة على شخص قادر أو مستعد لمساعدتي في المشروع. فجّر زواج أختي أول كارثة مؤلمة في هذه الفترة الجديدة من حياتي. أجهلُ السّبب، ولكن في الأشهر الماضية تأمّلت فكرة أنّها وخطيبها سيضعان حدّاً لخطوبتهما. لعلّي ارتبْتُ فيما إذا كان حبُّهما في مصلحتهما، ولعّلي غِرتُ من مشاهدتهما سعيدَين، أو لعلّي خشيت أنّ يكون حبّهما كحبّي - مجرّد تحقيق لرغبة. لست أكيدة. في الأسابيع التي تلتْ عودتي، كانت هي وأختي الأصغر تعدّان جهاز العروس، وبدتا في منتهى السّعادة. أختي الوسطى، تحديداً، كانت تتوق لتمسك حياتها بين يديها لتصنع شيئاً منها. تذكّرتُ أمّنا وتساءلت عمّا إذ امتلأت كذلك بالثّقة عندما تخلّت عن نفسها معتقدةً أنّ حبَّها لنْ ينضب.

أقامت أختي حفل زفافها ليلاً في قاعدة البلدة. كان أخي الشّاهد الوحيد من أسرتي. لقد رفض خطيبها حضور زوجي للزّفاف، ولهذا لم أتمكن من حضوره أيضاً. أمّا أبي فقد رفضه رفضاً قاطعاً إلى النّهاية، حتى أنّه رفض أقلّ مهر. ومع ذلك عندما أقبلتْ عليه هذه الفتاة الجميلة شديدة التماسك، والتي ورثت كثيراً من صفاته، وكانت أمّاً أخرى لأطفاله لوقت طويل، وأدرك أنّها ستغادره في نهاية المطاف، ذرف الدّموع. بكيتُ أنا أيضاً، في غرفتي المظلمة. بكيتُ لأنّ الخطوة التي كانت ستقدم

عليها نهائيّة، لأنّ أسرتنا كانت بالفعل معقّدة ومتشابكة في سلسلة من الإخفاقات - ألا تكفي كوارثُنا حتّى نزيدها...؟ على الأقل، هذا هو سبب بكائي. ولكن في الحقيقة، لا بدّ أنّ دموعي كانت حسرةً عقيمة على عزلتي، وعلى حالتي الذّهنية التي حرمتني من أنْ أكون قرب أختي في أسعد لحظة في حياتها، والتي جعلتني غير ملائمة لحضور المناسبات، وأبعدتني عن الرّفقة المرحة لأولئك الأشخاص المتفائلين واللطيفين...

أثناء استلقائي، شعرتُ بالاختناق بسبب اضطراب غير بيّن. تُقت لحنان شخص يخفّف العبء عنّي، وتُقتُ لأن يكتنفني الشّعر والألوان والأصوات. وأنا شبه نائمة، سقطت في حلم من الوجْد، نشوةٌ لم أختبرها من قبل. نبذتُها في نهاية المطاف، لكنّي استغرقتُ وقتاً لأدرك مكاني. هرعتُ بجنون لطفلي، وضمَمْتُه بين ذراعَي. لم يتفاجأ، لكنّي شعرت أنّه يريدني أنْ أبادله الابتسام.

حاولت التّبسم، لكنّه أبعد يدَي وحدّقَ فِيَّ، متسائلاً ومتوتّراً... ما الذي يدعوني لنقل حزني لطفلي الصّغير، لأطلب منه شيئاً لا يستطيع منحه لي؟ ولماذا أطلب بسخافة منه حبّ حياتي الذي طالما افتقدتُه؟ شعرت في تلك اللحظة أنّ كل شخص عرفته، بمن فيهم أمي، وأختاي، وأخي، كانوا أشبه بأشباحٍ عابرة، لم يعرفونيْ تمام المعرفة، لم يكتشفوا شعوري العميق، أو كيفَ يمكنني أن أكون جديّة. لم يقدم لي أي شخص قَطّ أي شيء ليساعدني على النّمو، ولم ينقذني أي شخص من الدّموع، كما لم أفعل أي شيء للآخرين، لم أظهر لهم حبّي، ولم أساعدهم على تحقيق أي شيء، ولم أتعاطف مع أي شخص منهم.

وعرفت أنَّ مشاعري الجيّاشة، المكبوحة بصرامة، باتت تثقل كاهلي الآن، وتخنقني بانتقام... كنت متأكدة من أنّ ذلك الشّعور ما يزال فِيَّ، وسليماً تماماً، وجامحاً، وأنّي إذا أطلقتُه، فإنّ صرختي الثائرة على اليأس ستملأ صمت اللامبالاة كلَّ النّهارات والليالي.

لكن لا مجال للثورة، فلماذا البؤس؟ كانَ فصل الرّبيع، بدا الرّيف

جميلاً. كنت مع ابني الذي يكبر، فما سبب حزني على الماضي؟ ولماذا أتذكّر وجوهاً فقدتُها؟ ولماذا أتخيّل أن أشخاصاً لم ألتقِ بهم من قبل يكلّمونني إمّا بشفقة أو بغضب، ويجعلون نبض قلبي يتسارع؟ ولماذا، وأنا أنتظر زوجي كل ليلة في السّرير، أنأى عنه ذهنيّاً، هل شعرت أنّ دمائي تتدفّق بألم، فحرمت نفسي من شيء كان مشروعاً؟ وبعد الوجع الذي كابدته في هذه القرية، كنت ما أزال مصرّة على الانتصار عليه. ما زلت أريد، بشدّة كما في السّابق، أنْ أعرف النّشوة الجنسيّة. ما زلت أصدّق أنّ سعادة الجسدَيْن المتمازجَيْن قد تخلقُ حياةً جديدة، وتساعد البشر على تحقيق الكرامة الإنسانيّة.

المرأة السّاكنة بلا رغبات التي كنتُ عليها قبل عدة أشهر، بدتْ قصيّة، ومخلوقةً معقّدة. قبل زمن طويل، حاوَلَت فهم معنى أنْ تكون إنسانة، تبدو الآن منفصلة تماماً عنّي. معنى الوجود البليغ الذي لا يقاوم، قد كُشف لي الآن، في صحراء الرّوح العظمى التي سمحت لها بالانتشار حولي. كان تجانساً، ولا أكثر من ذلك، اللذة المركّبة لكل حاجة، جنسيّاً وعقلانيّاً، للقلب وللرّوح...

زوجي، متعباً ونزقاً، جاء للغرفة المعتمة. أضاء النور، وتحرك دون أن يرى إذا كنتُ مستيقظة أم لا. أغمضتُ عيني بشدة، ثم شعرتُ بثقل جسده إلى جانبي. مزّق الصّمت بهمهمته، يحاول إيصال حبّه ورغبته، ثم قبض علي... ارتدّ رأسي للخلف، على الوسادة... كل ما شعرتُ به هو الغضب والإحباط. كرهي له ولنفسي جعلاني أشعر بالغثيان. وشعرتُ مرّة أخرى بصدمة جنوني الوشيك.

نام. بقيتُ مستلقية، وأنا أصغي لأنفاسه الثّقيلة لساعات. أفكارٌ قلّبتها مراراً وتكراراً في ذهني، كانت تمزّق لحمي إرباً، وتؤلم رأسي.

هل سيكون هذا محور وجودي؟ هل سأستخدم كأداة للمتعة فقط، مهانة جنسيّاً بلا شفقة خلال تعاقب الليل والنّهار، حتّى أموت؟

بعد أسابيع، غادر والدي أخيراً إلى ميلان، مغادرة بلا عودة،

ومعه ذهبت أختي الصّغرى وأخي. أمّا أختي الأخرى فقد ذهبت مع زوجها ليعيشا في فينيتو. ولم يبق أي شخص من أفراد أسرتي يقيم بالقرب مني. وفي عيد الفصح انتقلنا إلى منزل والدي الرّحب الذي أخلاه. أحاطت بالمنزل حديقة كبيرة، فيها بضعٌ من شخصية والدي. ذلك الاخضرار المتداخل، وتلك المجموعة المهملة والجميلة من الشّجيرات والأشجار، كشفت عن مدى حاجته للجمال، وكم أراد التّعبير عن فردانيّته، وكم أحب البساطة. لقد منحَ الحديقة أكثر ممّا منحتُ أنا أي شيء. كم من حديثٍ مرتبكٍ تكلّم به، ولم يدعمه إلا كبرياؤه، أمام جمهور الأزهار الصّامت! كان وقع الزّمن ثقيلاً عليه هو الآخر. لقد شيّد مصنعاً بلا رحمة، ومنحَه كلَّ اهتمامه ومجهودَه، وقد استخدمَه لتغيير مجتمعٍ كامل، وأخرجَ أهلَه من عطالتهم التّقليدية، ووسّع آفاقهم. لكن التزامه أصبح سخيفاً. أمسى منعزلاً، بلا أصحاب يبادلونه الأفكار أو يجادلونه. وحتّى طموحُه في أنّ إنماء الطّبيعة قد يعود عليه بحبٍّ لم يمنحه إيّاه أخوه الإنسان قد ذهب مع الرّيح.

أصبح ابني ملِكاً سعيداً في منزل جدّه السّابق. لعب تحت أشعة الشّمس معظم النّهار، بينما كنتُ أقرأ أو أحلم أحلام يقظة. ألبسته قميصاً مصنوعاً الكتّان يصل إلى ركبتيه، ولوجهه الوضّاء، وعينيه الزّرقاوين اللتين تعلوهما تموّجات شعره الذّهبيّة، حسبتُه سيغفريد مُصغَّر[2]. كان رفيقي الوحيد. وإذا ما هرعتُ لغرفتي، تركتُ باب المنزل مشرعاً لنور الشّمس، وعوّضني كما لم يفعل أي شخص آخر عن عقوبة تواصلي المعتاد مع أسرة زوجي. وبعد زمن، سامحتُ خالتي على صيحات تعجُّبها المزعجة كلّما شاهدَت منزلنا، وحديقته والأوركيد. «إنّه الفردوس»، كانت تصيح قائلة. «يمكنكِ العيش كأميرة هنا! على الأقل لقد تحقّقت العدالة يا بني!». لكن حماتي، ومنذ وفاة الطبيب، باتت أكثرَ اكتئاباً وسخطاً من ذي قبل: كنت متيقنة من أنّها

2- بطلٌ أسطوريّ قَتَلَ تنّيناً في الميثولوجيا الألمانيّة - المترجمة.

تدرك مدى حزني، ولا بدّ أنّها ابتهجت، لكنّها ادّعت أنّي كأي شخص آخر تتواصل معه.

أما زوجي، فمن الواضح أنّه كاد يطير فرحاً عندما وجد نفسه محطَّ إعجاب الآخرين: أوشك أفراد أسرته على عبادته! لكنّي وجدته مصدر إزعاج لا يلين؛ على المائدة، وفي الحديقة، وفي الشارع، فاجأتني تصرّفاته الجديدة، التي لا يمكن غضّ الطّرف عنها.

قاطعت روتين يومنا الممل أحياناً زيارةٌ مهمّة لعميلٍ أو مُورّدٍ تجب دعوتُه على العشاء. عندما همّ أحدهم بالمغادرة، هنّأنا على المناخ الثّقافي في منزلنا. حاول زوجي أن يشكرني بعد ذلك، فقاطعتُه فوراً، لأني لا أريد سماعه. جرحه تصرّفي هذا، فالتزم الصّمت حتّى بات بوسعه الثّأر لنفسه بتهكّم، واستهزاء، أو تندّر. أصغى ابني إليه مصعوقاً – وهو يضغط على يدي أحياناً، ليُظهر لي مؤازرته الضّمنيّة. شعرتُ بالسعادة والحزن لأنّه أدرك أنّ ثقته بسيطة في والده المجادل، وسيِّئ الطباع.

خرج جميع من في المنزل في إحدى الليالي، وتركوني في المنزل. وضعتُ ابني في سريره، ثمّ غصت في كرسي من الخيزران في الحديقة. حدّقت لا إراديّا في كآبة العوالم الصّامتة للنّجوم المُنتشرة. لم أشعر بإغواء التّبصّر في غموض الكون، بل انغمستُ في عذابٍ بشريٍّ أكثرَ ضرورة وغرابة: الخوف من الموت الوشيك في هكذا محيطٍ غريب وعنيف، دون أن أترك أثراً يدلّ على وجودي بعد وفاتي... عِظَمُ السماء ذكّرني مرّةً أخرى، بأنّي مُصَفَّدةٌ بالأغلال، وتطوّقني حياةٌ وحشيّة، جعلتني خانعة خاضعة بلا حول أو قوّة على فعل شيء، باستثناء الشعور بالاكتئاب المستمر...

قفزتُ من مكاني لأطمئنَّ على ابني النّائم. إنّه على الأقل ينام نوماً هانئاً، أثناء فزعي... لو أنّ لي فقط إنقاذه، كنزي، من مستقبل يشبه مستقبلي! لو أنّ لي فقط ضمان أنّه سيكون سعيداً طوال حياته، كما هو الآن في هذه اللحظة، مستمتعاً بنوم طفولته الآمن!

وأنا أشاهده، تصوّرته وهو يطلب الصّفحَ منّي. ضغطت يده الصّغيرة إلى شفتَي. لا يوجد ما أسامحك عليه. في الواقع، سيكون طلبه مبرّراً، «لماذا ضحّيتِ يا أمي المسكينة بنفسك؟»، عذّبني ضميري. كيف ستكون حياته وهو ينشأ مع هكذا والديْن؟ ورغم كونه الشّخص الوحيد القادر على التّبسُّم بابتسامة سعيدة عفويّة، إلّا أنّ ذلك أصبح حدثاً نادراً الآن.

لقد احترم حاجتي للقراءة، والتّعلم: كنت الوحيدة القادرة على غرس معنى أن يعيش المرء للأفكار فيه. ولعلّه أدرك أيضاً أنّ بإمكان الحياة ممارسة ألاعيب غريبة. أصبحتُ – عليَّ الاعتراف – أكثر ميلاً لمعاملته بسوء، تخفيفاً عن العذاب الذي أتحمّله في لحظات حياتي الحالكة. طالبته بالكثير؛ إمّا أنْ أُجبره على الدّراسة دون أنْ أسمح له باللعب، أو أنْ أهمله، فيلعب في الحديقة أو يركض إلى المصنع، أو أنْ يُرفّه عن نفسه بتلوين الرّسومات أو يرسم على أوراق الصّحف التي أبعثرها على الأرض، متجاهلة احتياجاته. افتقرت إلى رباطة جأش المعلمة، ولم أكن مسترخية بما يكفي لأرشده في تجاربه. ولم أشعر باهتمام لما يحتاجه، أو بكيفيّة تلبية حاجاته. مرّ زمنٌ كرهت فيه نفسي. عزمتُ على التّضحية بنفسي من أجله، ووضعتُ احتياجاتي في المرتبة الثانية من أجله، ومع ذلك كنتُ غير قادرة على تكريس نفسي لتطوّره التّعليمي، رغم ملازمته لي معظم الوقت. أتعستني الفكرة حرفيّاً.

ثمّ اكتشفت أنّ شعوري هذا، هو شعور أمّي بخصوص علاقتها مع أبنائها! في يوم ما، فتحتُ صندوقاً صغيراً فيه أوراق أعطتني إيّاه أختي قبل مغادرتها إلى فينيتو، اطّلعتُ عليها – لم أملك الشّجاعة على فعل ذلك من قبل. وجدتُ رسائل أرسلها أقارب، وقوائم تسوّق، وملاحظات كثيرة، ونسخاً من رسائل كتبَتها لوالدَيْها، وأختها، وزوجها. كما وجدتُ بعض القصائد التي تعود لفترة شبابها؛ قصائد عاطفيّة، تنضح بصدق مأساوي، وكانت هناك ملاحظات كتبتها في فترة انهيارها، قبل ذهابها لمشفى الطّب النّفسي، عبّرت فيها عن شعورها كأمّ.

وأثناء قراءتها وجدتُ رسالة أذهلتني. تعود لأيام ميلان، وقد كُتبت بقلم الرصاص ليلاً. كانت إلى الآن غير واضحة تقريباً. تُطلع فيها أمي والدي أنها ستصل في اليوم التّالي: كانت حقائبها مجهزة بممتلكاتها، في الحضانة، مستعدة لعناق أبنائها قبل أنْ تبتعد عنهم...

«عليَّ المغادرة... سأُجَنُّ هنا... لم يعدْ يحبّني... وحزني شديد، لأنّي لا أستطيع أنْ أحب أبنائي أيضاً... يجب أنْ أهجرهم، يجب أنْ أغادر... أنا آسفة على أطفالي، لكن لربما في هذا خيرة...».

لم تكمل الرّسالة، وكان من الواضح أنّها لم تُعِدْ كتابتها أو تُرسلْها. كانت تعوزها الشجاعة لتنفيذ قرارٍ قد اتخذتْه في لحظة يأسٍ بَيِّنٍ قطعاً. لعلّها خشيتْ الفقر، أو صدّقت أنّ قلبَها سيُفطر إذا هجرتْ أطفالَها، والرّجلَ الذي شاطرتْهُ شبابَها. أحبّتْه يوماً ما - أكانت تحبُّه عندما كتبتْ الرّسالة؟ بما أنّها ظلّت فلا بدّ أنّها قد فعلتْ ذلك من أجله، من باب شعورها بالواجب والخوف من أنْ يتهمها يوماً بهجرنا.

لم ألاحظ أيَّ علامةٍ على مرور أمّي بهكذا كارثة. في ميلان، مهما كنت ناضجة أو ذكيّة في طفولتي، لم ألحظْ شيئاً عليها. كمْ تمنَّيتُ لو أنّي أكبر سنّاً آنذاك، حينما كانت تحتفظُ بقدراتها كليّاً، وكانت لا تزال متحمّسة للمقاومة لنيل حقوقها من القوة المغوية والمميتة للتضحية! لو كنت قادرة على جذب انتباهها، ولو أنّها سألتني: «ماذا يجب أن أفعل يا ابنتي؟» لكنتُ حتماً، نيابةً عن أخي وأختَيَّ كذلك: «يجب أنْ تتركينا يا أمي، اتركينا!».

نعم، بالتّأكيد سيكون هذا هو جوابي. كنتُ لأقول: «يجب أنْ تتّبعي متطلّبات إدراكك. قدّمي احترامك لذاتك على كلّ شيء. كُوني شجاعة. حتى وأنتِ بعيدة، واصلي المقاومة، والعمل، والنّضال. واعتني بنفسك كذلك. وسنعرف يوماً ما كمْ تعذّبتِ في تلك اللحظة، وسنكوِّنُ رأياً يخصّنا بقرارِك. أمّا في الوقت الحالي: فاحمِنا من مشاهدة تدهوُرِكِ في كارثةٍ موجعةٍ لا مناص منها!».

لكننا لم نفهمْ معاناتها، وتُرِكَتْ للجنون. ولو أنّها ابتعدت عنّا – حتّى مع رفض والدنا لانضمامها إلينا – كنّا على الأقل سنستفيد من تجربتها كامرأة مستقلّة قبل عشرة أعوام، أو عشرين عاماً، حتّى لو أنهكتها تلك التّجربة...

لماذا نعظّم من شأنِ التّضحية في الأمّهات بالذّات؟ من ذا الذي منحنا هذه الفكرة اللاإنسانيّة: أنّ على الأمهات قمعُ أحلامهن ورغباتهن؟ لقد انتقلَ الرّضى بالعبوديّة من الأمّهات إلى بناتهن قبل قرون عديدة، حتّى غدا الآن جنزيراً قبيحاً يقيّدهن. كلّ امرأة – في مرحلة ما من حياتها – ستدرك أنّها تدين بالكثير للرّجل الذي جعلها تنجب، وفي لحظة وعي ستشعر بندم شديد، وستدرك أنّها لن تعوّض أمّها كليّاً عن الضّرر الذي ألحقتْه [الأخيرة] بنفسها، من خلال فعلِ الخير لأبنائها. لكنْ ما إن تصبح الابنة هي بنفسها أمّاً، فإنّها تضع ردّ الدَّيْن في اعتبارها: تُنكر حقوقها، وتقدّم نموذجاً جديداً على سحق وقتل الذّات. وما الذي سيحدث إذا كسرتْ فتاة هذه الدّورة المرعبة نهائياً؟ ماذا لو رفضتْ الأمّهات إنكار أنوثتهن، ومَنَحْنَ أطفالهن أسوةً يُحتذى بها تعيشُ حسب حاجات تقدير الذّات، بدلاً من التّضحية بنفسها؟ لعلّنا سنتعلّم حينئذ أنّ واجبات الوالديْن تبدأ قبل ولادة أطفالهما بوقتٍ طويل، ولعلّنا سندرك أنّ العلاقات المبنيّة على الهيمنة والتّضليل منبعُها الأنانيّة، ممّا يجعلنا نركّز أكثر على المسؤوليّات المتعلّقة بالأبوّة والأمومة. وفي نهاية المطاف، سيشعر الزّوجان بالثّقة لأنّهما يمتلكان القدرة على تكوين حياة جديدة تتمتّع بالصّحة والقوّة وسيحافظان عليها، وهذه ظاهرة مميّزة. إنّه تصرّف يستلزم خنوعاً مهولاً. ألا يقدّم الاعتراف بهذا مستقبلاً أفضلَ للأطفال؟

يجب أن يشعر أطفالنا بالامتنان لنا لأنّنا نتمنى أن تكون حيواتهم أسعد وأكثر إمتاعاً من حيواتنا؛ يجب ألّا يشعروا بالدَّيْن لأنّنا أنجبناهم دون تفكير، وتنازلنا عن هُوّيتنا.

أبقتْني هذه الأفكار ساهدةً بعد قراءة أوراق أمّي. ذكّرتني بعذاب

الضّمير الذي شعرت به في روما، لكنّه بدا أكثر إلحاحاً وأكثر خطورة. والأمور التي أدركتُها في تلك الليلة أصبحت أقوى وأقوى خلال الأيّام والأسابيع التّالية.

أنا أسنُّ قانوناً يخصّني. قد يسبب حزني، لكنّه بات الآن جزءاً لا يتجزّأ منّي. ومع مرور الوقت، سيصبح غريزيّاً حتماً، وسيجبرني على التّصرف. وعندما يحين الوقت، سأطبّقه بيسرٍ كما تتبع طيور السّنونو **الأحداث الحالية** في نسمات الرّبيع.

أصبحت أكثر هدوءاً، ولكن خارجيّاً فقط. سيطرت عليَّ الأفكار الجديدة أحياناً، حتّى أصبحت أفكاراً مجرّدة، بلا أي أهميّة لذاتي. بدت كحقيقة طبيعيّة وواضحة، والتي حتى الآن لا ترتبط بطريقة معيشتي أنا وجميع من حولي.

الوحيدة التي لاحظتْ كلّ تغيّر فِيَّ هي المربّية. ورغم أنّها نادراً ما كلّمتْني، إلّا أنّها اعتادت على ملاحظة تقلّبات مزاجي، والتّعبيرات القاسية التي ارتسمتْ على وجهي أحياناً قد فاجأتْها وأفزعتْها، فيما اعتبرني الآخرون كما لو كنت ما أزال طفلة. لكنّها حاولت إسداء النصيحة لي، توسَّلتْ أنْ أعمل كما كنتُ أفعل من قبل، أنْ أطمح، وأثقَ بالمستقبل.

تأثّرتُ من اهتمامها لي. بدا لي أنّ بساطتها وعاطفتها قد تطوّرتا إلى إدراك بديهي غريب يتعلّق بحالتي الذّهنيّة؛ لعلّ ذلك يعود إلى رفقتنا المتواصلة على مدار السّنوات الماضيّة. أو لعلّ الكلمات القليلة التي قلتها لها قد أثارت فضولها، أو لعلّ اكتئابي المتزايد وتناقض أقوالي قد أوعزا لها بقطار من الأفكار والذي سمح لها بالدّخول إلى سجن أفكاري الحاليّة السّوداويّة.

كل ما أردته هو التّأثير بحريّة على كل مخلوقات الافتداء، أنْ أمنح ابتسامةً، أملاً، والهمّة لجاهلات لم يدركن بعد أنّهن قادرات أيضاً على تغيير حيواتهن، وما زلن يحسبن أنهنّ وُلدْن ليعانين!

أصبحتْ قوَّةُ عواطفي أنقى، وذاتَ جناحَيْن، تستثار عند الشّروق، وتهمد عند الغروب. شعرْتُ بمقدرتي على كتابة أكثر القصائد سموّاً. كل فكرة كانت بمثابة ثورة إلى نور ساطع، أو ارتقاء بين قمم ثلجيّة، أو تنزّه وسط زهور بديعة. اختبرتُ لحظات من البهجة الخالصة – ببساطة، كنت سعيدة لأنّي ما زلتُ على قيد الحياة، كما لو أنّ نسمات الرّبيع قد هبّتْ لتذكرني بأوراقٍ جديدة تتفتّح. استنتجتُ أنّ الأدب إمّا أن يؤدّي إلى تحقير الذات أو أنْ يحفظ كرامتها. سيمضي الزّمن، وستتغيّر الأوهام والثّوابت، حتى رغباتنا ستتبدل، لكنّ ردود أفعالنا المتعلّقة بقوّة الحب والألم لن تتغير. علينا التّصدي باستمرار لمسخ وجودنا مرّة أخرى، سنزداد تواضعاً إذا عرفنا أنّ حتّى في تلك الأماكن التي آمنّا بعزلتنا تماماً فيها، سنجد تعاطفاً ورفقةً.

وازدادَ التّوترُ بين زوجي والموظفين في ذلك الخريف أيضاً، تماماً كما حصل مع زوجي في العام السّابق. كانت عوائد المصنع الماليّة ضخمة، ودُفعت لزوجي المدير نسبةٌ كبيرة منها، لكنّ رواتب العمّال ظلّت متذبذبة والضّوابط قاسية. وجدت في هذا ظلماً كبيراً. شعرتُ بالخزي لقلّة حيلتي وأحزنتني عطالتي. جَماعات من العمّال مرّوا قربَ بوّابة الحديقة في ذهابهم وإيابهم من العمل، وهم يضحكون عليَّ بازدراء. وعلى قدر كرهي لوقاحتهم، شعرتُ أنّهم يستحقّون احتراماً أكثرَ مِنّي. خشيتُ مغادرة المنزل، فتجوّلتُ في الحديقة لساعات حتى الصّباح، كشبح، كأمّي تماماً... حياتي تشبهُ حياتَها. هل كنتُ أسافر في الاتّجاه ذاته؟

كما ازداد حزني، وكنت مرهقة بشكل متواصل. ولفترة من الزّمن خشيتُ أن أكون حاملاً مرة أخرى. موجة الرُّعْب التي ألَمَّتْ بي بسبب الفكرة كانت دليلاً واضحاً على تعاستي. بدأتُ أتمنّى الهروب وتركَ المنزل ورائي.

طلبتُ من زوجي أنْ يسمحَ لي بالذّهاب للبقاء مع أخي في ميلان. كان قد رفضَ هذا من قبْل، لكنّه وافقَ الآن. تلاشى خوفي مِن أنْ أكونَ حاملاً، لكنّه خمّن سببَ قلقي، فأصبحتْ علاقتُنا لا تُطاق. افترقنا دون أن نتبادل أيَّ كلمة، ومع ذلك شعرتُ بتهديدٍ من هدوئه.

وغرقت مرة أخرى في الحياة المدنيّة، مدينة طفولتي هذه المرّة. هذا لا يعني أنّي جبتُ الشّوارع والمنتزهات بحثاً عن الفتاة التي كنتها قبل خمسة عشر عاماً، لكنّي ذهلت لأنّ المكان ما يزال مألوفاً. بدت الميادين، وإضاءات الشّارع الممتد إلى مرفأ السّفن المهجورة كما أتذكّرها ليلاً. تلقّيتُ هنا دروسي الأولى من والدي، تعلّمتُ احترام، وحتّى عبادة المنجز البشري بأكمله. علّمني والدي في طفولتي - بشيء من الإبهام - أنّ الإنسان المتمدّن يخوض صراعاً رائعاً لا توقفه حدود الطبيعة، أو عجز مواردها الطّبيعية. قد تجعل الجدران المدينة أشبه بسجن، لكنّ البشر ما زالوا يشعرون بينها بقوة وحرفية في أنفسهم أكبر ممّا يشعرون وهم تحت السّماء المهيبة والشاعرية، في الجبال، أو قرب البحر، حيث يجبرون على مواجهة لا مبالاة عناصر الطّبيعة. بالاستعراض المتفاخر في مدنهم يمكنهم تأكيد قواهم، وفي ذلك البرهان الأحدث على إبداعهم.

كنت أدرك أنّ الدّافع في ميلان وروما - كما في البلدة الرّيفية التي أقمت فيها - لكلّ هذا المجهود الإنساني هو فردانيّة أنانيّة. عندما شاهدتُ حشود النّاس لاحظتُ تداخلهم في بعضهم بسرعة، دون أن يُبْدُوا أي علامة على وعيهم بوجود أي شخص آخر. لكن عندما زُرت ضواحي العمّال الشّاسعة، وشاهدتُ المدارس الحديثة، وحضرتُ الاجتماعات العامة، أدركت أيضاً أنّ في داخل شبكة المدينة الفوضوية العقدة المستحكمة هناك تغيّر هائل يحدث، ووعي جديد كان يُنتج. ما يزال هذا الوعي مشوّشاً، ومع ذلك هو يحتوي على رؤية للمستقبل نشأت في مشاعر متبادلة، بالتّواصل بين الماضي والحاضر، في إدراك الأهميّة المستمرّة للعزلة. المدينة لا غير بإمكانها صنعه. الأشخاص

الذين كوّنوا هذه الرؤية الجديدة ذوو حضورٍ لطيف ومعدودون. لكنّي شعرتُ أنّ أفكارهم تشبه أفكار صديقتي العجوز المتمرّدة في روما. وكنت أغبطهم، كما غبطتها. حبّ الغير لديهم عظيم، وقد أيقنت أنّه قوي بما يكفي حتّى لدفع المدينة الصناعية الحديثة قُدماً، نحو مرحلة جديدة من التّغيير.

اصطحبتْني أختي الصّغرى لزيارة أشخاصٍ كانوا يخطّطون للعيش في مجتمعاتٍ ثوريّة. كان من الواضح أنّها أرادت الانضمام إليهم، ولو بجزء بسيط، وقد أصابني هذا بالتّوتر. ومع ذلك فبإمكاني فهم رفضها لتكون مجرّد مُلاحِظةٍ نكرةٍ وجاهلةٍ لحيوات البشر الآخرين. لقد مرّت بفترة تعيسة في ميلان. تركها والدي وحيدة مرات كثيرة، دون أن يكون لديها ما تفعله. إنّها الآن ضجرة ومحبطة، ولذلك تخرج من المنزل دائماً. حصل أخي على وظيفة في المصنع ورفيقة، وأمل أن يعيل راتبه كلاهما. لقد حضر ورش عمل في الجامعة، وكوّن هناك صداقات في غاية الأهميّة، ونتيجة لذلك أهمل أخته. سألني قائلاً: «لكن ما الذي بوسعي فعله؟ إنّها تحتاج رفيقاً من جيلها». أصغَت لحواراتنا باهتمام، بعينين متعجّبتيْن. صحيح... لم يكن لديها رفقة حقيقيّة، لا صديق يهتم بها ويمنحها الإثارة التي تحتاجها لحياة أكثر نشاطاً، ولذلك تركيزها ينصبّ على مشاعرها الخاصة، وقد انتبهتُ إلى سرعة وسهولة انتقالها من أقصى مراحل الحزن، إلى قمة السّعادة. ما زالت تملك حيويّة فتاة شابّة، لكنّها دائمة التّخوّف، لدرجة أنّها هي الضّحيّة الأساسيّة من زواج والدَيْنا الكارثي، وحُكِم عليها بحمل الصّراع المستعصي في داخلها بقيّة حياتها. كانت تسألني عن سبب عدم زيارتها أكثر، وهي تحدّق فِيَّ كما لو كنتُ أحمل مفتاح مستقبلها.

توتّرها جعلني أخاف عليها، لكنّي شعرتُ أيضاً بمتعة كبيرة حينما أكون برفقتها. اعتقدت أنها أظهرت وعيّاً ثاقباً بالمشكلات التي ألمّت بها في الحياة، وشعرت أنّي ساهمت في حكمتها على الأقل. استحال

التّنبؤ فيما إذا كان أخي أو أختي سيجدان رضى حقيقيّاً في حياتيْهما، لكن عندما أخبراني عن همومهما وآمالهما، أدركتُ أنّهما يمثّلان جيلاً جديداً. أختي - ككثير من النّساء المعاصرات - عليها اجتياز عوائقَ صنعتها لنفسها، وأخرى صنعها الآخرون لها، إذا أرادت أنْ تكون ذات شخصيّة قويّة لتمتلك هويّة خاصة بها. أمّا أخي فسيتمكّن من اكتساب المعرفة لنفسه، فقط إذا تمكّن من العثور على امرأة فهمت ذاتها ورغباتها، وعلى هذا الأساس ستتوفّر له بصيرة حقيقيّة.

ما من ضمان على أنّهما سيعثران على شريكيْن يشاركانهُما حماسهُما ومعاناتهُما. فكرت أحياناً أنّي إذا التقيت يوماً ما بزوجيْن سعيديْن قبل مماتي، فسأعتبر نفسي محظوظة، لكنّي أتذكّر حينها ابنة المحرّرة وخطيبها، اللذيْن التقيتهُما في روما قبل وفاة صديقتي النّرويجية بفترة وجيزة. تيقّنتُ - بتذكرهما - أنّ هكذا أزواج موجودون حقيقةً. وبتذكرهما، سأتذكر الآخرين. لكنْ إذا كان التّفكير فيهما يبعث فِيَّ الطمأنينة، فإنّي أصبحتُ أنزعج بشدّة عندما أقارن حياتهما بظروفٍ حقيرة سمحت لنفسي بالغوصِ فيها، وجعلتني أعي جمودَ تطوّري. العواطف التي مزّقت حياتي الذهنية إرباً آنذاك، لم يعبّر عنها أي شاعر قَطّ من قبل.

تلك الزّيارة لأسرتي كانت مجرد تمهيد لحياتي، شعرتُ في نهايتها أنّي جاهزة لأي أمر. كنتُ طموحة، وذات بأس من جديد، مقتنعة أكثر من ذي قبل بعبث الأفكار التي راودتني خلال أشهر العزلة تلك، وكنت مؤمنة بأنّ أفكاري في غاية الإبداع، كما كنتُ مؤمنة بوجود أشخاص لا يسري في أوردتهم دمٌ فاسد - حتى لو كنّا أنا وأخي وأختَيَّ كذلك. هكذا أشخاص يمكنهم التّحدّي بفعل مشترك، لأنّهم اطمأنّوا إلى مستقبلهم، واطمئنانهم هذا قد أكّدته ذكرى والدَيْن مُحبَّيْن، فآمنوا أنّهم سيكونون مثل آبائهم.

ومع ذلك، وفي الوقت ذاته، وجدتُ أنّ هكذا تجارب ستكون مشتركة فقط على نحو واسع في مجتمع مستقبلي ما، ورغم يقيني التّام ارتبتُ

من وجود هكذا مستقبل. هل كوّنته طفولتي ومراهقتي في منزل افتقر إلى تفاهم مشترك بين الوالديْن؟ هل أثار صراعهما فضولي؟ ورغم كثير من العوائق، طوّر هذا الفضول مقدرتي على التّفكير المجرّد والمنطقي. عندما نظرت لنفسي أحياناً من الخارج أعجبت بنفسي للدّرس الذي تعلّمته. أنا محظوظة لأنّي أحمل رسالةً فحواها نوعٌ جديد من الحقيقة، والتي أظهرت نفسها في معاناتي. وإذا كان شعوري حقيقيّاً، فيجب أنْ آتي بجديد يفيد أُخريات عانَين مثلي، وشككت كثيراً بقدرتي على فعل ذلك.

-21-

كان زوجي منزعجاً عندما التقاني في محطّة القطار. وفي طريق العودة للمنزل في عربتنا، ركز اهتمامه على الطّفل فقط، وعندما وصلنا تفاجأت من ذعر المُرَبّية عندما رأتْني، لكنّي حاولتُ المحافظةَ على تهذيبي لوجودِ خالَتِي وحماتي في المنزل. كانتا قد أعدَّتَا حفلَ ترحيب بصغيري الذي شعر بسأم شديد وكان في غاية الارتباك، فاضطرِرْتُ للانضمام إليهم. التفتُّ إلى زوجي، وذهلت عندما رأيت أنّ شكله يوحي بعمر أكبر. كان وجهه مصفرّاً، ونحيلاً، وعليه عوارض المرض. هل افترقنا لأسابيع قليلة فعلاً؟ وكأنّها أعوام. بل وأكثر من هذا: شعرتُ أنّه الآن في غاية البُعد والغرابة عنّي لدرجة أنّنا لن نكون جزءاً من حياة بعضنا بعضاً.

أخبرني أنّه أصيب بوعكة صحيّة شديدة في فترة غيابي. تحدّث عن الموضوع بتهويل، لكنّ ما قاله كان في غاية التشويش. لقد ادّعى أنّ مرضه ليس خطيراً، مجرد عودة لعدوى قديمة أصابته قبل زمن طويل، عندما كانِ في الجيش...

ومرت في خاطري ذكرى شيء سمعته من قبل... ولكن أين؟ في المدينة؟ من الطّبيبة؟

قال لي: «ليس بالخطب الجَلل. لا تقلقي». كان طريح الفراش لأيّام، وأوصاه الطّبيب بالرّاحة، وهي أمر صعب. وعلى أي حال، هو أفضل حالاً الآن.

ظلّ يحنث الأيمان ويُقسم خلال سرده لقصّته - عادة هذه إشارة على اعتذاره الضّمني عن شيء ما.

استمعتُ إليه بصمت، غير قادرة على معرفة ما حصل في الواقع. ونحن واقفان، ضمّني بين ذراعيه بتردُّد صريح، على غير عادته. بحثَ عن شفَتَي، فطأطأتُ رأسي غريزيّاً. وضع شفتيه بين حاجِبَي، وتمتم قائلاً: «أنتِ امرأة صالحة... مستقيمة الخُلق... وأنا لا أستحقُّكِ!».

وعندما ذهبنا للسّرير في تلك الليلة شعرتُ باستثارة رغبته وهو مستلقٍ إلى جانبي. وتذكرت من جديد حواراً دار بيني وبين الطّبيبة في روما قبل وقت طويل، وتذكّرتُ ابتسامتها المريرة. ثم سيطرت عليَّ رغبة وحشيّة لا يمكن كبحها للدفاع عن نفسي، وبعد لحظات استدار مبتعداً عني. ارتجفت كما لو كنتُ مصابة بالحمى.

زارني في اليوم التّالي طبيبٌ من بلدة مجاورة، وتحدّث بإبهام عن حاجة زوجي للرّاحة والعلاج، نظر إلي بخبثٍ قبل مغادرتِه.

ظلّت الخادمة تشاهدني بغرابة، أو كانت لديها طريقةٌ غريبة في النّظر لي. وبعد أيّام قلائل، اعترفتْ لي أنّ السّيد قد غادر أيضاً بعد مغادرتي، ثمّ عاد مريضاً. لم أستجوبها، لكنّها أضافت: «هذا كل ما أستطيع قوله لك...».

لم تكن بحاجة لتخبرني بالمزيد. بإمكاني تصوّر المشهد بوضوح بنفسي: في يوم ما، طرق رجل مستثار باب ماخور... تصوّرتُ خجلَ أسرته، قرارهم بإخفاء الأمر عني، أكاذيبهم... هل فاجأني أيٌّ من هذا؟ لا. ومن ناحية أخرى، كان الأمر أشبه بالنّظر إلى لوحة شاهدتها منذ بداية رسمها، وبانت تفاصيلها لي الآن، [لوحة] مكتملة ومثاليّة.

لم أقلْ له أيَّ كلمة. حتى لو أردتُ ذلك، شفتاي لم تسمحا لي بأن أفتحهما لتخرج الكلمات. أمرت الخادمة بتهيئة سريرٍ لي في الغرفة المجاورة لغرفة ابني. في تلك الليلة، وقبل أن يخرج زوجي ليقوم بجولته الأخيرة حول المصنع، أخبرته عما فعلتُ. ازداد شحوباً، لكن

لا بدّ أنّه توقّع ردّ فعلي. تظاهر بأنّه لم يأخذ قراري على محمل الجد، ثم قال متذمّراً: «حسناً، طالما أن هذا سيستمر أياماً [فقط]!».

أصبحتُ أمتلئ تقزُّزاً كلّما عاد للمنزل. ارتدَى قناع ضحيّةٍ نفدَ صبرُها، وادّعى عدم تفاجئه من مكان نومي الجديد. أعلم أنّه ذهب لأخته طلباً للمشورة بخصوص علاقتنا وحاول جعلها تنصحني أحياناً. إذا لم يتذمّر من مرضه - أصبح أكثر خطورة مما توقع - اشتكى لي من الاشتراكيين، ومحاولتهم للتحريض على اعتصام. وأحياناً، عندما يعود للمنزل ويجدني أميل على ابني، أو منهمكة في قراءة قصة له، أو وصف صورة له، يضمّ شفتيه بحقد ويقول بمزاح: «أتحاولين جعله مثقفاً مثلك!».

وسعيتُ لفهم ابني أكثر. ازداد تقاربنا كلّما تطوّر ذكاؤه، وبدأ يكون أفكاراً تخصّه. كان يجلس إلى منضدة صغيرة ليحلّ بعض التمارين بينما أكتب أو أقرأ، وكنتُ أتوقف عن القراءة فقط لأجيب على أسئلته. أمضينا ساعات طوال كهذه بسلام، لكنّي كنتُ أقلق، إذا تركني ليلعب.

في تلك الأيام، كنتُ أقرأ **مذكّرات أميل الخاصّة**[3]، كتابٌ منحني متعةً غامضة. وبدأتُ أهلوس في غرفة القراءة، وبين شجيرات الحديقة، وفي منتصف الطريق، أو حتّى على شاطئ البحر. اعتقدتُ أنّي شاهدتُ أمّي، وهي امرأةٌ شابّة تقف إلى جانب مهد أختي، عندما قرّرتْ تقبُّلَ قدَرها المريع. و«النّبي» وهو يميل على مكتبه، ويكتب رسالة متشائمة مبتذلة نسجها بدموع لم يذرفها وصرخات لم يطلقها. شاهدتُ كاتباً ذائع الصّيت كنتُ قد أعجبت به في صغري، حينما انتحر ابنه ذو العشرين عاماً - لعلّه ضحيّة صراع بين والديّه. جميعُهم رموزٌ ملطخةٌ بالدّماء لوهمِ التّضحية، نماذجُ عقابٍ مريع لكلّ من تسوّل له نفسه نُكران مشاعره الحقيقيّة.

ألا أنتمي لهم؟ على أي حال، لم يحفّزني الجدال المنطقي أو

3 - هنري فريدريك أميل: فيلسوف سويسري - المترجمة.

مشاعري الجيّاشة على اتّخاذ أي فعل؛ كنت لا أزال أعيش مع الرّجل الذي أمقته، والذي لم يحبني قط، أمّا لبقية العالم فكنتُ أرتدي قناع الزوجة المُضحيّة. وهكذا ساهمت جزئيّاً في إباحة العبوديّة الشّنيعة، وتقديس كذبة قبيحة.

والآن، وبجنون لا متناهٍ هزم نساء كثيرات، بدأت أفكر مرّة أخرى بالموت كوسيلة للتّحرر. كنت مستعدة لهجر ابني حتّى أموت، لكنّي لم أمتلك الشّجاعة لأهجره كي أعيش.

اجتاحتني موجة جنون. تمكنتُ من تحمل الحوارات المعتادة مع الأسرة ليلاً فقط، أمّا إذا أصبحت وحيدة مع زوجي فإنّ الذل يغلبني في كل مرة ينظر فيها إلي، وفي كل مرة يحاول فيها الصلح. سمحت لنفسي بالانجراف في جدال ذات مساء، وانتقدتُ فيه بتندّر تذمره من كارثة المصنع وموقف العمّال. ازدادت حدّة صوتي. بدأت لا أدرك معنى ما أقوله. قاطعني صوتٌ رقيق: «ماما!» وبعد وهلة: «تعالي يا ماما إلى هنا!». استعدت رباطة جأشي وذهبتُ لغرفة ابني المعتمة. وعندما شاهد ظلّي عند عتبة الباب ناداني من جديد، وبهدوء أكبر: «ماما!»، وعندما شعر أني قرب سريره مدَّ ذراعيْه، وطوّق عنقي، وقرّب رأسي من رأسه. وبصمت ودفء لمس عيني ووجنتي، بأصابعه المرتجفة. ماذا أراد؟ أن يتأكد من أنّي لم أكن أبكي، أنْ يتأكّد من أنّ والده لم يُبْكِني؟ همس مرّة أخرى: «ماما»، فرميتُ وجهي على ملاءات سريره. وسرعان ما ابتلّت بالدّموع، دموعُه ودموعي... كنتُ أرجوه في قرارة نفسي أنْ يسامحني. وبقيت معه وقتاً طويلاً أنتظر نومه ونومي. يصيبني الاكتئاب دوماً بعد نكبات كهذه.

وصلتْ برقيّةٌ من تورين ذات نهار. كان عمّي – الأخ الأكبر لوالدي – في مرحلةٍ حرجة من مرضه. لطالما أحبّني حبّاً جمّاً، رغم كلّ ما حصل، وحينما كانت الأحوال صعبةً في روما، مدّ لنا يد العون بالهدايا وإقراض المال.

كان رجلاً يختلف اختلافاً تامّاً عن أبي، نموذجٌ لبرجوازي عمل بكدّ، وله مبادئُ محدودة، وكان راضياً قانعاً، وفي غاية اللطف. قابلتُه في طفولتي، وكانت رؤيته تسرّني دوماً، رغم افتراقنا. رجل مهيب، ذو وجنتين زهريتين، يستمتع بإحاطة أبناء أخيه وأخته به.

تمنيت الوصول إلى هناك في الوقت المناسب لألتقيه للمرّة الأخيرة. علمتُ أنّه لن يتعرّف عليَّ إذا كان مرضه شديداً. رتّب زوجي لي ترتيبات السّفر في المساء ذاته. وبعد تأمُّل الموضوع لفترة، بدأ يُعلّمني كيف أتصرّف مع عمّي الثريّ وأسرته. شعرت أنّه يقتل شعوري العفويّ تجاه عمّي، وتساءلت بمرارة مرة أخرى إذا كانت الحياة ستستمر على هذا المنوال.

سافرت طوال الليل، واعتقدتُ أنّ الرّحلة لن تنتهي، وعندما وصلت للمحطّة المليئة بالأبخرة والدّخان في صباح اليوم التّالي، استقبلني والدي وعمّتي. سألاني عن حالي. تذمّر والدي من حال سكك الحديد. اقتربت عمّتي منه دون أن تقبّلني... مضى وقتٌ طويل مُذْ عانقني والدي!

فاضت روحُ عمّي ليلاً. كان أحدَ أكثر الأشخاص الذين تعلّقت بهم في العائلة، وقد رحل. شعرتُ بالخواء، ولكن بالتّحرر. وككثير من الشّابات، شعرتُ فجأة أنّ النّظام القديمَ بائد، وسيُسمح لي بالعيش والحلم بطريقتي.

أمضيتُ ثلاثة أيام في تورين، أحزنني فيها مشاهدة جشع أبناء إخوانه وأخواته وأقارب آخرين كانوا قد اجتمعوا حول الجثمان. تنفّستُ الصّعداء عندما أخذني والدي للتّنزه معه بين الأشجار الباسقة في مكان ميلاده العزيز.

بدا أنّ المشي يرهقه، وشعرنا نحنُ الاثنين بعودة حبّنا القديم والذي فاجأنا نحن الاثنين، وتوقّعنا تلاشيه في أيّ لحظة من جديد. كنّا مستقلّين تماماً عن بعضنا، كلٌّ منّا يتبع دروباً ضالّاً. لم يكن بإمكاننا التّذمّر، ولا تقديم الإرشاد لبعضنا. ولم نكن قادرين على تخيّل أننا سنطلب الدّعم

من بعضنا مرّة أخرى، أو البقاء مخلصيْن لبعضنا مهما كانت النّتيجة. فاقتصرنا على تجميع خيوط الماضي، وركّزنا على عواطف وصفات ما زالت تجمعنا.

هو مَن أخبرني عن الوصيّة. كنتُ سأحصل على 25.000 ليرة، أمّا أخي وأختاي فسيحصل كلّ منهم على 5000 ليرة تقريباً. وقد استأتُ من هذا، شعرتُ بالحاجة لتقسيم نصيبي على الآخرين، كما شعرتُ بالخجل من نفسي تحديداً، كما لو أنّ امتلاك المال الذي لم أجنِه بجهدي، أو من أيّ إنجاز قد صغّر من شأني. شعرتُ بعدم استحقاقي، لا مقارنة بأهلي فقط، بل وبأولئك الذين يعملون بجهد وإصرار ليكسبوا قوت يومهم، وعلى هذا الأساس اعتبرتُهم إخوتي الحقيقيّين.

ومع ذلك، فورَ تغلّبي على شعور الإحباط العنيف والمعقّد، لمْ أتمكّن من التّمعُّن في التّأثير العملي الذي يمكن أنْ يوفّره المال في حياتي. الوصيّة تعني أنّي سأكسب شيئاً من الاستقلال المالي. لم يكن مبلغاً كبيراً، لكنّه سيدعم ابني، حتّى لو اضطررت للعمل لدعم نفسي.

ورد في الوصيّة بندٌ ينصُّ على تأجيل التّنفيذ ستّةَ أشهر.

كتبتُ [رسالةً] لزوجي، وأخبرتُه عن موعدِ عودَتي. بتُّ أشعرُ بالثّقة بنفسي لأني أطلبُ المزيدَ منه. بإمكاني السّفر أكثر، والذّهاب في إجازات، وشراء الكتب لنفسي ولابني دون أخذ موافقته...

وفي خضم خططي الملتبسة تخيّلتُ فكرة غريبة: أنّ لدي عشيقاً في مكان ما في إيطاليا. أزوره من مكان إلى مكان، وأغترف منه جرعتي من المتعة والبهجة، ثم أعود للمنزل، للمنزل الكئيب الذي لم أستطعْ مغادرته بسبب عاطفة الأمومة القويّة فِيَّ. وهكذا، لا أخون أحداً. زوجي يعرف مقدار كرهي له. ستشبع حاجاتي، وسأحصل على قوّة تعينني على الاستمرار، وتَحمُّلِ وجودي...

يا له من جنون! سمحت لمخيّلتي بتخيّل أفكار جامحة، ومع هذا لم أكن أكيدة ممّا يجب فعله، بينما كنت أعرف ما لن أفعله بتاتاً؛ بعبارة

أخرى أنّ المستقبل ينطوي فِيَّ: أيّاً كان حلُّ مشكلاتي، إنّها جليّة الوضوح وأشبه بقَدَر.

وصلتُ المنزل صباحاً. كان ابني يلعب بألعابه، فجلست على السّجادة لأشاركه اللعب. أمّا زوجي، فقد غرق في صمته. كان يقرأ الصّحف، ولم نكلّم بعضنا.

وصلت حماتي، بابتهاج يثير الغثيان. لم أستعجل لأحكي لها عن الأخبار التي تنتظرها، وبعد زمن، لم تتمكن من ضبط نفسها أكثر من ذلك، صرخت قائلة: «فنحنُ أثرياء إذن، أليس كذلك؟».

أمَلْتُ رأسي على مسرح الدّمى أكثر. كان ابني منهمكاً في التّمثيل لدرجة أنّه لم يسمعها. صوتها المرتعش المتواصل، أفسد الحوار الذي ألّفته للشّخصيات المصغّرة. «وابننا الصّغير العزيز لديه الآن ثروة أخرى في المتجر. أوه، بإمكاني أنْ أرى أنّه سيملك المدينة كلّها ذات يوم!».

حدّقت فِيَّ الآن عيناه الزّرقاوان الجميلتان؛ فِيَّ مباشرة. بدا أنّهما تقولان: «اذهبي يا ماما، لا تصغي إليها. أنا لا أصغي لغيرك. أنتِ الشّخص الوحيد في حياتي...».

آه، أجل، تابع. لكن في تلك الليلة، وفي طريقي للسّرير، وأنا منهكة، جاء زوجي إلى غرفتي. تعاركنا عراكاً عنيفاً ثمّ تركني وحيدة في العتمة، وأنا أتمنى الموت.

وفي اليوم التالي قلت بهدوء لابني: «قد أموت، كما تعلم. لكن إذا متُّ، لا تبكِ عليَّ: تذكَّرْني فقط».

الموت!

وكأنّ هناك كتلة ثقيلة وصلبة في عقلي. خطرت في بالي فكرة شيطانيّة فجأة. قد يختفي هو، زوجي، ذات يوم... والبشر يموتون على كلّ حال، يختفون كنسمةِ هواء، والحياة تستمر، ونحنُ نستمرُّ في لقاء، ومقابلة، والتّحدث مع آخرين لم يذكروا أسماءهم إطلاقاً... كما لو أنّهم لم يوجدوا قط...

هل سيحدث هذا لي إذا متّ... وماذا سيحل بابني؟

ولكن الآن، إذا اختفى... سنكون أنا وابني وحيدَيْن... سأتجوّل في أنحاء المنزل - سيكون منزلي، وليس منزل أي شخص آخر. سأتمكّن من المشي في محيط الحديقة، في الشّوارع... البحر هنا، والقرى على التلال البعيدة هناك. سيكون العالم غنيّاً ورحباً، وسنكون أنا وابني حُرَّين، حُرَّين...

كان حلمُ يقظة استيقظتُ منه بذهولٍ عندما سمعتُ ابني وهو ينادي المربّية. ذهلتُ لأنّي لمْ أرتعبْ من تخيّله. سمعتُ بوابة الحديقة تفتحُ عند دخول زوجي. انتصفَ النّهار. اقترب منّي، وشعرتُ أنّه ينظر إلي، فأشحْتُ وجهي عنه. وعلى طعام الغداء ركّزت على ابني. لوهلةٍ كنتُ وحيدةً مع زوجي، فالتفتُّ له، وبوجه منقبضٍ قلتُ له: «سأقفلُ بابَ غرفة النّوم في المستقبل!».

ضرب المائدة بقبضته، ثم نهض، خطا في الغرفة بضعَ خطوات، وجلس مرة أخرى غاضباً.

«افعَلي ما يحلو لكِ!».

وقف فجأة مرّة أخرى، وذهب إلى الحديقة. لكنّه عاد فوراً وهو يقذفني بأبشع الألفاظ. بميل بسيط أمسكتُ طفلي، وتتبَّعتْ أصابعي تلقائيّاً خطوطَ الكتاب الذي كان يقرؤه، ولقطْع سَيل إهاناته نظرتُ لزوجي بجرأة. أخبرتُه أنّ هناكَ وسيلةً واحدة لا غير، الوسيلة التي اقترحتُها من قبل - الانفصال.

ازرقّ وجهُه وقال: «حسناً، غادري، غادري. سأجدُ عمّا قريب امرأةً جديدة تستبدلك!».

تابعتُ كلامي بهدوء: «افعلْ ما يحلو لكَ، لكن ليس بوجود ابني في المنزل. سأصطحبه معي إلى منزل والدي حتى نصل إلى اتفاق قانوني».

كان يقف إلى جانب النّافذة الفرنسية المطلّة على الحديقة. رفع ذراعاً، ثم أسقطها. تورّم وجهُه غضباً.

«ابنُنا؟» صاح متعجباً، «تجرّأي وافعلي ذلك!».

صرخ بصوت مرتفع لدرجة أنّ صوتَه قد سُمِعَ في الشّارع. نكصَ ابني فزعاً وطوّقني بذراعيْه وهو يغصُّ بدموعه.

«أمّا أنتَ، انهض! ستذهب معي إلى المصنع. قفْ!».

اعترضَ الصّوت الرّقيق المرتعش: «يجب أنْ أحلَّ واجباتي...».

التقتْ عينا ابني الزرقاوَين بعينَي والده العاصفتَيْن، نظرةٌ شزرة. مرّت لحظة صمت، لم أتحرك خلالها، لم أنتبه لشيء سوى ليدِه الصّغيرة الرّطبة.

بقينا وحدنا في المنزل طوال العصر القائظ... وبقلبٍ مفطور جفَّفَ ابني دموعي المتساقطة ببطءٍ، ثمَّ سألَني: «عمّاذا يتحدث أبي؟ ماذا يريد؟ ما سبب صراخه الدّائم؟ ولماذا يبكيكِ باستمرار؟».

«يجب أن أغادر يا ابني. يجب أن أغادر هذا المنزل...».

ما الذي قلتُه؟ أعلمُ كم كنت أزعِج ابني من مسكِه العنيف لكتفي.

«ماما، ماما، سأرافقكِ، أليس كذلك؟ قولي أجل، رجاءً!... لا أرغب في البقاء مع بابا، لا أريد الابتعاد عنكِ... لا أريد ذلك يا ماما! ستأخذينني معك، أليس كذلك؟...».

رمى رأسه بين ذراعَي، وهو ينتحبُ بدموع غزيرةٍ بدا أنّها تتغلغل في مساماتي، بنشيج كالرّاشدين، وكأنّ ألمَ الحزْنِ بأكمله قد انطوى فيه. آه، يا بُني! حملتُك وبكيتُ معك، وشاركتك حزنك. شعرتُ أنّي قد ابتلعتُك وأعدتُك لرحمي وأخرجتك في ثانيةٍ للعالم، تقلُّصٌ أبديٌّ من الألم والمتعة بقبولٍ مخيف لهيمنة ترابطنا الخالد...

كتبتُ رسالة لابني لأطلعه عمّا حدث. ثمّ، وبحزن، أعدتُ قراءة كتابٍ كنتُ قد قرأته في روما قبل عام. ذكر فيه - ببساطة ووضوح - موقفي القانوني. كنتُ أعرفه بالفعل، ولكن الآن فقط، وأنا أسقطه على حالي، شعرتُ بأني سجينة وأبواب السجن هي القانون، أدركتُ شناعته. كان غير منطقي، فوفقاً للقانون ليس لي وجود - باستثناء أنّي إنسانة يمكن أن تسلّم حقوقها وتُظلم، وجلّ ما تملكه: ممتلكاتها، وعملُها، وابنها!

توالتْ أيّامٌ من التّوتر الشّديد. ورغم أنّي شعرتُ بالتّماسك في جهد أخير، إلّا أنّي لم أتمكّن حتى الآن من تنفيذ قراري. ما عدتُ أهابُ غضبَ سجّاني. كنت ببساطة غير قادرة على إنهاء العذاب الذي استشرى فِيَّ كأمٌ ستفقد الشّخص الوحيد الذي يدخل السّرور على قلبها. لم أشعر أحياناً بشيء: لا تمرّد، ولا حتّى استسلام. وبتكرار خضتُ الجدال ذاته مع نفسي.

«أنتِ لا تحبّينه، وهو لا يحبّك: أنتما كغريبَيْن. بقيتِ بسبب شعورِكِ بالواجب أليس كذلك؟».

«وماذا فعل لك شعورِكِ بالواجب؟».

«هذه فرصتك الأخيرة».

المنطق لا يطاق. في روما - عندما ثرتُ قبل عام - كنتُ مندفعة تقريباً، وحتى أنّي تفاجأتُ من نفسي. وأمضيتُ الآن عاماً آخر من العذاب رغم اتّخاذ القرار. لقد لمحت الجحيم، وقرّرت إمّا أنْ أغادر أو أموت. حرّضني القدر، المصادفة، أو بعض منطق لم أفهمه والذي أجبرني على معانقة رجل استعبدني. أهدرتُ عشرة أعوام، وشعرتُ بالعار من نفسي. تلك السّاعات التي أمضيتها وأنا أتصارع مع إدراكي لم توجّهني قَطّ لكسر الأغلال التي تقيّدني. سلّمت راية الثّورة لجسدي، ليكافح من أجل خلاصه. أنا أدين بحرّيتي لجسدي.

عندما فكّرتُ بالمغادرة أحياناً، الهروب من حياة مبنيّة على الأكاذيب، وجدتُ أنّه قد يكون أكثر نفعاً لطفلي منّي أنا. سأعاني حتماً معاناة شديدة دونه، كرهتُ فكرة أنّه قد ينساني، وأنّي قد أموت وحيدة، لكنّي لن أشعر من جديد بالاشمئزاز من ذاتي، ولن أضطر من جديد للكذب عليه. لن يلقي خوفي بظلاله على حياته.

ومع ذلك، كيف لي أن أحكم عليه بالبقاء مع والده؟ لماذا يصرُّ القانون على ملازمة ابني لوالده؟ أنا المسؤولة عنه منذ مولده حتّى يومنا هذا. لماذا لا يسمح لي بالاعتناء به، والاهتمام بتعليمه؟

كانت معضلة مفزعة؛ فإذا غادرتُ وابتعدتُ، سننفصل حتماً، وسيكون أشبه بيتيم. أمّا إذا بقيت فسأكون نموذجاً للذّل والهوان بالنّسبة له لبقية حياته. وسيشبُّ - كما حدث لي - في كنف أمٍّ مجنونة، ووالدٍ لا مبالٍ.

جاءني ابني، وتخلّلتْ أصابعه شعري الرّمادي. استجبتُ له بشغف: إنّه لي، وأريده أكثر من أي شيء آخر في العالم. حتّى لو أنّ هذا يعني السّيطرة علينا. أردتُه لي وحدي، ولا يمكنني تصوّر نموّه دوني، ومنحَه السّرورَ للجميع سواي.

سألتُه ذات يوم: «هل تفضّلُ الذّهاب إلى مدرسة داخليّة على البقاء مع بابا؟».

لم أحبّذ قَطّ فكرة عزله في مدرسة... لكنّها مسألة مصيريّة...

أوماً الصّغير بالإيجاب، ولكن لاحقاً، في ذلك اليوم، غدا شاحباً كلّما كلمته. «ماذا قال جدّي في رسالته؟»، أراد أن يعرف. «هل سيسمح لي بمرافقتكِ إلى ميلان؟». إنّه الآن مرتبك علانية. ومع ذلك، إذا شاهدني حزينة بعد شجار مع والده، أو في مساحة خاوية، نسي ألمه وواساني، وهو يخبرني أنّه يحبني كثيراً ولا يحب أحداً غيري.

سألتُه: «وهل ستتذكّرني دائماً؟ حتّى لو متُّ؟ حتى لو متُّ وتركتُك؟».

«أجلْ».

أعرف أنّه أجابني بصدق، أنّه لم يكن يبحث - كما كنت - في متاهة العواطف عن شيء يفسّر ما يحدث. كان عهداً قد قطعه ببساطة على نفسه. قد يُطمر حيناً من الدّهر، لكن سيمنحه القوّة مستقبلاً.

أمضيت قرابة الأسبوعين على هذا الحال، متأرجحة بين الكآبة والتّمرد. انتشرت شائعات عنّا في البلدة. لقد علم الجميع عن مرض زوجي، واعتقدوا أنّ سببه هو غضبي. جاءت خالتي لتكلّمني وهي تذرف الدّموع: «يا لكِ من مسكينة. لكنّك تجهلين كم من امرأة أخرى في حالك ذاته - هناك فلانة وفلانة...».

ثمّ جاءت حماتي، وقالت: «حسناً، كان مجرد ضعف بشري، كما تعلمين، منذ انضمامه للجيش». ذات مساء، عندما كانت مع زوجي حاولَ ضربي، وقد منعته، حيث تصدّت لذراعه وقالت: «لا تضع نفسك في موقف مساومة. ألا ترى أنّها تنتظر هذا؟...».

أهدرنا السّاعات في جدالات عقيمة، ومغيظة. أرهقتني. تمنّيت أن أعود فتاة صغيرة من جديد، قادرة على البكاء حتّى النّوم. لا أعلم ما الذي منحني قوة مقاومته. طلبتُ منه أخيراً أن يسمح لي بالذّهاب إلى والدي والاسترخاء. قد نشاهد الأمور من منظور مختلف، إذا ابتعدنا عن بعضنا.

لكن لم يتقبّل أي شخص من أسرته كلامي ورفضوا طلبي. عيّروني بعلاقات والدي، وجنون أمي، وإلحادي، وكل الأشياء التي نشأت عليها في الماضي...

ومع ذلك، بدوا خائفين مني الآن، كما كانوا في البداية. لمحت ذهولهم واحترامهم لي، كما فعل زوجي - بعد أن خاطبتهم بإسهاب عن يقيني الدّاخلي الأكيد، والذي يتجاوز عمق القبر... شعرت بالأمل لوهلة. لعلّ السّنوات العشر لم تذهب سدى، لعلّه لن يُعرّض ابني للمعاناة بسبب الضّرر الذي ألحقته به. وفي نهاية المطاف، واصل تضرعه لأبقى من أجل الطّفل. أكان يحب ابنه حبّاً عظيماً منعه من إدراك استحالة عيشنا معاً؟ كان لا يزال شاباً. بإمكانه تأسيس حياة جديدة لنفسه. إذا شعر فعلاً بهكذا ألم من فكرة فقداني، لماذا لا ينفعه هذا الألم ويجعله شخصاً أفضل؟

أخيراً، أخبرني ذات مساء أنّ بإمكاني الذّهاب لميلان بعض الوقت إذا أردت ذلك، لكن دون اصطحاب الطّفل. وفي تلك الأثناء، في الصباح ذاته، وصلتني رسالة من والدي. وعدني فيها ببذل قصارى جهده ليساعدني على كسب الحضانة، لكنّه خشي أنّ يضرّني التّصعيد، وأوصاني بالمغادرة في أسرع وقت ممكن.

كنت لا أزال أفكّر فيما قاله زوجي، عندما شرع في تقليب عينيه

والتّأوّه بوضوح. ذهبتُ إليه وهززْتُ بدنَه. عيناه زجاجيّتان. لا أعلم إذا كان قد فقد شعوره حقّاً أم أنّه يتظاهر بذلك، لكنّي صببتُ شراباً في الكأس وأجبرتُه على شربه. تعافى تدريجيّاً وشكرني. ثمّ جثا فجأة على ركبتيه، وبكى وهو يقبض على ركبتَي، وقال لي وكأنّه محموم: «لا تتركيني، لا تتركيني. ألا تعرفين كم أحبك؟». حاولت أن أهدِّئه لكنّه جذبني إليه، وهو يتمتم بكلامٍ غير مترابط.

شعرت بالبعد عنه، بانفصال تام. كرهتُه لاعتماده الجبان على قوّته الذّكوريّة. كيف له أنْ يستخدم رغبته الجنسيّة كوسيلة لأبقى؟

قلتُ له بعزم: «سأتركك الليلة...».

فاستعاد رباطة جأشه، وأخفى ذُلَّه بسرعة، أومأ برأسه موافقاً، وقال: «حسناً، يمكنك الذّهاب، لكن دون الطّفلِ». بابتعادي عنهما أدركتُ عدم قدرتي على العيش بعيداً عن أسرتي... وعندما أعود، سننظم الأمور بحيث نبقى معاً.

ذهب إلى غرفته. بقيتُ إلى جانب ابني في سريره، دون أن يغفو لي جفن، دون أن أشعر بشيء، ودون أن أفكر في شيء. كنت أنتظر - ولا أعرف ماذا أنتظر: ربّما نوراً، أو دفئاً. أي شيء يشعرني أنّي على قيد الحياة. احتجتُ إلى قوّتي كاملة.

تنفّس ابني بهدوء، وأثناء إصغائي لأنفاسه أدركتُ أنّي لن أسمعها من جديد. سمعتُ رنين ناقوس السّاعة البعيد، فنهضتُ عن الكرسي. كم مضتْ السّاعات ببطء! قد يكون والدي مستعدّاً لاستخدام القوّة لمساعدتي في استعادة ابني. بدا المستقبل معتماً بالمشكلات، والتّوتر، والألم. وتهيّأ لي مشاهدةُ وجه ابني في منتصف هذا كله. في يوم ما حتماً، في الشّارع ربّما، وهو يستعد للمرور، سأشاهده فجأة. سيسأل عني دائماً بلا شك. ثمَّ إنّ النّاس يتغيّرون، والقوانين تتغيّر. وحتماً إذا كان المرء ذا عزيمة وإصرار وشغف، فإنّه سيواصل إقناع أشدّ متعنّت... حتّى الموت!

الموت! انتفضتُ عند ذكر الكلمة، كما فعلت في تلك الليلة قبل وقت طويل! لكنّي تغلّبتُ على تمنّي الموت لي، وحتّى تمنّي الموت لعدوّي. لم أعد أكرهه. لم يعد يمثّل شيئاً بالنّسبة لي – في تلك الليلة الحاسمة والملتبسة – غيرَ ظلٍّ يتبع القانون.

انتصف الليل. تبقّت ساعاتٌ ثلاثٌ أمامي. بدأت ركبتاي ترتجفان، فجلست على المقعد. أشعرتني نسمات الليل بالبرودة، فحاولتُ تدفئة نفسي، وأغمضتُ عينَيَّ، وأبعدتُ يديَّ عن الطّفل كيلا أنقل البرد له. شعرت فجأة أنّ قوتي قد اختفت. وبدا أنّي سأنام. كنتُ منهكة: هل سأتمكن فعلاً من الرّحيل؟

دقّ ناقوس السّاعة الثالثة فجراً. أفَقْتُ مذعورة، وارتديتُ معطفي، وذهبت للباب، ثمّ التفتُّ للسّرير وأيقظتُ ابني، قلت له بهدوء: «سأذهب الآن. حان وقت المغادرة. كن بخير. لا تكرهني. تذكّرني. وسأكون أمّك دائماً...» قبّلته بتردّد، دون أنْ أتمكّن من البكاء. ثمّ سمعته يقول بنعاس: «سأكون بخير دائماً... أرسلي جدّي ليأخذني يا ماما... سأبقى معك...». ثمّ استدار باطمئنان نحو الجدار. أدركتُ حينها أنّي لن أعود قطّ. شعرتُ بإلحاحٍ من شيء خارج ذاتي، يدفعني للمضيّ قُدماً نحو حياة مختلفة. عرفتُ أنّ لا ألَمَ في المستقبل سيعادل الألم الذي أشعر به في هذه اللحظة.

ودون أنْ أعرف كيف وصلتُ إليه، وجدتُ نفسي على القطار. العربة، ارتجّت إلى الأمام، بتنافرٍ مع داخلي كما لو أنّ شيئاً يتمزّق في جسدي. أدركتُ تدريجيّاً أنّ هذا الوحش الحديديّ كان يأخذني أخيراً بعيداً. فجأة بدتْ أحداثُ الشّهور الماضيّة عنيدة، وحتميّة. كنتُ قد ذهبتُ إلى القطار كمن مشت في نومها، وأدركت الآن ما فعلته. كانت لحظة مريعة!

كيف فعلت ذلك؟ لعلّ ابني لم يخلد للنوم بعد أن قبّلته، ولعلّه يناديني الآن... شعرتُ أنّي ارتكبتُ خيانة شنيعة. ألم يجدر بي إيقاظه بطريقة لائقة وإخباره بأنّي لن أعود أبداً، أنّي أجهل إذا كنتُ سأجتمع به

يوماً؟ لعلّ زوجي معه الآن، يقف إلى جانب سريره، ويعده بأنّي سأعود عمّا قريب، ولعلّ ابني خاف أن يطرح كثيراً من الأسئلة... وما الذي سأفعله غداً، وبعد غدٍ؟ هل ستتكدّس حياتي بهذا الأسئلة المرعبّة التي لا إجابة لها للأبد؟

كيف فعلتُ ذلك؟ لماذا لم أكن أقوى؟ شعرت أنّي قد خضعت للتو لعملية استئصال جسد شخص آخر من جسدي - بغية إنقاذ كلّ منّا...

لا أعرف كم استمرت تلك الرحلة المقيتة. في كل محطة انتابني دافعٌ ملحٌّ لمغادرة القطار، وانتظارٌ آخر يعيدني إلى هناك. وعندما ينطلقُ القطار، أفكّرُ بالانتحار من جديد - سيكون انتحاراً سهلاً، عبوراً للباب فقط. سيكون موتاً فوريّاً.

وعندما وصلنا إلى ميلان شعرتُ مرّةً أخرى بتلك القوّة الخارجيّة المُحفّزة. وبحزن وعزيمة، اندفعتُ في الزّحام والدخان، بعيداً عن المحطّة. مشيتُ للأمام، حزينةً وتائهة، في الشّوارع الصّاخبة، حين شرَعَ الصّباح في تبديد الضّباب.

-22-

مضى وقت طويل، عامٌ كامل.

لم أرجعْ البتّة. ولم أشاهد ابني منذ ذلك الحين. والهاجس لم يخبتْ.

لِكَم شهرٍ توهّمتُ أنّي سألتقي بابني؟

احتفظت لزمنٍ طويل بوهم أنّه سيزورني. استرخيتُ في الأيّام الأولى، واعتنتْ بي أختي، والتي، رغم توتّرها الشّديد، لم تطرحْ أيَّ سؤال عليَّ. ثمّ، وبمرور الأسابيع، ازداد المراسلات بين زوجي وبيني حنقاً: كتب والدي له، بعدها لم نتواصل إلّا عن طريق المحامين. لا بدّ أن قراري قد فاجأ زوجي حتماً. كان متيقّنا من عودتي لأنه احتفظ بابني كرهينة.

بمساعدة الخادمة أرسل الطّفل ملاحظات لي، محاولاً تهجّي الكلمات ليخبرني عن حبّه ويأسه: «ماما، أتمنّى لو أنّ بإمكاني الهروب من هنا، لكن لا أعرف كيف. يقول الجميع أشياء مريعة عنك، لكنّي أحبّك. لن أنساك ولو بعد مئة عام. ماذا تفعلين؟ متى سترسلين شخصاً ليأخذني؟».

منحتني أختي غرفة صغيرة في منزلها، وبقيت فيها وقتاً طويلاً، بالكاد لاحظت مرور الزّمن. قرأتُ وأعدتُ قراءة ملاحظاته التي تدفّقت من قلب صغيرٍ مفطور. أخفيت رأسي ويدي ليلاً تحت ملاءات السرير، لأخنق دموع عذابي... ناديتُ ابني، تكلّمت معه... نهضُت من السّرير، وكنت مُصرّة على الذهّاب إليه، مهما كان الذّلُّ، والفساد، والتّحقير. لن يهمني ذلك طالما أنّ بإمكاني لمس ومشاهدة ابني من جديد.

لكن شيئاً رادعاً منعني. صوتٌ، لا يتحدث من عقلي ولا من جسدي المحطم الواهن، أخبرني أنّ الخطوة التي خطوتها لا رجعة فيها. لقد وضعت حدّاً لتضليل الذّات، ويجب أن أتحمّل عذاب الحاضر لئلّا أموت بعارٍ واشمئزازٍ من ذاتي. هذا الشيء الداخليّ مقيت.

تهيّأتُ للموت لأسابيع، وكأنّي أعاني من مرض. وأيقنتُ أنّ زوجي لن يقوم بأي تنازل، فرغبته بالانتقام كانت شديدة. وبدلاً من رسائل التّهديد، بات يرسل لي الآن رسائل سخرية، يذكّرني فيها أنّ ليس لدي أي سبب قانوني للانفصال. طفق أبي في المفاوضات، ثمّ انسحب. حذّرني دائماً من طول الأمل، ثم رفض زوجي توقيع استلام إرث عمّي لي. وفي النّهاية، استسلمَ المحامون كذلك. قالوا: يجب أنْ أبقى ملكاً لهذا الرّجل، ويجب أنْ أعتبر نفسي محظوظة لأنّه لم يجبرني على الرّجوع إليه. هذا هو القانون.

صرف زوجي المربّية، ولذلك لم أستلم رسائل أخرى من ابني. سمعتُ أنّ مربّية جديدة قد باشرت عملها، فكتبت لها، لكن لم أستلم أي رد.

لا يمكن لأي شخص أن يساعدني.

تمنّيتُ الموت.

وبشكل ما كنتُ ميّتة. لم يبقَ لي شيء باستثناء الذّكريات.

مضى الزّمن. لا بدّ أن طفلي يختلف الآن عن صورته في ذاكرتي، والآخرون يؤثّرون في آرائه وأقواله، لكنّ صورتي عنه لن تتغير أبداً. وجدتُ صعوبة في تقبّل أنّ تجربتي الأموميّة قد انتهت عندما قبّلته قبلة الوداع.

مرت أشهر قبل أن ألاحظ، بشيء من التعجب، أني كنت حية فعلاً، أن لا شيءَ جوهريّاً قد مات في داخلي، وأن الأسئلة القديمة موجودة، وتنتظر أن أجيب عنها. شاهدتُ أحياناً أطفالاً في الشارع ذكّروني بابني، ويبادلونني أحياناً التحديقَ بانزعاج. لكن لا أحدَ منهم يحتاجني. لكن

في مناسبات أخرى، وأنا أمشي في الصباح الباكر أو عند الغروب، أمرُّ بطفلٍ يوقفني بسؤالٍ هادئٍ وحزين. بدا أنّ هؤلاء الأطفال يرتاحون عندما أكلّمهم وأعانقهم. أين ينامون؟ كيف يعيشون؟... أزعجتْني فكرةُ أنّهم وأمّهاتهن يهيمون على وجوههم ويجوبون ضواحي المدينة. ورغم انشغالاتي، شعرت بالاهتمام.

أخذتني أختي ذات صباح إلى عيادة للأطفال الفقراء أسستها مجموعة نساء. عرض عليَّ عمل هناك على أساس تطوُّعي مرَّتين أو ثلاث في الأسبوع.

كانت زياراتي الأولى مثبِّطة. كان الأطفال مختلفين جداً عن ابني الجميل والمعافى. جميعهم كانوا ضحايا الجهل، والقذارة، والجوع، والعنف. شعرت أني لا أستطيع مشاهدة تكرار التعاسة بلا نهاية...

لكنها حينها فقط أدركت وجود أشخاص آخرين يعيشون أيضاً، ورغم أنهم عانوا، حين بدأت أعيش لنفسي. وعندما فعلت بدأت آمل من جديد، وإذا لم يكن لنفسي، فعلى الأقل للآخرين. وعندما اكتشفتُ أنّني رغم كل شيء ما زلت واثقةً في حياة أفضل، مستقبلٍ أفضل، بكيتُ فرحاً.

استأجرت غرفةً قرب منزل أسرتي، وعندما لا أدرس، وهي وسيلتي الحالية لكسب المال، أو في العيادة، أجلسُ إلى مكتبي وأكتب المقالات. صنعت مناشدات بليغة لبقية أفراد المجتمع: آخرون صنعوها من أجلي، لكني حاولت صهرها بدموعي ودمي. وتدريجياً أصبحت هذه المقالات صريحة، لأن المجلّات التي اعتادت نشرها قد رفضتها جميعاً. ومع ذلك، ما زلتُ أشعرُ أنّ العدالة لا يمكن خنقها، لأنّها تخنق، وأنّ ما طلبته ليس الشّهرة، بل أن أسمع فقط. عند الشروق والغروب أنظرُ من نافذتي وأشاهد أوج الألب يناطح الغيوم الوردية. وأحياناً أسمع صوت جنازة عندما تشقّ عربة نقل الأموات في طريقها للمقبرة. أشعر أنّي عندما أنظر للحياة والموت فإنّي لا أهابهما. ولعلّي أحبّهما أيضاً.

كلُّ ما في السماء والأرض في تغيّر حركة مستمرّة. كلّ شيء يتداخل

ويصبح ملغزاً. لكن شيئاً واحداً واضح. أشعر بالاطمئنان، بتجانس، وإذا كنتُ سأموت الآن فلنْ أندم.

أشعر بسلام داخلي.

أيُّ طموحات؟ لا طموحات لي. قد أكتشف غداً سبباً جديداً للبقاء على قيد حياة، بعداً جديداً للحياة وقد يكون أشبه بميلاد جديد، لكني لا أتوقُ إليه. قد أموتُ غداً بكل بساطة... وكتابة كل هذا ستكون على الأقل برهاناً على وجودي.

إنه كتابٌ لابني.

ابني! لعلّ والده يعتقد أنه سعيد، ويقدم له الألعاب، والكتب، والمعلّمين، ويحيطه بكل الملهيات والتّرف، لينساني أو يكرهَني.

أفضّل أنْ يكرهَني على أنْ ينساني.

سينشأ مطيعاً للقانون، نافعاً لأولئك الذين في السلطة، ومحبّاً للنّفوذ، والنّظام، والرّاحة... أنظرُ كثيراً لصورته وأشاهدُ انعكاس حزني في عينيه، وقسوة والده في انحناءة شفتيه. ثم أفكر لاحقاً: إنّه ابني، ولأنه ابني، سيشبهني. أريد أن آخذه، أمتصّه كلياً حتى بعد زمن أختفي ويكون هو كليّاً أنا.

سيبلغ العشرين عاماً ذات يوم. هل سيترك المنزل ليعثر علي؟ هل سيكون القدر لطيفاً؟ أم سيقع في حبّ امرأة حينذاك؟ هل سيتذكر كيف مدَدْتُ ذراعي له، وناديته، هتفت باسمه؟

قد أكون ميتة حينها، لا أستطيع رواية قصّة حياتي له... ولا أنْ أخبرَه كم انتظرتُه طويلاً.

ولهذا أدوّن هذه الكلمات: حتّى تصل لابني ذات يوم.

- النّهاية -

المترجمة في سطور:

دلال مصطفى نصر الله 1987.
تترجم عن الإنجليزيّة والإيطاليّة.
لها إسهامات في ترجمة الأفلام والأوبّرات الإيطاليّة.

• **من ترجماتها:**
ناسك في باريس (سيرة ذاتيّة) – إيتالو كالفينو 2017
الملاك إزميرالدا (قصص قصيرة) – دون ديليلو 2018
وودي آلن عن وودي آلن (سيرة ذاتية) – ستيج بيوركمان 2018
امتلاكُ سرّ البهجة (رواية) – أليس ووكر 2018

امرأة Una Donna تعتبرُ أوّلَ روايةٍ نسويّة في إيطاليا. نُشرتْ في عام 1906 وكان لها أثرٌ كبير في تهشيم ثوابت كثيرة في الوعي الإيطالي حظيت الرّواية باهتمام عالمي وتُرجمتْ للغاتٍ عِدّة. كتبتُها سيبيلا أليرامو واسمُها الحقيقي رينا فاتشيو (1876 - 1960)، والتي تقول إنّها عاشت ثلاث حيوات. الأولى، كأمٌ وزوجة، وسطّرت تفاصيلها في هذا الكتاب

الثّانية، تطوّعتْ فيها لخدمة المعوزين في أحدِ ملاجئ روما، الثّالثة، وهي الثلاثون عاماً الأخيرة من حياتها والتي أمضتْها في الكتابة والعمل.

عاشت سيبيلا خمسينَ عاماً بعد رواية امرأة. وواجهت العقَبات، وعايشتْ صراعاتٍ وحروباً، لكنّها تخطّتها جميعاً. حاولت الانتحار في لحظات ضعف، لكنّها استنتجت بعد موت زميلها تشيزاري بافيزي أنّها تهاب الموت: «أجل. أنا خائفة، والحريّة الوحيدة التي لا يمتلكها الشيوعي هي: الانتحار»، فآثرت العمل، وإلقاء المحاضرات، والسّفر، والكتابة حتّى آخر أيّام حياتها.

ومع ذلك، لم يجلبُ لها أيُّ كتابٍ من كتبها الشُهرة التي حظيت بها بعد هذه الرّواية.

المترجمة

ISBN 978-9933604271